عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الكتـــــاب: المــــارستان
المــــؤلــــف: محمد الجيزاوي
تصميـم الغلاف: علاء فريد
صورة الغلاف، هي إحدى لوحات الاختبار الإسقاطي، المستند على اختبار الطبيب النفساني السويسري رورشاخ: ‘the Rorschach inkblot test’
تـدقيـق لغـوي وإخـراج فني: حنـان ميـلاد
رقــم الإيــداع: 2016 / 26788
I.S.B.N: 978-977-6541-22-1

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©
عصير الكتب للنشر والتوزيع

محمد الجيزاوي

رواية

المَارستان

إلى روح وفاء،

أختي

التي علّمتني أنَّ المرءَ يمكنُه أن يبتسمَ، حتّى وهوَ وسطَ المأساة.

بسم الله البديع الجبَّار مَن خَلَقَ العقلَ ليختار.. فَفَعَل.

«الربُّ قال لي أنّه يرُيد أن يجعلَ منّي مجنونًا جديدًا في العالم،
والله لا يريدُ أن يقُودني بغيرِ هذه الطريقة..»

القديس "فرنسيس الأسيزي"

وجوهُهم متشابهةٌ، من ينظرُ إليهم لا يستطيع أبدًا أن يعرف من استطاع أن يفعَلها ومن عجز، فكلُّهم يسيرون وعيونُهم تنظر إلى شيءٍ بعيد يُرعبها، الذين فعلوها خائفون والذين لم يفعلوها أيضًا. الأمر لم يكن وباءً. لا يمكن تسميته بهذا الاسم بأيِّ حال، فهو ليس عدوى تنتقل من شخصٍ لآخر عبر الملامسة أو عطسةٍ في الوجه أو مضاجعةٍ فوق سرير. الأمرُ كان قرارًا محضًا كما قال "الطبيب الكبير"، أو كما يراه البعض قدرٌ أعمى، أو حتّى لعنةٌ كما قال رجالُ الربِّ! ولم يكن له في بدايتِه أثرٌ ملموس لا بخيرٍ ولا بشرّ على سير الحياة. فلم ينهَر الاقتصاد، ولا عمَّت الفوضى، ولا تعطّلت المدن، ولا حتّى تأثّرت أيُّ مؤسَّسة بما يحدُث أو لنقُل بما يُقال. الأمر برُمَّته لم يَعدُ كونه أقاويلًا، لأنَّ الجمهور لا يرى الأمرَ حقيقةً وحدثًا جادًّا إلّا إذا قالت الحكومة هذا، والحكومة دومًا هي الجارةُ الصموتة أو المرأة الخبيثة التي تُظهِر عكس ما تُبطِن، ولا يستطيعُ أحدٌ حمْلها على الحديث إلّا عندما تقرّر هي ذلك، وهي لم تقرّر بعد.. فأصبحَ أحدهم يرى الأمرَ بعينيه لكنَّه يُكذّبُه لأنَّه لا دليلَ على شيءٍ لا تُقِرُّ به الدولة، كلُّ ما نراه ما هو إلّا ادعاءٌ وزيفٌ، أو أمورٌ نُحمّلها أكثر ممّا

تَحتمِل، فنحن دومًا نُلبس الخروف ثوبَ الجَمل عندما لا نجد ما يشغَلُنا! هكذا كان يردّد أغلبُ الناس قبل اجتياح العاصفة.

غيرَ أنَّ آخر حادثتين قلَبَتا طاولةَ الحكومة. الحادثة المدوّية الأولى تمثّلَت في تلك الفتاة التي قتَلَت والديها بطريقةٍ وحشية، ثم قتَلت جارها بطريقةٍ مخزية، فكانت الأكثر ذيوعًا بين الناس.. فكلُّ خَرقٍ لقوانينِ المجتمع بشكلٍ فجّ يمثّل جذبًا لانتباه الجمهور المتعطِّش في جوهرِهِ للبطش وإن عجز عنه، والمحبُّ للفوضى البديعة، وإن كانت تُرعبُه، لكنّه لا يملكُ نفسَه عن الإعجاب بها في جوهرِ نفسِه! وعلى بشاعةِ هذا الحادث لكنَّه لم يكن هو ما أقلَقَ الحكومة وأزعَجَها، فالجرائم تحدُث على الدوام، بل وتمثِّلُ مخدِّرًا جيّدًا للعقل الكُلّي للمجتمع، فينصاعَ للحكومات، ولتكونَ الجرائمُ دليلًا على أنَّ الحكومة إن غابت تَحطَّمَ كلُّ شيء، وعادةً لا تحرص الأنظمة على منع الجرائم ابتداءً، بل كثيرًا ما تُسهِّل حدوثها! لكنَّها تحرص كلَّ الحرص على معاقبة المجرم لتصل الرسالة بشكلٍ مباشر لرعيَّتِها أنَّه لا يمكن الاستغناء عن يدِ النظام الباطشة، فتستقيم حياة الناس مكبَّلةً بقوانين الدولة، ولا تنفلت نحو حريّةِ الغابة.

الحادثةُ الثانية كانت هي المحرّك الحقيقي للحكومة للاعتراف بالأمرِ. رغمَ أنّها لم تلفِت انتباهَ العامَّة، ولا رأَوْا فيها أمرًا يستحقُّ الجذب، لكنَّ خطورةَ الحادث الثاني تَمثَّلَت في إزعاجِ الكنيسة التي رأت فيه تهديدًا مباشرًا لها، عندما تقدَّم من يهُزّ

ثوابِتَها ويهدّد ما قرَّرَته منذ قرون، فانتفَضَت الكنيسةُ مُرسِلةً رسالةً غاضبة للحكومة بحسم المهزلة. وإلّا! والدولة لم تكن مستعدّةً للدخول في معركةٍ مع رجال الدين أو خسارةِ أحدِ أهمِّ الأركان التي تدعَمُ ثباتَ أيّ نظام! لذلك استجابت سريعًا لتلك الحادثة التي أجبَرَتها على الاعتراف بالأمر، وإن لم يكن ذلك بشكلٍ مباشر على هيئة بيانٍ رسمي، أو خطابٍ يُوجِّهُه رأسُ النظام إلى الأمّة، لكن فَعَلت ذلك عبر "القضاء" الذي نظر في القضيّة التي أثارت البحر وأخرجَت أعظمَ كابوسٍ تواجِهُه دولةٌ بأكملها.

هنا فقط صدَّق الناس ما يُقال، **فالحكومةُ أصبحَت تحاكم الجنون!**

●●●

نظرَ القاضي إليه بريبةٍ وسخريةٍ بادية، فرأيُه كان على الدوام أنَّ هؤلاء الأطباء النفسيين ما هم إلّا دجاجِلةٌ جُهلاء، يُحمّلون الأمورَ أكثرَ ممَّا تستحقّ، ويريدون إشعارَ الآخرين بأنَّهم وحدهم من يمتلكون القدرة على فهمِ البشر وطبائعِهم، لم يكن ينصتُ بانتباه إلى أغلب كلامِ "الطبيب الكبير"، ذاك "الأستاذ" الذي كان الأكثر شهرةً وسط الأطباء النفسيين والذي كان قد اعتزل التدريس منذ زمنٍ بعيد، فاستدعته وزارة الصحة، بوصفِهِ الأكثر ثقةً، ليحسمَ أمر القضية التي شغلَت الجميع. عندما أنهى الطبيبُ النفسي تقريرَه المفصَّل الطويل، سأله القاضي بمللٍ وحسم: "هذه القضية تَشغَلُ الرأيَ العام وللأسف القرار فيها متوقّفٌ على كلمتِكَ التي لم أفهَم منها كلمةً، فأخبِرني بوضوحٍ شديد وبجملةٍ واحدة: هل هذا الرجلُ مجنونٌ أم لا؟".

أطرقَ الطبيبُ قليلًا متجاوزًا تلك الإهانةَ وقال له: "سيدي القاضي.. قد أوضحتُ ما توصَّلتُ إليه: هذا الرجلُ ليسَ مجنونًا بالمعنى الدارج، لكنَّه قرَّرَ أن يكونَ مجنونًا، ونجح.".

عندها فَقَدَ القاضي كلَّ صبرٍ وضربَ طاولةَ العدل بقبضةِ يدِه ورفع الجلسة.

●●●

"رجُلُ السرير" كما أطلَقَت عليه الجرائد، ظلَّ حديثَ الناس لفترةٍ طويلة. كان الرجل نموذجًا ومثالًا يتمنّاه الجميع، فمَن هذا الذي يمتلكُ القدرةَ على استنطاق الأسِرَّة والشراشف ووسائدِ الليل ليَعرِف كلَّ ما دارَ عليها، ثمَّ لا يصل إلى اليقين أو تقربه الظنون؟!

ذاعَ أمرُه في البداية عندما تمَّ الإعلان عن رجلٍ نبشَ قبرَ زوجتِهِ وحرقَ رُفاتَها، والناس بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ لحكاية هذا الرجل الذي أخبَرَه السرير بأنَّ زوجتَهُ كانت تخونه، حتّى استدعاه في البداية الكثيرُ من أصدقائه ليستمِعَ إلى فُرُشِ زوجاتِهم، وكان أنَّ أغلَبَهم طلَّقَ زوجتَه بعدها، ثم صارت النساءُ يستدعينَه ويتوسَّلنَ إليه ليخبرهنَّ بأسرار أسِرَّةِ أزواجِهنَّ، حتّى صار الرجلُ قِبلة الجميع. كاد رجلٌ واحد أن يحطِّم مجتمعًا بأكمله، لأنّه يحكي قصصًا يؤكِّدها الواقعُ، وتفاصيلَ لم يكن ليعرِفَها أيُّ أحدٍ إلّا من قامَ بها، والسرير الذي نامَ عليه.

بعدها صارَ نجمَ الجرائد والبرامج التليفزيونية التي تتحدّث عنه بشكلٍ يومي -رغم رفضِه الظهور أمام أيّ كاميرا- فتحوَّلَ إلى المجنونِ الأشهر الذي أودَعَتهُ الدولةُ (المصحة العقلية).

اقتربَ منه أحدُ الأطباء بعد دخوله المصحة، وكان يشعرُ تجاهه بريبة ويظنُّ أنَّه عاقلٌ يدّعي الجنون والقدرةَ على الاستماع إلى الأسرَّة، ليحوزَ على انتباهِ الناس، وهو الغَمْرُ الذي لا يأبَه له

أحد، بينما كان الرجلُ ينظر إليه على فتراتٍ بعيونٍ كسولة غيرِ مكترثة. سأله الطبيبُ: "لماذا لم تنبش قبرَ زوجتِك وتحرِق رفاتَها بعدما أخبَرَكَ السريرُ مباشرةً وانتظرتَ كلَّ هذا الوقت قبل أن تفعلها؟"، فأجابهُ: "دُلَّني على سريرك وأنا أُخبرك بكلِّ مخازيك!".

لم يكن يسمَحُ لأحدٍ بأن يستجوبَه، ولا يرجو دفاعًا عن نفسه، أو إثبات قدراته على سماعِ السرير، كانت ثقَتُه بكلماتِه تبعثُ الرهبة وتشكّكُ من يسألُه في نفسِه وتجعلُه ينقاد لهذا الرجل وقدراتِه بمجرّدِ أن يردَّ بالكلمات نفسِها لكلِّ من يسأله: دُلَّني على سريرك وأنا أخبرك بكلِّ مخازيك.

●●●

كنتُ أراقبُ انتشارَ الجنون في الناس بمعدّلاته المختلفة، عندما بدأ بأفرادٍ معدودين ثم أصبح يجتاح جماعاتٍ كاملة، حتّى أنَّ أُسَرًا بأكملها أصبحَت في قبضةِ المأساة. لم تكن هناك طبقةٌ داخل المجتمع بعيدة عن الأمر، وإن كان من الملاحظ أنَّ الطبقات العليا تعاني أنماطًا مميّزةً ومختلفةً من الخلل غير التي تعانيها الفقيرة.. حتّى في الجنون لا تتساوى الطبقات.. فأغلبُ الأغنياء يدورُ جنونُهم حول أشياءَ مرفَّهة، كتلك المرأة العجوز التي ترى أنّها وردةٌ، وتعاني اختناقًا وتفزعُ من ذبولها الوشيك بسبب الروائحِ الكريهة الصادرة من الناس! أو ذاك الثريّ صاحبُ الشركات الذي كان يرى موظفيهِ شياطينَ قذرين، يتجسّدون في هيئةِ بشرٍ ليسرقوا خزائنه في الليل.. بينما الفقراءُ يتخبّطون في "جنونِ الأحلام" و"جنون الموت"!.. حتّى جنونُهم كان تعيسًا كحياتِهم السويّة قبل الجنون.. ورغم الصورة القاتمة إلّا أنَّ الأمرَ لم يخلُ من فائدة، فالجنون كان هنا على الدوام والفارقُ فقط أنَّ العددَ صارَ أكبر، لكن الآن، أصبحَ الضوءُ مسلّطًا على ذاك الجذام الذي يصيب العقول، وأصبحت الدولة تخصّص أموالًا أكثر من ميزانيتها لتحسين المصحات والإنفاق على العلاج.. ذاك العلاج الذي أصبحتُ أشكُّ في جدواه، فمنذ بدءِ الخليقة والمجانين لا يعودون أبدًا كما كانوا. أقصى ما نصل إليه هو

تحويلُ المجنون إلى شخصٍ يبدو هادئًا، لكنَّ هيئَته الخارجيّة لا تعني أنَّ داخِلَه أصبحَ هادئًا أيضًا، فعالمُ الجنون محكمُ الإغلاق، ومهما بلغْنَا من التطور في علوم النفس، لازالت تلك الأرض تنمو فيها الحشائشُ الغريبة رغمًا عنّا.

فـ"الذُّهان"، أو ما كان يُسمّيه القدماء "مرض الروح"، هو المعضلة التي نتجاهل حقيقَتَها، وندور فقط حولَها، دون محاولةٍ صادقةٍ للنفاذ إلى عُمقها. حتّى تلك الأسماءُ والعناوين الكبيرة التي نستخدِمُها لوصفِ الأمر، مثل قولِنا "الاعتلال العقلي"، لا تبدو عِلميّةً بشكلٍ محايد، ولا تخلو من وجهاتِ نظرِ أصحابها الخاصّة. نحن اليوم نرفض تلك التسمية القديمة، "مرضُ الروح"، ونعتبرُها توصيفًا "رومانسيًّا" للأمر! رغم أنَّ ما أراه اليوم أصبحَ يدفعني بشكلٍ خاص إلى الميل نحو الاسم القديم، فإنَّ ما حدث ليس نتيجةً لتحرُّك العصارة الصفراء في الجسم وضَغطِها على العقل أو لخللٍ في وظائفِ الجهاز العصبي، فلا يمكن أن يحدُثَ هذا لكلّ هؤلاء الناس في وقتٍ واحد!.. الأقربُ للمنطق هو "حركةُ الروح" كما وصَفَها القدماء، فكلُّ مَن هنا تحوَّلوا للجنون بلا مقدّمات، ودونَ وجودٍ لمجانينَ سابقين في أُسَرِهِم، ممّا ينفي احتمالية العوامل الوراثية.. يبدو أنَّ "الأستاذ الكبير" كان على حقّ، وكلُّ ما يحدث هو نتيجةٌ لقرارٍ تمَّ اتخاذه!

إنَّ أرواحَهَم مريضةٌ أكثر من عقولهم. لكن كيف لنا أن نثبت هذا؟ وكيف نحكم على شيءٍ أثيري لا يخضع لقوانيننا الصارمة مثل الروح؟!

كلُّ وسائلنا المتَّبَعة والقائمة على القواعد العلميّة تبدو كحرثٍ للبحر. نعم إنَّ المحراث جيّد، لكنّه لا يقوم بعمله. وهذا يضعُ العلمَ برمّته في مأزق. بل إنّه كان في مأزقٍ على الدوام، لكن لا يمكن أن نقول هذا بوضوحٍ وجرأة، لأنَّ هذا يعني أننا لا نساوي شيئًا وعلينا أن نعود إلى منازلنا فنَلزَمَها.

انتهى.

ديميان لم يكن يومًا مسيحيًّا قليلَ الإيمان، ولا كان من النوع المتفكِّر في أصول عقيدتِه، ولا حتّى ذا ذكاءٍ كبير، بل على العكس، كان أقربَ للبلادةِ منه إلى الذكاء، فلا هو القارئُ، المطّلع، ولا هو المتسائل، الشكّاك.

كان على الدوام رجلًا مطيعًا لا يفكّر كثيرًا، أو ما يمكن أن نسمّيه "مؤمنًا جيّدًا"! لكنّه استطاع أن يحرّكَ الحَجر عن فمِ البئر لتنهضَ أفاعي الريبة والشكّ، فنهَشَت أغلب مَن حوله.

في صباح ذاك الأحد، بينما الكاهنُ منتصبٌ أمام مائدتِه المقدَّسة، يُقطّع لحمَ الربِّ ويفرّق دمَه في كأسٍ على رعيّةِ كنيستِهِ وهُم يتهافتون عليه في خشوعٍ وسكون، تقدَّمَ (ديميان) كصخرةٍ متدحرِجة نحو المائدة صارخًا بصوتٍ لم يُسمع منه قطّ، وهو الهادئُ خافتُ الصوت كما اعتاده الجميع، فألقى "الخبزَ المقدَّس" و"النبيذَ الإلهيّ"، اللذان يمثّلان لحمَ (يسوع المسيح) ودمَه، فوقَ الأرض، وهو يصيح: "لن تأكلوا لحمي ولن تشربوا دمي! منذُ ألفِ سنةٍ تأكلونني يا أبناءَ الأفاعي ولا تشبعون؟! لو كنتم حقًّا خرافي وعبادي كيف طاوَعَتكم قلوبُكم أن تأكلوني؟!".

ذاك الحدثُ الذي زَلزل كلَّ من شاهده بينَ مستنكرٍ ذاهل وضاحكٍ مُندهش، لم يمرَّ بيسرٍ كأمرٍ سخيف قام به رجلٌ مختلّ، فبعدما حدَثَت الضجّة داخلَ الكنيسة، هرع الحرسُ إلى الرجل فقيَّدوه وأرادوا حمله قسرًا إلى مخفر الشرطة، لكنَّ ابنته توسَّلت للكاهن ألّا يتركهم يأخذونه للمخفر، وأكَّدت له أنَّه يُعاني

من أزمةٍ نفسيّة والأَولى أن يُحمل إلى المشفى. استَجاب لها الكاهن، فتركَه الضابط الصغير المكلَّف بحماية الكنيسة.

قامت ابنةُ ديميان بأخذه إلى المصحّة النفسية التي قضى بها ليلتين، والتي صادف أنَّ "صديقًا" مقرّبًا لابنته يعمل بها، ولم يكن أحدٌ من الأسرة يعرف أنَّ ثمّةَ قصّة حبٍّ تنام تحتَ أرضِ هذه الصداقة.

تمَّ رفعُ الأمرِ إلى رأس الكنيسة الذي أَمَرَ أسرة ديميان بإخراجِه من المصحة، والعودة به إلى الكنيسة! قامت الأُسرة بما أُمِرَت به، رغمَ رفضِ الطبيب الذي علِم من ابنة ديميان أنَّ الكنيسةَ ستحتجزه، لكنَّ الإدارة لم تستطع أن تخالف القوانين إذ يحقُّ لأهل المريض استعادَته في أيِّ وقتٍ يقرّرون ذلك، مادام احتجازه ليس بأمرٍ قضائي، كما أنّه لا يشكّل خطرًا على من حوله، ممّا اضطَرَّ الطبيب أن يقوم، بالاتفاق مع ابنة ديميان، بمغامرةٍ صغيرة بعيدًا عن قواعد المصحة لمنعِ الكنيسة من احتجازه، فلجأ إلى تحريرِ محضرٍ في قسم الشرطة ضدَّ أسرة المريض، فذهب ضابطٌ مع الطبيب لمقابلة الكاهن المسؤول عن الكنيسة للوقوف على الأمر.

استقبَل الكاهنُ الضابطَ والطبيب وهو واقفٌ دون أن يدعوهما للجلوس. فابتدأَه الطبيبُ سائلًا:

- يا حضرة الكاهن كيف تسمح لأفرادٍ بإخراجِ مريض قسرًا من المصحةِ وهو بحاجةٍ ملحّة للعلاج؟

- من الذي أخرجَه؟
- أسرته.
- حسنًا. ها أنتَ قلتَ أنَّهم أسرتُه، ولا أحدَ أحقُّ به منهم.
- لكنَّه بحاجةٍ إلى العلاج. وهو لم يحصل عليه بعد!
- حاجتُه للإيمان أكبر. وهنا سيحصل عليه.
- لكنَّ هذا خَرقٌ للقانون.
- يا بنيّ خَرقُ القانون أهوَنُ كثيرًا من خَرقِ الإيمان. فالأوّل قد يودِعُك السجن، أمَّا الآخر فإنّه يُودعك الجحيم، وكلُّ سِجنٍ فوقَ الأرض هو جنَّةٌ بجِوار هوَّةِ الجحيمِ السحيقة.

ثم وضع الكاهن يدَه على كتفِ الضابط وضغط عليها بقبضةٍ بين اللطفِ والقسوة: "قل للطبيب يا حضرةَ الضابط أنَّ أهلَ "المريض" -كما يسمّيه هذا الطبيب- هم وحدَهم المخوّلون بحقِّ التصرف فيه، فهُم من ذهبوا به إليهم، وهُم أيضًا من أخرجوه، أليس ذلك قانونيًّا؟"، ثم التفتَ إلى الطبيب وأشار إلى أربعةٍ كانوا جُلوسًا أقصى الكنيسة وقال: "هل ترى هؤلاء أيّها الطبيب؟ إنّهم أهله، وهؤلاء فقط من لهم حقُّ تقريرِ مصيرِه، تمامًا كما أنَّ الكنيسة فقط هي من تقرّرُ مصيرَ رعاياها، فاذهَب إليهم واسألْهم أين ترَون الخيرَ لابنكم؟".

أدركَ الطبيب أنَّه لا حيلةَ له في الأمر، لا سيّما بعدما اعتذرَ الضابطُ للكاهن عن تضييع وقته، وشكَره على جميل

استقبالِه لهما. تبسّم الكاهن له دون أن تبدو أسنانُه ورفع يده أمام صدره، فانصرفا.

لبيب على ضآلةِ جسده، ودمامةِ وجهِه، كان متكبّرًا، غيَّاظًا للعالمِ بأسرِه، يسخرُ منه ولا يأبه له، حتّى أنَّه كان يُغيظ الحرَّ فيرتدي ثلاثةَ أثوابٍ في حرور الصيف والناسُ تذوب من العرق وهُم عرايا، وفي الشتاء، لا يَغتسل إلّا بالماء البارد.

كان لا يرى قيمةً للنور إلا إذا أغاظ به من يتخبَّطون في العتمة، ولا يعرف الكمالَ في نفسهِ إلّا إذا نقص بأنفُسٍ من حوله، ولا يشعر بقيمة بلوغِ الغاية إلّا إذا رأى الحقدَ في عينِ الناس، ليَحرقَ قلوبَ المحبّين والكارهين على حدٍّ سواء، ويفرح برؤيةِ الحسرة والحقد في العيونِ من حوله، بل إنَّ رؤيةَ حسرتِهم واحمرار الحسد في عيونِهم، وتطايُر شرارِ الحقد من قلوبِهم، هو اللذّةُ بحدِّ ذاتها لديه.

كان (لبيب) الشاهد الوحيد على جريمةِ قتلِ الفتاةِ لوالديها وجارها. كان لا ينظر إلى الضابط الذي يستجوبه في محلِّ الجريمة، بل يجول بعينيه في جنبات الشقّة، وأكثر من مرّة حاول أن يقوم ليستطلعَ المكانَ بنفسه، وطلب من الضابط ذلك وضحكتُه العريضة لم تغادر وجهَه، حتّى نهَره الضابط بقوله: "يبدو أنَّ سكّان هذا البيت جميعًا مجانين، لا أدري من المحقّق هنا؟ اِجلس حتّى أنتهي من التحقيق ثم سأصحبُكَ في جولةٍ داخل المكان لتعاينَ آثار الجريمة أيّها المختلُّ الآخر.".

لم يكن تبرّعُ لبيب بالشهادة لكشفِ الحقيقة، بقدر ما كان دافعُه أن يستمتِع برؤية ما حدث. أخبَر الضابطَ أنّه سمع صراخَ الأمِّ مدوّيًا وهو صاعدٌ لشقتّه لكنَّه لم يكترث، لسببين، أوّلًا لأنّه لا يكترث لشيء، وثانيًا لأنَّ الأمَّ كانت دائمةَ الصراخ على ابنتها ليلًا ونهارًا، لكنَّ ما استوقَفه وأغاظه، أنَّه عندما نزل مرّةً أخرى سمع الفتاة تغنّي بصوتٍ مرتفع، أو شيءٍ يشبه الغناء، فقد كان في صوتها بهجةٌ، وهي التي لا تنطق إلّا لِمامًا وإن ندَّ عنها صوتٌ فهو صوتُ بكائها، فطرق الباب ليعرف لماذا تفرح هذه الفتاة وتُخالف عهدَ حزنها.. فلمّا فتحَت له والدمُ يغطّي وجهَها وسائرَ جسدِها، اطمئنَّ قلبُه، وتبسّم لها ثم انصرف، دون أن يتحدّث إليها بكلمةٍ واحدة.

جاوزَ لبيب الأربعين من عمره ولم يتزوّج، يعيشُ مع أمّهِ العجوز بالشقّة وحدهما، لم يشهَدهُ أحدٌ برفقةِ صديقٍ قطّ، رغم أنَّه دائمُ الاختلاط بالناس، لكنَّه لم يتَّخِذ صاحبًا أبدًا.. يكلّم الناس ويعاملُهم في متجره بسخريةٍ لا سقفَ لها، ويتحرش بكلِّ من يلقاه أثناء مروره بالطريق، وما تحدَّثَ إليه أحدٌ قطّ إلّا وتركه كارهًا له متمنّيًا هلاكَه، فلا يَترُكُ بمن حوله إلّا الشعورَ بالنفورِ منه لسلاطةِ لسانه وسخريتِه من كلِّ ما حوله.. وعلى كراهيّةِ الناسِ له لكنّه لم يكن يكفُّ أبدًا عن الضحك، ولا يراه أحدٌ إلّا مسرورًا مزهوًّا بنفسه.. ولم يكن يتوقفُّ عن ارتكاب أشياءَ لا يفعلُها سواه، فكان ينتظِرُ في زوايا الطرُق، حين تجتمعُ ذكورُ القطط وإناثها، فيراقبُهم حتّى يقتربَ القطُّ من أُنثاه يتشمَّمُها،

وبعدما يعضُّ الذَكرُ على رأسِها ويبدأ معاشرتَها، يُخرج لبيب عصاه، ويهرول إلى القطِّ حين يبدأ متعته وقبل أن يُتمَّها، فيضربه فوق ظهرِه، ثم يضحك بعدما تفرُّ الهررة وهو يجري وراء الأنثى ويقول لها: "أفسدتُ متعتَكِ يا عاهرة. لن تنعمي بمعاشرةٍ وأنا هنا أبدًا!".

يئسَ جيرانُه من القدرة على تكديرِه كما يكدّرُهم على الدوام، وأُسقِط في أيديهم بعدما قام إليه يومًا جاره الإسكافي يأمره بحُسنِ معاملةِ الجيران، وأن يكفَّ عن السخرية منهم، مذكّرًا إيّاه بأنَّ شُكرَ نعمةَ الله عليه يكون بالإحسان لمن حوله، فردَّ عليه بأنّه يُحسن إليهم عندما يُخبرهم بحقيقتِهم وحقيقةِ حياتِهم المقززة، ثم تابعَ كلامهُ مشيرًا إلى جاره الجزار: "هذا البغل مثلًا لم يفتَح محلَّه إلَّا من مالِ زوجتِه الأكثر سمنةً من عجولِه، والتي عندما لم تجِد من يتزوّجُها، نكحَها ذاك النطع، فصبر على ترهّلِ لحمِها لأجلِ مالِها، وهذا الشيخ الكبير بائع القماش، أُنظر إليه، جاوز الستين لكنّه نجِسٌ، لا يستعمل بمحلِّه غير الغِلمان الصغار ليخدمونه أوَّلَ النهار ويركبَ ظهورَهم آخرَه، وحتّى أنتَ أيّها الإسكافي الكسول تظنُّ أنَّكَ رجلٌ صالحٌ صبور ترضى بقدَرِك، والحقُّ أنّكَ كسولٌ أحمقُ، اخترتَ حرفةً لا تبذل فيها جهدًا ولا تصنع فيها شيئًا، فما رأيتكَ يومًا واحدًا تصنع حذاءً، وغاية أمرِكَ أن تنتظرَ أمام حانوتِك ليأتي إليك رجلٌ يقذف حذاءه بوجهك لتلمّعَه له، مقابلَ قروشٍ بالكاد تُطعمُكَ، ثم تتسوَّل من غيرك عندما لا تسدُّ رمقكَ.".

استشاط الإسكافي غضبًا لإهانة لبيب البالغة له، ولمن حوله، فردَّ عليه بذِكر أصلِه الحقير:

- لماذا تغترُّ علينا؟ وأنتَ لا أهلَ كرامٌ لك؟ ولا مال تركه له أبوك؟ إنّما هو عماءُ القدر من جَعل منك ثريًّا، فأعطى الدنيءَ الرِّفعةَ، ومنحَ الثروةَ للقذِرِ القبيح!
- هذا هو ما يجعلني أحتقرُكم كما أحتقرُ أهلي، فقد صَنَعتُ بيدي ما عجَز عنه آبائي البغال الذين كانوا على شاكلتِكم.

عندما لم يجد الإسكافي ما يهزمه به قال له: "واَعلمْ أنَّكَ ابن حرام وأنَّ أمّكَ قد حمَلَت بكَ سِفاحًا"، فضحكَ لبيب حتّى بدت نواجذه: "أعلمُ هذا منذ كنتُ في العاشرة من عمري، وضحكتُ كثيرًا عندما أخبرتني أمّي كيف حدث الأمر، وكيف أنَّها لم تعد تتذكّر حتّى اسمَ ذاك الرجل الذي حمَلَت منه، والغريب يا أخي أنَّ ذاك الرجل، زوجها، الذي كان يظنُّ أنّه أبي، كان على الدوام يضربني في صغري لأنّي كنتُ أضحك كلّما قال لي أشياءَ من قبيل "اجتهد في دروسك يا بُنيّ"، فكنتُ أضحكُ جدًّا لكلماته تلك حتّى أسقط على ظهري.. فيغضب لضحكي الذي لا يفهم سرّه ويضربني، وكلّما زاد ضربه لي كلّما ازدادَ ضحكي.. هل تعرف؟ قد زرتُ قبره أوَّلَ أمس، منذ عشرينَ سنة ولأوَّلِ مرّة أزور قبرَه لأخبره الحقيقة التي مات وهو يجهلُها، وعندما سردتُ عليه القصَّةَ كلّها التي حكتها لي أمّي.. رأيتُ سبعَ خنافس تَخرج من

تراب القبر، فعادت لي عادتي القديمة وأخذتُ أضحك حتّى سقطتُ على ظهري وأنا أقولُ له: "لازلتَ لا تفهم أيّها الغبي؟ حتّى وأنتَ في قبرك مغفَّلٌ مثل خنافسكَ التي خرجَت تكذّبني".".

هنا ضربَ الإسكافي يدًا بيد وانصرفَ عنه ومَن معه ولم يقرَبه أحدٌ بعدها قطُّ بكلامٍ أو نصيحة.

●●●

رسول أو كما عرفَه الناس ودَعتهُ الجرائد "رجلُ السرير"، كان الرجل الذي تعرف الدولة بأَسرِها نظامًا وشعبًا أنَّ زوجَتَه قد خانته. أو هو من قرّر أن يعرفوا ذلك. لا أحدَ يعرف هل هو قرارٌ بفضحِ سيرتها للأبد، أم قرارٌ بمعاقبَةِ نفسِه على أنّه كان الرجلَ الساذج المستغفَل بيسرٍ وبساطة، أو ربّما كان يعاقِبُ فطرتَهُ التي فعَلَت به هذا، وأيًّا كان السبب، فإنَّ (رسول) أشعَل النار في أرواحِ وعقولِ كلِّ مَن حوله، وما من أحدٍ تحدّث مع ذاك الرجل ولم يُصِبه التغييرُ الرهيب، والتحوُّل المفزِع.

كان أشبَه بالعصا التي تمسُّ البحرَ فيصيرَ أرضًا، أو تضرب الأرض فتصبح بحرًا. يبثُّ روحَهُ بأرواحِهم. أو كما قال الأطبّاء، ينتقلُ وهمُ الجنون وضلالَتُه إلى من يسمَعُه، أو كما قال الناس، يَخرُجُ الجنيُّ الذي يسكنُ رسول ليتلبَّسَ بمن يستمعُ إليه.

لا أحد يعرف الكثير عن زوجتِه ولا القليل. الكلُّ، فقط يعرفون، أنّها قد خانته، لكنّه وحدَه، من يمتلكُ تفاصيلَ القصّة التي لا يعرفُها أحدٌ سواه! كانت أمّه من اختارتها له، فهو خجولٌ لم يفكّر بالزواج يومًا حتّى ذكّروه بتلك الضرورة الحياتيّة بعدما بلغ الثلاثين، وقد وقعَ اختيارُها على ابنة جيرانهم.

أحبّها ربّما لأنّها المرأةُ الوحيدة التي عرفها، فظنَّ أنّها كلُّ النساء، ولا وجود لهنَّ خارجَ دائرتها، ولا خارج جسدِها أيضًا، ولم يشتَهِ يومًا سواها ولا حتّى بنظرة. تزوّجا وتعلَّمَ الحبَّ مع المرأة

الوحيدة التي أثبتَت له أنَّ النساءَ وجودٌ مختلفٌ عن الرجال، وقبلَها ما كان له علمٌ بأيِّ شيء.. فَهِم بفطرته البسيطة أنَّ الحبَّ منحصرٌ في تلبية طلبات الزوجة ومساعدتها في غسل الأواني بعد العشاء، وأن يعاشرها مرَّةً مساءَ كلِّ خميس، ففعلَ ما أَمْلَته فطرتُه عليه، وأثمر زواجُهُما ولدًا.

مهما قَسَت معاملتُها له يَصبر ولا يتذمّر.. لأنّها المرأة الوحيدة في الوجود، فلا بدَّ أنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تتعامل بها كلُّ النساء، فلم يكترِث أو يفكّر في تغيير ملامحِها التي لا تبتسم إلّا نادرًا، ولم يحاول أن يسألها لماذا أنفاسُها ضعيفةٌ هادئة ساعةَ المعاشرة، ولم يستغرب لماذا يئنُّ هو فوقَها بينما هي مكتومةُ الصوت، ولم يفكّر لماذا لا تتحرّك وهي نائمةٌ تحت صدرِه بينما يتهادى هو فوقَها، ولم يفهم لماذا لا تزفر ولا تشهق، فقد كانت المرأةَ الوحيدة التي عرفها.. ومادامت تلك طريقتها فلا بدَّ أنّها الطريقةُ الوحيدةُ للنساء! عشرُ سنوات وقناعاتُه لا تتغيّر وعاداتُه لا تتغيّر، وصبرُه المملوءُ بالرضى أيضًا لا يتغيّر.

قرَّرَ مديره أن يُرسله إلى أحدِ مقرّات الشركة البعيدة لمتابعةِ الفرعِ هناك وضَبطِ حساباته، وهو الذي لم يغادر بلدتَه طيلة حياته، فقد علَّمته فطرتُه أنَّ الناسَ يحيَون حيثُ يولدون ويموتون حيثُ يقيمون، فاستجابَ لها.. لكن لا مفرَّ من تلبيةِ ضرورة العمل.. حزم حقيبةً خفيفة وسافر.. ولأوّل مرّة منذُ أشهرٍ طِوال ابتسَمَت له زوجته ابتسامةً عريضة وهي تودّعه عند باب الشقّة ذات الغرفتين فقط.

قضى يومَه بطوله في جرد حسابات الشركة، ثم ذهب ليستريح. دلَف إلى المكان المخصّص لمبيته هناك، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلًا، العاشرة تمامًا كعمر ولدهما، قبل أن يخلعَ ملابسه اقتربَ من الهاتف النائم بجوار السرير الصغير ورفع سمّاعة الهاتف ليطلب رقمًا يحفظه جيّدًا، بل هو الرقمُ الوحيد الذي يحفظه ولا يُدوّنه، إنّه هاتفُ بيته. رنَّ الهاتف رنّةً واحدة ثم رُفعت السمّاعة على الطرف الآخر، الطرف البعيد هناك، حيث زوجته التي هي كلُّ النساء.

"آلو".. ردّدها ثلاث مرات، لكن لم يكن هناك من يردُّ ولا من يجيب.. صمَت ليسمع ما لم يسمعه من قبل، فقد انفتحَت سمّاعةُ الهاتف وتحرّكَت بمقدارٍ يَسمحُ بنقلِ الخيانةِ حيّةً على الهواء، دون أن يدري العشيقان أنَّ الأثير يفضحُ سرَّهُما ببطءٍ مؤامرةٍ حاكَهَا القدر، ونفَّذَتها سمّاعةُ هاتفٍ أرادت كشْفَ السرّ بهزَّةٍ عن غيرِ قصدٍ.

صوتُ الأنفاس يتسرّب إلى أذنه كأنّه أسرابٌ من النمل، تغزوه من الداخل وتصبُّ سمَّها يحرق ولا يقتل. آهاتُ امرأتِه تتعالى. تلك الآهات التي لم تَخرج يومًا في فراشِه ولم يكن حتّى يَعلم بوجودها، ولأنّها كانت المرأةَ الوحيدة فقد كانت قناعتُه أنَّ كلَّ ما تفعلُه هو الممكنُ الوحيد ولا شيءَ غيره. آهاتُ صوتها مختلطةٌ بهمهماتٍ وكلماتٍ غيرِ مفهومة! لكنَّ بعضَ الصوت يمكن رؤيتُه -لا- سمَاعَه. كانت كلمات عارية.. كلماتٍ شبِقة.. كلماتٍ

متلذّذة.. لكن لم يَفهَمْها. لأنَّه مِن قبل لم يسمَعها: (أوجِعني أكثر.. اِملأني).. هكذا وصلَت، وهكذا بهِ نزلَت. كان الصوتُ يحملُ خربشاتِه على ظهرِها واعتصاره لخمرها.. تقفُ الهمهماتُ قليلًا وتسكتُ الأنفاسُ المتلاحقات التي لم يسمَعها يومًا لترنَّ أصواتُ قبلاتٍ غريبة.. يتَمايزُ الصوت بين الرفيع والغليظ.. صوتُ القبلات كان يدلُّ على الأماكن التي طُبِعت عليها.

صمتَت السياط.. وندَّت آهةٌ عالية ثم زفرةٌ مرتعشة.. ثم اختفى الصوت. سقطَ في بئره الذي حواه للأبد، تمامًا كما سقطَت السمّاعةُ من يدِه.

استعاد المأساة، أمسَكَ بسمّاعةِ الموتِ الهادر وأعاد الضرب على أزرار الهاتف بالرقمِ ذاته، رنَّ الهاتف.. ورنَّ.. لكن هذه المرَّةَ لم يَرَ. لأنَّ السمّاعة لم تُرفَع!

ترك حقيبَتَه واحتذى نعلَه وهرول إلى بلدته، تحمله ألسنةٌ من لهب وتُلقيه ضرباتٌ من صواعق.. وضعَ مفتاحه بالباب، وحرّكهُ ببطءٍ، ثمَّ اتّجهَ إلى الدُرج الصغير أسفل مكتبة التلفاز حيث المسدّسُ العتيق الذي ورثه عن أبيه، مسدّسٌ محشوٌّ بطلقةٍ واحدة.. لم يفكّر يومًا فيمَا قد يستخدِمُهُ.. فقد علَّمَته فطرتُه أنَّ الناس لا يمكن أن يقتل بعضُهم بعضًا.. لكنّهم قتلوه. فعَلِمَ أنَّ للمسدّسِ مهمّةٌ محدَّدةٌ، تُنجزُها الطلقةُ الوحيدة، فاتّخذَ قرارَهُ، في المسافةِ ما بين الصالة الصغيرة، وغرفة نومه.

لم يفكّر بقلبِ مَن ستستقرُّ الطلقة، الزوجةُ أم العشيق؟ فقط كان يسيرُ، إلى المصير.

حرّكَ مقبضَ الباب ففُتِحَ دون ضجّة.. كانت المرأةُ الوحيدة التي عرفها والمرأةُ الوحيدة التي أحبّها، تلك التي لا تشهق في فراشِه ولا تتأوّه في ليالي الخميس تحتَه، تلك المرأة التي ظنَّ أنَّ طريقتها هي الطريقةُ الوحيدة المتاحة لأنّها كانت دومًا كلَّ النساء، كانت نائمةً، فقط نائمة، والهاتف بجوار السرير نائمٌ هو الآخر بعدما أيقظَه للأبد، فلم ينَم بعدها. لازال المسدّس في يدِهِ وبجوفه رصاصةٌ وحيدة.. استيقظت زوجته عندما شعرت بوقوفه فوق رأسها: "ماذا بك؟ هل حدث أمر؟ ولماذا هذه العودة المفاجئة؟ أقلقتني. ءأنتَ بخير؟".. عينه تدور في أرجاء الغرفة، يبحث عن ذاك الذي جعلها تشهق معه، بينما لم تشهق له يومًا، لكن لا أثرَ يُثبت الجريمة. وزوجتُه بادٍ عليها أماراتُ النومِ العميق ووجهُها هادئٌ غيرُ خائفٍ، فقال بصوتٍ محتضر: اِتصلتُ وسمعتُ.

- اتصلتَ متى؟
- عندما كنتِ تشهقين.
- أشهق؟!.. كنتُ نائمةً ولم أسمع الهاتف. ربّما ضَرَبتهُ يدي فتحرّكَت السمّاعة دون أن أشعر أثناء نومي، لكن ماذا تعني بأشهق؟ لماذا تمسك بهذا السلاح؟ أنا لا أفهم شيئًا.

حدَّقَ بها مستنجِدًا بفطرتِه أن تُخبره بكذبِها، أو صدقِها، لكن صمتَت الفطرة، تمامًا كما صمَتَ لسانه. غادر الغرفة إلى الصالة الصغيرة وهي في إثره تسأل: "هل تشكُّ بي أم ماذا؟".. نظر بعينٍ غائمة تغطّيها ظلالٌ من الشكِّ الحارق:

- قد سمعتُ.
- ماذا سمعت؟
- شهقاتكِ وآهاتكِ.

بكَت ولطَمَت خدّيها.. "أتشكُّ بي لأجلِ مهاتفَةٍ لم تحدُث؟ أنا لم أسمع الهاتف من الأساس.. ربّما طلبتَ الرقم الخطأ.. ربّما وهمُكَ أعماك".. سكَتَت. وسكت. وتهدَّم بداخله قصرٌ كبير. ولأوَّل مرّة أصبح يسأل نفسَه: "إذا كان الاتصال خطأً.. فلماذا تشهَقُ النساء وهي لا تشهق؟ وإذا كانت هي، ولا بدَّ أنّها هي، فكيف أُبرهِن وأُثبت أنّها شهقت وهي يومًا لم تشهق بي؟".

مرَّت عشرُ سنواتٍ أخرى لم يَقرَبها فيها يومًا، وأصبحَت ليلةُ الخميس ككلِّ الليالي.. كلَّ مساء يدلف إلى غرفة ولدِهِما النائمِ، ممسكًا بمرآةٍ صغيرة، ينظرُ إلى وجهِهِ المنعكس ويحدّقُ بملامحِهِ، ثم ينظرُ لوجهِ ولَدِهِ، يراجع ملامحَه على ملامحِه.. أنفُ الولد صغيرٌ منحوت بينما أنفُه كبير، وعيونُ الولد عسلية بينما عيناه سوداوان، لكنَّ شعرَه يشبهُ شعرَه في تجعّده.. "أهو منّي أم أنّه ثمرةٌ من أَخرجَ شَهقَتها؟".. عشرُ سنوات لم يكفَّ عن طقسِه.. يحدّث نفسه كلَّ ليلة أنّه ربّما يجد شيئًا جديدًا يربط بين ملامح

ذاك الولد وملامحه.. كلُّ شيءٍ يقول أنَّ الولدَ لأمّه وليس له.. لكنَّ شعرَه المجعّد يشبهُ شعرَه جدًّا، فيحبسُه في شكٍّ أبديّ.

كانت الشهقة ترنُّ في أذنه كلَّ مساء، والآهاتُ تجلدُ روحَه كلّما غفَت عينُه، ينتظر أن تشهق امرأته مرّةً أو تتأوّهَ ولو على سبيل الخطأِ ليمسك بالدليل! لكنها على الدوام صامته، حتّى حين يتلصّص على نومها ليسمع شهقةً أو همهمةً تخرج منها في النوم لتمنحَه ذاك الدليل، لا يحدث هذا. نومها صامتٌ أخرس. وحينما تمرض يظلُّ بجوارها على أمل أن تستخرِجَ مواجعُ المرض وآلامُه شهقةً منها أو آهةً يطابق بَصمَتَها بالشهقات والآهات التي يحفظها بروحه، لكنَّ الملعونة لا تفعلُ أبدًا. كأنّها تعرف ماذا ينتظر، فلا تمنحُه رجاءه الذي يبحث عنه منذ عشر سنين، فلا النوم ولا المرض ولا المتاعب يجودون عليه بالبرهان!

لازال يسابق الزمن يبحثُ عن برهان خيانتها، حتّى جاء الموت فسحب أوراقَ اللعبةِ كلِّها من يده، فزوجتُه في النزعِ الأخير، تَحتضر. أوقفَ أنفاسَه واقتربَ منها حتّى لامسَت أذنُه فمَها وأنفَها، يستنطقُها، يتوسَّلُ للشهقة التي يحفظُها منذ عشر سنوات ويسترجعُها كلَّ ليلة أن تخرج، يريد أن يستريح أخيرًا بحسمِ خيانتِها، وولدُه واقفٌ على رأس أمّه يبكي.. عينُه لا تشبهه.. أنفُه لا يشبهه.. ملامحُه كلُّها كاذبةٌ لقيطةٌ ليس سوى شعره المجعَّد ابن الزنا الذي لازال يُضلِّله.. والموت يتدلّى من سقفِ الغرفةِ مُخرجًا لسانَ الخيبة في وجهِ الأمل، دار اليأسُ دورتَه حتّى

اكتملَت، وضاع البرهانُ للأبد، فما من دليلٍ يمنحُه الأمواتُ على خيانتهم إن هُم رحلوا، كلُّ دليلٍ يبقى منقوصًا ما لم يعترف المجرم بما كسبَت يداه، فلا دليلَ على جريمتِها إلى الأبدِ. صمتَت الأنفاسُ فسقَطَ الأمل. ماتَت قبل أن تَشهَق.

دفنوها، وعادوا. والرجلُ الذي تعلَّمَ كلَّ شيءٍ من فطرته قابعٌ في بيته لم يشارك في دفن الخيانة. فالقبر في قلبه، والموت لم يكن لها.. بل لكبريائه وحبِّه الوديع. أخرَجَ ورقةً ونظر إلى ملامح الولد الماثل أمامه يرتجف بالبكاء، وكان الدرسُ الأخير من فطرته: "اِمنح حتّى من لا يستحقّ"، فكتَبَ له كلَّ ما يملك. ثم غادر إلى حيث لا يعلم أحدٌ قطّ.

سماع لم يكن اسمُها وحده هو الغريب وغير المفهوم، تلكَ الفتاةُ الصموتة على الدوام، والتي لا يشعرُ بها أحد.

قصيرةٌ، شديدةُ النحافة، شعرُها ناعمٌ خفيف كشعرِ امرأةٍ جاوزت التسعين، يمكنكَ عدُّ خصلاته، ووجهُها أبيضُ مسحوب، انغمرت وجنتاها، وخدّاها، فصار وجهُها كلوحةٍ مطموسة ليس به سوى عينان مستديرتان واسعتان عسليّتَا اللون، وفمٌ كأنّه قد تمَّ شقُّه بمُدية بشكلٍ غيرِ دقيق، فلم يأخُذ مساحتَه الكافية، ويكاد لا ينفرجُ أبدًا، إلّا حين تحشو الطعام بصعوبةٍ في ذلك الثقبِ الضيّق الذي تتراص فيه أسنانٌ صغيرةٌ وحادّة كأسنانِ قِطّ.

لم يكن أحدٌ يعرف عمرها بدقّة ولا حتّى أبواها قبل قتلِهما، إذ لم تكن يومًا محلَّ اهتمامٍ من أحد، لكنَّ جدّتها العجوز كانت تؤكّد للشرطة بعد حدوث الكارثة أنّها لم تتجاوز السابعة والعشرين من عمرها!

كانت البنتَ الوحيدة لأبوين جاوزا الخمسين من عمرهما، هذا ما أكّدته البطاقات الشخصية التي عثَرَت عليها الشرطة حين فحصوا المنزل والجثث الثلاث المتحلّلة.

لا أحدَ يعرف متى بدأ الأمر، فقد كانت صامتةً على الدوام أمام الغرباء. كان كلُّ العالم يمثّل لها زحامًا من الغرباء، إلّا رجلان يسكنان أعلى المنزل: رسول، والساكنُ الآخر في الغرفة المجاورة.

اعتاد رسول أن يتحدث إليها كلَّ صباح وهو خارجٌ من غرفته، بينما هي تطعم دجاجاتها، فتخبِرُهُ باسم كلِّ دجاجةٍ منهنَّ وهو يسمعُها ويبتسمُ ويقولُ لها: "أسماؤها جميلةٌ مثل اسمكِ يا سماع.. لكنّكِ لم تخبريني يومًا بأسماء الديوك.. أعرفُ أنّكِ تكرهينهم لأنّهم يؤذون الدجاج.. وأنتِ طيّبةٌ، كالدجاجات، حتّى أنّه يمكن أن يصبحَ لكِ يومًا منقارٌ مثلُهنَّ، وساعتها تستطيعين نقرَ رأسِ كلّ من آذاك!".

كان الحديثُ نفسُه يتكرّر بحذافيره كلَّ صباحٍ، كأنّها لم تفعل هذا بالأمس، وكأنّه نسيَ أنّه سمع الكلماتَ ذاتها مرارًا وتكرارًا.

الرجل الآخر، لم يحدثّها أبدًا. كانت عادته أن يعزف على عوده كلَّ صباحٍ قبل ذهابه للعمل، وكلَّ ليلةٍ قبل نومه، فتترقّبُ (سماع) موعدَ عزفِه، لسماعِه، وهي بموطنها المفضّل، حظيرةُ الدجاج، فقد كانت الحظيرة تمثّل كلَّ عالمها.

لم تعرف أمُّها أبدًا سرَّ قطع رؤوس الديوك بين فترةٍ وأخرى، فلو كان قِطًّا من قتلَهم، فلماذا لم يأكلهم واكتفى فقط بقطع رؤوسِهم؟! لم تتخيّل أمُّها أبدًا أنَّ ابنتها هي من تقطع رؤوس الديَكة، لأنّها تعاشرُ الدجاجات، وتنتقلُ من دجاجةٍ لأخرى! فكانت سماع تمسحُ على ريشِ الدجاجة الأولى برفقٍ، وبعدما يبدأُ الديك مع دجاجةٍ أخرى، تقبضُ على رأسِه ولا تترُكُها إلّا وهي مقطوعةٌ بين يديها، والجسدُ ملقًى على أرضِ الحظيرة!

كلَّ صباح تجلسُ في الحظيرة تقضي وقتها في نثرِ الحبوب للدجاجات، وتهشُّ الديوكَ حتّى تنتهي الدجاجات من طعامها ثم تتركَ للديوكِ ما تبقّى، إن تبقّى! حتّى انشغَلَت برؤية هذا الرجل الذي يحيا منفردًا في غرفته، يخرجُ منها كلَّ يومٍ وهي في الحظيرة فينظر لها بغيرِ اكتراثٍ، ويمرُّ وهو مراقَبٌ منها، ومن عيونِ الدجاجات التي تلوي رأسَها لتبصرَ حركةَ ذاك الغريب بغيرِ اكتراثٍ هي الأخرى.

لم تسمع صوتَه أبدًا إلّا عندما صعدَت أمُّها لحجرته وقرعَت بابه ونهرَتهُ كي يكفَّ عن عزفه الذي يزعجُ نومَها طوال الليل، فاعتذر منها وأكدّ لها أنّه لم يكن يعرف أنَّ الصوت مرتفعٌ إلى درجة وصوله لمن يسكنون بالدور الأول! بعدها غادرت أمُّها، التي كانت رغم عمرها المتقدّم، لاتزال تحتفظُ بجسدِ امرأةٍ تصلحُ لأشياءَ غيرِ تربيةِ ابنتها وإطعامِ زوجِها.

لم تحاول البنتُ أبدًا أن تلفت انتباهَ جارها أو تحدّثه. في الحقيقة لم تكن تعرف هذا المعنى أصلًا، أنَّ على أحدِهم أن يلفت نظرَ شخصٍ ما، لم تكن تعرف حتّى ماذا تعني كلمة "شخصٍ ما"، لكنّها كانت تراقب خروجَه وعودته بعينين ثابتتين، ولم تفهم أنّه كان يفزَعُ لرؤيتِها وترهِبُه نظرتُها الثابتة، الحادّة، والبَلهاء، بالوقتِ ذاته، لا سيّما بعدما رآها يومًا وهي تقطع رأس أحد الديوك!

تطوَّرَ الأمرُ، بين الغريب وأمّها، ولم تفهم سماع ماذا كانت تصنع أمُّها بغرفتِه حين رأتها ذاتَ صباحٍ وهي خارجةٌ منها منتشية، وأبوها جالسٌ بالأسفل في الشقّة التي لا يغادرها أبدًا! التقَت عيناها بعينَي أمّها، التي تبسَّمَت لها، وواصلَت طريقَها للأسفل.. تكرّرت تلك الرؤية مرّاتٍ عديدة حتّى أدركَت حقيقةَ الديك الذي تحبُّ عزفَه، وما يفعَلهُ مع الدجاجةِ السمينة أمّها، بعدما تلصّصت عليهما عبر النافذة المحطّم بعضٌ من خصاصها، فرأت الدجاجَةَ ممدَّدةً عاريةً، والديك الغريب يعتليها. نظرَت لرأسِه الذي يتحرّكُ بتوتّرٍ، ثم نظرَت لقبضةِ يدِها، فشعرَت أنَّ هذا الرأسَ أكبرُ من رؤوسِ الديوك التي تعودّت قطعها.. لكن لا شيءَ لا يمكن فعله!

ومرَّ الأمرُ، دونَ أن تعرفَ المرأةُ، أنَّ عينَ ابنتِها، قد رصدَت كلَّ شيءٍ.

سألَتها أمّها بعدها: "من يقطع رأسَ الديوك؟"، فصمتَت سماع كما تصمت على الدوام، فلطَمَتها أمّها: "أنا أعرف الآن من يقطع رؤوسَ ديوكي يا نسلَ الكلبِ الكسول، فقد أخبرني الساكن بالأعلى أنّه رآكِ وأنتِ تقطعين رأسَ أحدِها، هل تصعدين للأعلى لأجل هذا أيّتها المجنونَة العاهرة العجفاء؟ أنتِ لا تصلحين لأيِّ شيء.. وبذرتكِ كبذرةِ الحمار أبيكِ.. بلا نفع!".. شاهدَ أبوها الموقفَ لكنّه كان منشغلًا بالقبض على ذبابة تطير ولم يُفلح!.. ولم يهتزَّ لها جفنٌ حين صفَعَتها أمّها ولا نطقَت كلمةً، فقط سالَ

لعابها من جانب شدقيها مختلطًا بدمٍ حائلٍ لونُه، واستقبلَت بصقةَ أمّها بصمتٍ بعدما أعلَمَتها بأنّها ممنوعةٌ من الصعود إلى السطح مطلقًا.

لم تعرف الشرطة كيف وصل جارُهم لغرفة البنت؟ هل خدَعَته بحجّةٍ ما ليدخلَ غرفتَها أم حمَلَته قسرًا؟ وهذا مستبعدٌ، إذ أنَّ جسدَها يدلُّ على امرأةٍ لا تقوَى على حملِ طفلٍ، فكيف برجل؟ لكنَّ أحدًا لم يعرف أنَّ من تقدر على نزعِ رأسِ ديكٍ بقطفةٍ واحدة، قادرةٌ على ضربِ رجلٍ على رأسه، وجرّهِ إلى جُحرها. فعَلَتها بعدما قامت بذبحِ أمّها وغرسِ السكين الكبير بفرجها، ثم دخَلَت لغرفةِ والدها الذي كان لازال يحاول الإمساك بذبابةٍ تطير حوله، فضربَت رأسَه بحديدةٍ كبيرة ثم أمسكَت بالذبابة بمهارةٍ وسرعة ووضعتها بكفِّ أبيها الميّت. وفرَغَت بعدها للديك المنتظِر بأرضِ غرفتها، مقيّدًا ينزُّ دمًا ببطءٍ من مؤخرة رأسه.

خلَعَت عنه سرواله ثم خلعت ملابسها، وركبت فوقَه، نظَرَت لعينِه بجمودٍ وهو مكمَّمٌ ذاهلٌ ممّا يحدُث، ولأوَّلِ مرَّةٍ تتغيّر نظرتُها، من البلاهةِ الجامدة، إلى الغضبِ.

نظرت إلى الرجلِ المفزوعِ تحتَها ووضعَت يدها على موضعِ نزفه فتخضَّبَت يدُها بالأحمر القاني، مسحَت الدمَ في وجهِه ثم أمسكت بالسكين الذي قتلت به أمّها وحزَّت "عُضوَه"، وهو ينتفضُ وترتعش كلُّ أوصالهِ لفرطِ الألم الرهيب، والدمُ يتفجّر

بين فخذيه. رفَعَت عنه الكمامة، فلم يُكمل صرختَه حين حَشَت في فمهِ العضوَ المقطوع، ثم أمسكَت برأسه تديرُهُ بقوّةٍ جبّارة، بيدينِ برزَت عروقُهُما ونفرَت أعصابُهُما واشتدَّ عزمُ عظامِهِما، حتّى انكسرَ العنق. وظلَّت تحاول قطفَه بيديها، فلمَّا عجزت عن قطع رأسه استعانت بالحديدة التي قتلت بها أباها، أخذَت تضرب بها العنق بقسوةٍ تفري اللحم وتنثرُ الأنسجة حتّى تمزَّقَت الحنجرة وتناثرت عظامُ الفقراتِ الخلفية، فقطَفَت رأسَهُ بسهولةٍ ويسر، كرأسِ ديك.

مكثَت بعدها بالسطح تتردّد بين الحظيرة وغرفة الرجل الغريب بعدما قطعَت رؤوسَ كلِّ الديَكة المتبقيّة، وألقَت بها على سريره، إلى أن فاحت رائحةُ الجثث، وجاءت الشرطة.

●●●

براءة رغم أنّها في مطلع الثلاثينات إلّا أنّها كانت تبدو أكبر كثيرًا من عمرها. تكثر التجاعيد بوجهها، تعقص شعرها دائمًا، وملابسُها تجعلُها تبدو كامرأةٍ في الخمسين، زهدَت في أنوثتها!

نشأَت في منزلٍ صامت، بين أخوين أصغرَ منها ووالدٍ حازم وأمٍّ تحسن طهي الطعام وتنظيف المنزل ولا شيء أكثر. كان تعلّقُها الأعظم بوالدها، ترى أنّها كانت الأحبَّ إليه من وسط كلِّ أسرتها، هكذا كانت تؤكد "للطبيب الشاب" حين تحدَّثت إليه! وعلى شغفِ والدها بها لكنّه لم يكن يخلُو من قسوةٍ بالغة معها، فكان إذا غضبَ، لا يتردّد عن صبِّ عقابِه على الجميع، رغم أنَّ أحدًا من أسرته لم يكن يتجاسر على عصيانه، لا سيّما زوجتُه المطيعة التي يشهد الجميع بخُلُقها!

المرأةُ الوحيدة التي كان يخضع لها، هي أمّه، تلك العجوز سليطةُ اللسان، التي رفضَت أن تعيش ببيته وظلَّت حتّى موتها تقيم بأرضٍ فضاء ورثَتها عن زوجها، لا يحميها من الشمس والبرد إلّا غرفةٌ فقيرة، سقفُها من الصاج والجريد، كأنّها أرادت أن تُذِّل ابنها وتذكّره أنَّه ابن الفقر، حتّى وإن سكن بيتًا مرفّهًا! لا أحد يعرفُ من أين امتلكَ زوجها قطعتين كبيرتين من الأرض، الأولى تلك الخربة التي تسكُنها العجوز، والثانية تلك التي شيَّد عليها ابنهما بيتَه.

لم يعِش لهذهِ المرأة أيُّ أولاد. ماتوا جميعًا في صغرهم، إلّا (شحات). سمّته بهذا الاسم حتّى يَزهَدَ الموتُ فيه ولا يقرَبه، فماذا سيصنعُ الموت بمتسوّل؟!.. وعلى فقرِها وجهلِها، إلّا أنّها أرسَلتهُ ليتعلّم حتّى حصل على شهادةٍ عليا، واستقرَّ حاله وكثُر ماله، وأسَّسَ أسرتَه التي كانت تُعاني شُحَّ يده، فلا يهتم أبدًا بملابس أولاده، ولا بما تطلبه زوجته، حتّى براءة لم يشترِ لها ولو مرّةً حذاءً جديدًا، أو فستانًا، يليق بطفلتهِ الأحبّ! فكانت أمّهم تحتال بكلِّ الطرق لتتدبَّرَ لهم ما يسدُّ احتياجاتهم. بخلٌ لم يفهَموه أبدًا! فعلى حياةِ الضنك التي فرَضَها عليهم، كان يُنفق ببذخٍ في شراء كتبه، وكثيرًا ما كان يُساعد المحتاجين بسخاءٍ، كلَّ المحتاجين إلّا زوجَته وأبناءه!

كانت أشدُّ أوقاتِه بؤسًا تتجلّى في المرات القليلة التي تزورهم فيها أمّه. تدخُل وتخرجُ دونَ أن تكلّم أبناءه، ولا زوجتَه، تجلسُ دومًا على الأرض وترفض الجلوس على المقاعد، تنظرُ في وجهِ ابنها بعينٍ صارمة، وتحكي له مرّةً بعد مرّة الحكايةَ الوحيدة التي لا تملُّها: "كان أبوكَ الهالك فقيرًا سِكّيرًا لا خيرَ فيه، ولولا عملي وحرصي لما كانت هذه الأرض التي تنعم بها اليوم، وها قد أصبحَ للحفاةِ العراة بيتٌ! لا تظنَّ أنَّ غناك سينسيكَ فقرك، وإن أنساكَ فلن يُنسِيَني! إنَّ الله خلقَ عبادًا للسعادة، وعبادًا للشقاء، ونحن أهلُ العَنَتْ، لم يُشقِنا لأنّه يحبّنا، أو ليقرّبنا إليه! بل لأنّنا لا نصلُح إلّا لهذا، فما نحنُ إلا بهائمُ اللهِ الذين خلَقَهم ليركَبَهم عبادهُ الآخرون.".

كان (شحات) يجلسُ أمامها مجلِسَ الطفل، ويستجيب لكلِّ أوامرها، مهما قَسَت، ولم تُحبَّ زوجتُه تلكَ العجوزَ أبدًا، لكنّها لم تكن تجرؤ على إظهار هذا أمام زوجها أو أبنائها خشيةَ أن ينقلوا لأبيهم أمرَها، والكراهيّةُ كالماء، لا يمكن أن تقبض عليها يدُكَ! فتسرَّبَ الكُره من قلبها لقلب أبنائها، فكانوا جميعًا لا يطيقون جدّتهم، إلّا براءة، خابَ ماءُ كراهيّة أمّها في الوصول لقلبِها وفازَ ماءُ أبيها فأحبَّت جدّتها. حتّى جاءَ مِعولُ الخذلان فصدَّع جدارَ الحب!

لم تنسَ براءة أبدًا خذلانه لها، عندما أمسَكَها مراهقٌ من أبناء الجيران وتحسَّسَ جسدها وعبث بيده في مؤخرتها، فذهبَت تشكو إليه وهي لاتزال مؤمنةً أنَّ أباها هو الحامي العظيم، الذي يمكنه هدمُ العالم وتشييدُه لأجلِها، حتّى لو لم يشترِ لها حذاءً مرّةً، ولا فستانًا!

أخبَرَته ما فعلَه بها الولد، وهو جالسٌ على مكتبِه، لا ينظر إليها، ولا يرفع رأسَه، حتّى انتهَت من قصّتها، فقال لها اِذهبي لأبيه، وأخبريه ما كان!

أطاعته وهي واثقةٌ أنَّ هذا هو الردُّ القاسي على ابن الجيران، مادام أبوها قرّرَ هذا! ذهَبَت كما أمَرَها، وقالت لوالده الذي كان يجلس وسط أصدقائه، يا عم، ابنك فعل بي كذا وكذا..

ضحِك الرجلُ. قرّبها منهُ. ثم رفَع فستانَها. قالَ. أرِني أين عبث بكِ هذا المجرم! وأخذ يتحسّس مؤخرتها وهو يضحك مع أصدقائه.

عادت لأبيها تقصُّ عليه ما حَدَثَ، وهي تبكي. فنظر لعينيها، ثم أرخى رأسه. ولم يَقُل كَلِمة! عندها أدركَت تلك الطفلة التي لم تجاوز التاسعة من عمرها، أنَّ الجدار الكبير، لا يحمي من العواصف. فلم تُخبره بعدها أبدًا ما أصبح يحدث بشكلٍ مستمرٍ لثلاث سنوات من والد المراهقِ نفسه، وظلّ الهوانُ رفيقَها سنواتَ عمرِها، فلا تردُّ يدًا تطلها.

•••

كانت الأحلام التي تُراود ديميان غريبةً ورهيبة، فالذي يحدّثُه كلَّ ليلةٍ في نومه هو (يسوعُ المسيح).

في الليلة الأولى أخذَه يسوع إلى الأفقِ القدسيّ الأعلى، حيث كلُّ شيءٍ أبيضُ ناصعُ البياض. لا يوجد أيُّ شيءٍ إلّا النورُ الأبيض الذي لا يحوي أيَّ شيء.

قال له: "أُنظر يا ديميان. لا شيءَ هنا قطّ غيرُ النورِ والفراغ. لقد حدّثتكُم عن أشجارٍ وأنهار وسعادةٍ لكم وغبطة، فحلُمتم بالفردوس الذي لكم، لكنّكم لم تتفكَّروا أبدًا أين أُقيم أنا؟! لا يمكن أن أشاركَكُم المائدةَ التي أعددتُها لأجلكم، فهنا أقيمُ على الدوام، في النورِ الأبيض، حيث لا شجرَ ولا نجوم، لا سماء أصعدُها، ولا أرض أَنزلها. هل فكّرتم ولو لمرّةٍ واحدة أنَّ الإله وحيدٌ جدًّا؟ فلا شيءَ هنا بالمرّة غير النور ومعرفةُ كلِّ شيء.. معرفةٌ ثابتةٌ لا تتحرّك ولا تُدهشكَ، لأنَّكَ أنتَ من صنَعَها.. هل يمكن أن يندهش الصانعُ من صنعةِ يدِه يا ديميان؟! ماذا يفيد العلمُ بكلِّ شيءٍ إذا كان كلُّ شيءٍ يحدث كما أردتَ وقرّرتَ؟ الحقيقة لا شيءَ يحدث مادُمتَ تعرف أنّه سيحدث! لقد سئمتُ هذا البياض الأبدي الذي هو منّي وأنا منه، فاخترعتُ لكُم الحياة. لكنّها لكم أنتم وليست لي.. أنظُرُ لكم ولكلِّ آلامِكم الجميلة، وصراعاتِكم المضحكة، ومحبّةِ قلوبكم، وأفكّرُ كثيرًا أن أُبيدكم. لأنّكم لا تحيَون في البياض السرمدي مثلي. لكن لم أفعل هذا

أبدًا لأنّه لن يبقى بعدها إلّا النورُ الأبيض والوحدة الأبدية. فتركتكُم. وبقيتُ أنظر. تسعمئة ألف سنة وأنا فقط أنظرُ في صمتٍ مطبق وعينٍ ترى ولا تهتزّ. لقد أخطأتُ حين صنَعتكُم، لقد صنعتُ الجحيمَ لنفسي. ولذا حَجَبتكُم عنّي حتّى لا تشمتوا بوحدتي. كبرياءُ النور كان يمنعُني عن الحياة. حياتكم. حتّى اتخذتُ قراري الذي أَظلَمَ البياضَ بعد ذلك، فلم يعُد هنا. إنَّ ما تراه الآن لم يعد موجودًا. فهذا النورُ الأبيضُ قد انطفأَ. أنا لا أرى الآن يا ديميان ما تراه. لم يَعُد شيءٌ ممّا كان هُنا هُنا. لكنّني في الظلام الأبدي أصبحتُ أرى ما يحدث وكأنّه ليس منّي، وكأنّي لستُ أعرف.. لقد أصبحتُ أتوقّع أحيانًا ولا يَصدُق ما توقّعت. هذا جيّد يا ديميان لو تعلم.".

عندما استيقظ ديميان في الصباح جلس على سريره لا يتحرّك، ولا يردُّ على كلمات زوجتِه التي لم يُدرك منها كلمةً، وعندما هزَّته وسألَته ما بك؟ قال لها لقد حلمتُ. رأيتُه وحدّثني. لكنّه لم يقل لها نصفَ كلمةٍ ممّا رأى، وفكّرَ أن يُخبر القسيسَ القائم على كنيستِه عندما يزورها في المساء بما رأى، لكنَّ الخوف منَعَه. فوقف أمام تمثال يسوع المصلوب وركَعَ عند قدَميه وبكى بشدّة وقال له لا تحزن أيها الربُّ المسكين. أنا معكَ.

في حُلمِ الليلة التالية أخَذَه المسيح إلى القبر: "هنا رقدتُ في يدِ الموت ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليالٍ بعدما صلبوني. الموتُ يا ديميان ليس منّي ولم أصنَعه. صدّقني! هذا أكبرُ تجديفٍ تفعلونه وأنتم لا

تعرفون حقيقَتَه. أنا صنعتُ الحياة ولم أصنع الموت. الموتُ هو الشيءُ الوحيد وسط النورِ الأبيض الذي لم أكن أعرفه أبدًا. وتفكَّرتُ كثيرًا هل هناك إلهٌ غيري يضربُ مملكتي بهذا الموت؟ أنا لم أعرف هذا الإله الذي يقتلكم أبدًا، ولو عرفتُه لسقيتُه صنعَةَ يدِه التي يضربكُم بها. ولو كان هناك ذاك الإله لأظهَرَ لي نفسه، أو لأخرجتُهُ أنا. لكنّه لم يظهَر وأنا لم أصِل إليه. وتفكَّرتُ كثيرًا هل كان ثمَّةَ خللٌ في صنعتي؟ فأنا صنَعتُكُم للحياة وليس للموت، لأنّي لم أكن أعرف الموت أبدًا حتّى صنعتكُم ورأيتكُم تتساقطون كأوراقِ الشجر، فعرفتُه. ليس شيئًا يموت في عالمي سواكُم، فكلُّ الكائنات تدور ولا تموت.. أُمسِكُ برأسِ الأسدِ فأزرعُه في رحمِ الظبية ليؤكَلَ بعدما أكَلَ، ثم أحملُ رأسَ الظبية فأزرعُه في رحمِ الأرض، ليُصبحَ حشيشةً فتؤكَلَ مثلما أكَلَت، ثم آخذُ الحشيشة فأزرعها في رحمِ النار فأجعلُ النارَ دخانًا، وأسلمُ الدخانَ للهواء، ويدورُ الهواءُ ليعودَ لصدرِ الأسدِ، وأظلُّ أُديرُهم وأُديرُهم كيف شئتُ، إلَّا أنتم. لا تدُورون بل تسقُطون. فيأكُلُكم الموتُ الذي تسلَّلَ لمملكتي ولا أعرفُ كيف جاء. ولذلك نزلتُ إليكم لأعرفَه وأهزمه. لكنّني، والحقَّ أقول لك، يا ديميان، لم أكن صادقًا بشكلٍ كامل مع نفسي، لأنّني فقط كنتُ أبحث عن سببٍ أُلقيه بوجهِ كبريائي لأشاركَكُم المائدةَ وأذوقَ حياتَكم. "*الألمُ*" تحديدًا هو ما كنتُ أريدُ أن أذوقه. فأقنعتُ الكبرياءَ بأنّي نازلٌ لهزيمةِ الموت، ونزَلتُ. لقد عانَيتُ الرفضَ والشوكَ ودقَّ المسامير والصَلب بعدما نزلتُ، عانَيتُ هذا وعايَنتُه، وكم كان بالغَ *الألمِ* والروعة. الحَفرُ

في جسدِ الراحة وتمزيقُ ثوب السكينة أمرٌ بالغُ الحياة. لكنَّ أروعَ ما كان في الأمر، هي "*الغُربة*". شعورٌ لا يقاومُهُ حتّى إله. حتّى أنّي فكّرتُ ألّا أصعدَ مرّةً أخرى للسماء لأجلِ هذه الغربة التي تدغدغُ الروح. جميلٌ أن تكون زهرةً في الصحراء القاحلة وأن تكون أنتَ الحجرَ الملقى من وسط الحائطِ الكبير المنتَظِم. لكن ما لم أذُقه وتمنّيتُ معرفتَه هو "*الذّل*". لم أشعر بالذّلِ حينَ الضربِ ودقِّ المسامير في عظامي، حتّى ذاك الحارس الذي بصقَ بوجهي وسقاني الخلَّ فوق الصليب لم أستطِع أن أشعرَ معه بالذّل، لكنّي بعدما صعدتُ، أدركتُ أنّني ذُقتُه وعرفتُ سرَّه، لأنَّ الذّل هو ألّا تعرفَ أنّكَ ذليل.".

ثم أخَذَه يسوع لزاويةِ القبر الذي رقد فيه ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليال، وقال له: "دعني أُخبركَ السرَّ الأهمَّ يا ديميان.. لقد خدعتُ كبريائي، وكذبتُ عليكَ أنت أيضًا. فأنا من صنعَ الموتَ! ثمّ محَوتُه من عينِ "*المعرفة*" وأخفيتُه بعينِ "*الإرادة*" كي أنزلَ لكم وأتجسّدَ. وغلبَتِ الإرادةُ المعرفةَ فلم *تَعرف*. لكنّني حين جرَّبتُ الموت وتاهت روحي في الفراغ وأصبحَ النورُ رماديًّا غيرَ أبيضَ، غاب كلُّ شيء عن عيني ولم أعُد أَرى، فانتفضتُ من الموت ونفضتُه عني لأعودَ وأنظر، فأنا لا أملكُ إلّا النظر. لا يغرنَّكَ ما تراه بي. فما أنا إلّا عيونٌ. كلُّ ما بي عيون. واكتشفتُ أنَّ المراقَبَة ليست بالأمر السيء، وأنَّ مراقبَةَ الحياةِ حياة. فقمتُ وألقيتُ بالكفن وصعدتُ.".

في الليلة الثالثة كانَ الحلمُ الأخير. ذهبَ يسوع بديميان إلى غابةٍ مظلمة. حولهما أشجارٌ عملاقةٌ لا تَظهر أغصانُها وسط الظلام، العتمةُ كانت تحيطُ بكلِّ شيء، حتّى أنَّ ديميان كان يخبّئُ عينَه من الظلام، كي لا يرى أنّه لا يرى. لكنَّ يسوع قالَ لهُ اِرفع يديكَ. أبصرَ ديميان جسدَ يسوع مليئًا بالثقوب التي تنضَحُ دمًا له بريقٌ كعين القِطّ في المساء، فوضع يدَه لسدِّ الثقوبِ النازفة. قال له يسوع: "دعها فلن توقِفَها يدُكَ. لكن أَوقِفهُم عن غرزِ أنيابِهم بلحمي ولَعقِهم لدمي. كلَّ يومٍ يأكلونني وقد سئمتُ هذا الوجع، كان يمكنُني مجابهَةُ الألم وتذوّقُ متعتِه وأنا في الجسد مثلكم، لكن حين رجعتُ للنورِ الأبيض لم يعُد للألم ضرورةٌ، ولا متعة. لقد اكتشفتُ أنّي غيرُ كاملٍ حين أجلسُ هناك وحدي إلهًا، وكي أحققّ الكمالَ الباهر كان لا بدَّ أن أرتقي من أُلوهيَّتي للبشريّة، فصرتُ إنسانًا. فاكتملتُ. لن تبلغَ كمالَ العزّة، إلّا إذا عرفتَ كمالَ الضِّعة والضعف، حتّى تكتمِل الشجرة من أسفل، إلى أعلى. وقد فعلتُها واكتملتُ. لكنّني ما عدتُ أريدُ المزيد من الألم.".

سألَه ديميان وهو ينظرُ للدم الذي كان مصدرَ النورِ الوحيد وسط الغابة: "كيف أُوقف الألم؟"، قال له يسوع: "أن تصبحَ مثلي يا ديميان، تحيا في النورِ الأبيض. فكما تجسّدتُ وذقتُ حياتكم، اُسكُن بي وذُق حياتي. تَأَلَّهْ. حين كنتُ بينكم قلتُ لكم أنا ابن الإنسان وأنتم لم تنتبهوا أنّي لم أقل ولو لمرّةٍ واحدةٍ أنا ابن الله. آنَ دورُكَ يا ديميان. فكما أنَّ الإله صار ابن الإنسان،

حان للإنسان أن يصير ابنَ الإله. فاذهَب إليهم وقل لهم "أنا ابنُ الله" لتكونَ المعادَلة عادِلة. ثم أَوقِفهم عن أكل لحمي وشُرب دمي، فقد أصبحتَ أنتَ أنا.".

كان هذا حلمه الأخير قبل أن يذهب إلى رسول كي يستمع إلى سريره، فتبسّم وقال له وقال له: "مباركٌ أنت في الأرض كما في السماء"، بعدها ذهب ديميان إلى الكنيسة، وحطَّمَ المائدة، وقال لهم: لن تأكلوني، بعد اليوم.

●●●

أصبحتُ لا أعود لبيتي بعد انتهاءِ ساعات العمل وأبيتُ بالمصحة على عكس كلِّ الأطباء الذين يسارعون بمغادرةِ المكان فور انتهاءِ وقتهم.. تركتُهم يظنّون أنّي أفعل هذا لزيادة راتبي، والحقيقة أنّني لا أعرف لماذا أفعلُ هذا بالتحديد.. في البدءِ كنت أقول أنّني أريد مراقبَة مرضاي أطولَ فترة ممكنة، وأحيانًا كنت أقول أنّني أنفرد بنفسي بمكتبي أو بغرفة المبيت لتدوين ملاحظاتي الخاصة، لكن كان هناك شيءٌ آخر في أعماقي أكثر قوّة، أقاومه ولا أريد أن أفسح له الطريق، يقول لي أنّني هنا فقط لأنّني أُصبح أكثر راحةً بين أصناف الجنون.. أعرف أنَّ هذا مؤشّرٌ غيرُ جيّد، لكنّني لم أعد أستطيع مقاومَتَهُ.

ثمَّةَ يقينٌ لديَّ أنَّ لهؤلاء المجانين جميعًا خيطٌ يربطهم، أو ربّما فكرة تجمعُهم، رغم معرفتي أنَّ هذا القول لا يخلُو من خطأٍ منطقي، لكنَّ تشابُه حالهم عجيب، إنّهم جميعًا متوحّدون بشكلٍ كامل داخلَ أنفسهم، معزولون عن العالم، يحمون حدودهم بسياجٍ من الجنون الذي لا يمكن اختراقُه، ويقيمون حائطَ سدٍّ منيعٍ يحميهم من كلِّ ما يمكن أن يأتيهم من الخارج، هذا جوهرُ جنونِهم.

لديَّ ثقةٌ ويقين أنّني لو عرفتُ تلك اللحظة التي قرّروا فيها الجنون، تلك اللحظة التي صاروا فيها وببساطة مجانين، ساعَتها

يمكنني فَهمُ جنونهم بشكلٍ كامل، وربما انتشالهم من تلك الهوّة السحيقة التي تحجِبُهم عن العالم.

ثمة بذرةٌ للجنون تطرح في هؤلاء ولا تتوقّف ثمارها أبدًا.. شجرةٌ بالغةُ الخصوبة وعظيمةُ النماء، لا تحتاج إلى الشمس ولا الهواء، إنّها تنمو في تربةِ الروح وتثمرُ في سقفِ العقل.. ولا يمكن أن تكون تلك البذرة خاصةً بهؤلاء المجانين وحدهم، فهُم ليسوا عنصرًا مستقلًا عنّا، وليسوا بشرًا مخالِفين لجوهرِنا. إنّهم مثلنا تمامًا، والفارقُ الوحيد أنَّ بذرتَهم قد نبتَت، وبذرتنا لازالت لا تجد الماءَ في أرضِ الروح.

كلّما نظرتُ إليهم ونظرتُ إلى الأسوياء منّا، والذين لا يتميّز سَوَاءُهم إلّا بأنّهم يفعلون أشياءَ نتّفقُ عليها، ونقبل بها، أدركتُ أنّنا جميعًا نحمل بذرة الجنون، وأنَّ الحكمةَ أمرٌ عابر وأنَّ الأصلَ المستقِرّ فينا هو الجنون. أصبحتُ أكثر تصديقًا لكوننا انحدرنا جميعًا من ذاك الرجل الذي أكَل من الشجرة المحرّمة، مخالفًا كلَّ منطقٍ للعقل، فسقَط حين اختارَ شجرةً أفقَدَته كلَّ الشجر، ذاكَ الذي سرَت فينا روحه فصِرنا جميعًا جنسًا من المجانين، وغاية الأمر أنَّ بعضنا اعترفوا بهذا بشجاعةٍ مدهشة فأعلنوا عن جنونهم، بينما أكثرُنا لازال يخدع نفسه، ويخفي جنونَه، وسط غابةٍ متشابكة من قواعد المجتمع، وإن كان كلٌّ منّا يخرِج رأسَه من تلك الغابة، بين حينٍ وآخر، فيرقص عاريًا أمام مرآته، أو يمشي شبهَ عارٍ على البحر حتّى لو لم يلمَس الماء.

ألسنا نحن من نترك الناس ونخوّنُهم ونختار مصاحبَة القطط والكلاب وننعتُهم بأنّهم أفضلُ من بني جنسنا، فنعتزل الناس مُكتفين بمصاحبة حيواناتنا الأليفة؟ فلماذا رأينا المجانينَ مجانينًا لمجرّد أنّهم اعتزلونا بسلام؟ ألسنا نحن من نقطع أشجار الغابة لنضعَ البناء مكانها؟ ثم نزعم أنَّ المجانينَ دومًا مُخرّبون، رغم أنّنا لم نسمع عن مجنونٍ واحد قطع شجرة ولا ألقى بالقنبلة ولا ضغط على زرٍ أطلَقَ الصاروخ الفتاك؟ إذا كنّا نحن العقلاء حقًّا فإنَّ هؤلاء المجانين آلهةٌ إذًا!

الحقيقة التي أصبحتُ قريبًا من تصديقها أنَّ الجنون ليس بعيدًا عن أيٍّ منّا، ولهذا نحبس هؤلاء هنا خشيةَ أن نرى وجوهَنا في مرايا جنونهم، فعزلناهُم عنّا، لا لنشفيهم، لكن خوفًا من غوايةِ جنونهم.. نحن نحتقرُ الجنونَ ونفزعُ منه، بذاتِ القدر الذي يسيطر علينا الإعجابُ بالمجانين لفوزِهم بتلكَ الحريّة المرعبة في فِعل كلّ شيء يريدونه.. فحبسناهم هنا، حتّى لا نرى فزعة المصير، أو نفكّر في روعة التحرّر.. لعلَّه لذلك كان إنشاء مصحات المجانين قرارًا سياسيًّا منذ أقدمِ مصحّةٍ في التاريخ، فالدولةُ تخشى انتشارَ الجنونِ الحرّ. فحبَسَت هؤلاء على الدوام.. مصحات المجانين هي الحقيقة البشعة التي تفضح جسد السياسة، فهؤلاء لم يُصِبهم الجنون إلّا لكراهيتِهم لهذا العالم الذي يُديره أولئك.. لكنّنا تحايَلنا على الأمر وسمّينا ذاك المعتقلَ الكبير مشفًى للمجانين، والحقُّ أنّه كما يَصنَع السجنُ أعتى المجرمين، فإنَّ هذه المصحات بما فيها من الحبس الرهيب

ووسائل التعذيب -التي نسميها علاجًا- قادرةٌ على إحداث الخللِ بأكثرِ العقولِ اتزانًا. إذا كان هذا المشفى، بما فيه من سلاسل لتقييد من يصيبهم الهَياج، وصعقٍ بالكهرباء، وحبسٍ منفرد، إذا كان ذاكَ هو المشفى، فما هو السجن؟!

انتهى.

ظلّ رسول ينتقل من عملٍ إلى آخر، حتّى استقرَّ لدى صاحبِ الفندق الصغير بتلكَ البلدة الواقعة على أطراف العاصمة، يُمسك حساباته ويساعد في تنظيفِ الغرف ويَعمل كلَّ ما يُطلب منه. رفَضَ المبيت في الفندق واستأجَرَ غرفةً ببيتٍ غير بعيد عن مقرِّ عمله حتّى لا يشاركَه أحدٌ غرفتَه، لأنّه دائمُ الكلام أثناءَ النوم، وكلُّ من كان قريبًا منه في نومه كان يسأله عن هذا الكلام الغريب الذي يردّده في الليل.. عن ولدٍ لا يشبهُه وزوجةٍ لا تشهق معه! ولذا رفضَ السكنَ في الفندق حيث يشاركه عددٌ من العاملين الغرفةَ ذاتها واختارَ السكنَ منفردًا.

في البداية كان ينسى كلَّ أحلامِه عندما يستيقظ، لكن بعدما انتقل لتلك الغرفة الخاصة أصبحَ يتذكَّر أدقَّ تفاصيل أحلامه، والتي كانت تنحصرُ في رؤيا محدَّدَة واحدة. يرى سريرَ زوجتِه يكلّمه وهو يضحكُ ساخرًا منه.. لأنّه لا يزال يشكُّ بنفسه، ولا يعرف هل خانته زوجتُه فعلًا أم لا؟ فيسألُه السرير: "لماذا تنتظر أن يأتيكَ من خارجِكَ شيءٌ يُثبتُ خيانتها لك؟ هل تنتظر أن تقوم من قبرها لتخبِركَ؟ أو يأتي عشيقُها فيفعَل؟ أنا الشّاهد فاستمِع لشهادتي. وأنتَ تعرف أنّي الوحيد، الذي لن يخدَعكَ!".

ظلَّ شهورًا، يستمعُ لنصائحِ السرير الذي يأتيه في حُلمه، حتّى اتخذَ قرارَه، تسلَّل في الليل إلى بلدتِه القديمة، ودخل شقتّه، التي لازال يسكنها ولدُه، والذي أدهشتهُ رؤيةُ والدِه يدفَعُهُ دون

أن يكلّمه، ويتجه مباشرةً نحو غرفته التي لم تزل قائمةً على حالها كما تركها دون تغيير. أغلقَ البابَ خلفَه، واقتربَ من السرير، يمسحُ فوقَه بيده، ويمسكُ أركانَه، ثم ألقى بنفسه فوقَه كأنّه يحتضنه أو كأنَّ السريرَ صارَ له رحمًا، يمدُّه بأسرارِ الحياة والحقيقة.

تمتمَ بصوتٍ خافت: "ها أنا بين يديكَ وأنا مؤمنٌ بك وسأصدّقُ كلَّ كلمة."، واستمَعَ، فسمِعَ.

خرج بعدها مبتسِمًا لولدٍ ينظرُ إليه مدهوشًا، ولم يقل له كلمةً، لكنّه تنفّس بعمقٍ، وقبل أن يغادر الشقّة قال له: "أيها الولد، أنصحُكَ أن تحلق شعركَ، فهو أكذبُ ما فيك!".

اتجه بعدها إلى قبرِ زوجتِه، فنبَشَه، وصبَّ عليها، وعلى أركان القبر، ما أحضَره من "سولار"، ثم أشعل فيه، وفيها النار.

بعدما أمسك به حارس المقابر وسلَّمه للشرطة، أطلقَه الضابط الذي رقَّ له ولم يجد ما يُدينه به، فهو لم يتعرَّض بأذى لأحدٍ حيّ، ولا يمكن معاقبتُهُ على قتلِ من هو ميّتٌ بالفعل! كما أنّه كان هادئًا لا تبدو عليه أماراتُ الجنون، إلّا في قوله أنَّ السريرَ أخبَرَه حقيقةَ زوجتِه فأحرَقَها. لكنَّ الخبر كان قد انتقل إلى الجرائد التي تناوَلَته بالسخرية والتندّر. والناسُ بين مصدّقٍ ومكذّب، فهذا يتحدّث عن إمكانيةِ التواصل مع الجماد إذا اتّحدَ الإنسانُ مع ذاته، وتحرَّرَت روحُه، وآخر يرى الأمرَ مجرّدَ هذيانٍ لرجلٍ يعاني من مشاكل نفسيّة.

كان يمكن أن تنتهي القصة عند ذلك الحد، لولا فضول بعض أصدقائه القدامى الذين صدَّقوا قصّته، فاستدعوه لفضح أسِرّة زوجاتهم، ثم كذلك فعَلَت بعضُ النساء لاكتشاف حقيقةِ أزواجهنَّ، فانتشرَ أمرُ رسول كأنّه البرق في ليلةٍ بالغة الظلام.

أَعيته مطاردةُ كلِّ من حوله، فلم يعد يستجيبُ لدعوة أيِّ أحدٍ له، وانعزل بعيدًا عن كلِّ من يعرفونه، متنقّلًا بين مسكنه والفندق الذي يعمل به. ولأنَّ رسول لم يصدُر عنه أيُّ أفعالٍ شاذّة أو مريبة فإنَّ صاحب الفندق لم يسرِّحه، لكنَّه أمَرَ المدير فخفَّضَ من راتبه، ولم يكن رسول يكترثُ لأكثر ممّا يسدُّ به رمقه ويدفع منه إيجار غرفته، فلم ينتبه إلى أنَّ راتبه قد انخفضَ حتّى!

لم يكن لرسول اختلاطٌ بأحدٍ، غير لبيب، الذي يشاركه السكن بالبيت ذاته، وعلى عدوانيّة لبيب، مع الجميع، لكنَّه كان شخصًا أكثرَ رقّة مع رسول. عندما يقابله مصادفةً على سلّم المنزل يُحيّيه بودٍّ كبير وحين يمرّ من أمام متجره يناديه ويدعوه ليشربَ شيئًا ويمازحه. جلس يومًا معه وسأله: "هل كنت تحتاج أن تستمعَ لسريرٍ ليخبركَ أنَّ ثمّةَ امرأةٌ عاهرة؟ يا رسول كلّهنَّ عواهر حتّى لو أقسَمَت كلُّ الأسِرَّة بعفّتهنَّ يا رجل. لا أدري لماذا كلُّ هذا الغضب؟ هل تظن أنَّ هناك زوجة واحدة فوق ظهر الأرض مُخلِصة؟! أَحضِر أطهرَ زوجةٍ وأكثرهنَّ إخلاصًا ثم ضعها لمدّةِ عامٍ واحد على جزيرةٍ وسط البحر مع رجلٍ غريب، ولا أحدَ

يشاركهما المكان، كم ستصمد برأيك؟ هل ستظلُّ مخلصةً لزوجها؟ ولا تعاشر الرجل الغريب؟ ستسلّمُه جسَدَها ولا شكّ. بل ستستمتعُ معَهُ بعدَ أيامٍ فقط وليس عامٍ كامل. كلهنَّ خائناتٌ بالضرورة يا رسول، وإذا امتنعَت أحداهنَّ عن الخيانة فهذا فقط لأنَّها لم تحظَ بالفرصة الجيدة. وأمّي على رأسهنَّ. ولولا أنّي لا أكترث لما فعلَته، لأخذتُكَ إلى سريرها لتخبرني كم رجلًا عاشر تلك القحبة العجوز..".

●●●

حكايَتهم وفقًا لروايةِ الرَجلِ الحكيم

الذي لم يكُن يحبُه أحد.

انتبهَ كلُّ الجيران لتعنيف الأم لزوجها عندما خرجَت شهادة الميلاد لسماع، كانت تصرخُ فيه وتنعتُه بأنّه لا يصلح لشيءٍ، لأنّه لم ينتبه أنَّ الموظف الذي يعمل في "تسجيل أسماء المواليد" قد كتب الاسمَ خطأً. كان قرارُ أمّها أن تسميها "سماح"، لكنَّ الموظف أخطأ وجعل "الحاءَ" "عينًا"، وإن كانت الأمُّ تظنُّ أنَّ أباها هو من تعمَّدَ ذلك، وأملى الموظّفَ الاسمَ خطأً ليغيظَ زوجته التي تعنّفه على الدوام وأمام أيِّ أحد. في ذاك اليوم الذي صدرت فيه شهادةُ الميلاد واكتشفوا الخطأ الرهيب بتحويل اسم البنت من اسمٍ يحمل صفة القبول: سماح، إلى اسم يحمل صفة القبول أيضًا: سَماع، لكن مع تغيير الحرف الأخير فقط، ذهبت الأمُّ بنفسها إلى موظفِ السجلّ لتصحيح الاسم. لكنَّ الموظفَ أخبرها أنَّ هذا سيستدعي منها أن تدفع بعض المصروفات، وأن تذهب إلى السجّل المركزي لتصحيح الاسم، عندها سحبَت الشهادة من يده بعنفٍ، وقالت "ليكن حتّى اسمُها خراء". وعادت للمنزل.

لم تبتعد سماع كثيرًا عن اسمها، فلم تكن تعصي أيَّ أمر لأيِّ أحد، ليس لأنّها مطيعةٌ أو مهذّبة، فهي لم تكن تجد من يربّيها

أو يوجّهُها فضلًا على أن يهتمَّ بها، هي فقط كانت تسمعُ أمرًا يوجّهُ إليها فتنفذُهُ، دونَ فهمٍ غالبًا، ولعلَّ هذا ما كان يحدث حين يمسكُها بعض الفتية المراهقين وهي في العاشرة من عمرها، ويقولون لها أرِنا مؤخرتكِ يا سماع، فترفع فستانها، فيتحسّسها الفتية بالتناوب ويضربونها على مؤخرتها حتّى تنتهي لعبتهم، فتُنزل فستانها ثم تعود للبيت وقد تأخرّت على أمِّها التي كانت قد أرسَلَتها لشراء شيءٍ ما، فتضربُها أمّها بقسوةٍ، ثم تقول لها اِجلسي في زاوية الصالة ولا تقومي حتّى آذَن لكِ، فتفعل ذلك لساعاتٍ طويلة وأحيانًا ليومٍ كامل، حتّى تنتبهَ لها أمّها فتأمُرها بالذهاب إلى غرفتها، ولم يمنَع أمَّها من عقابِها على تلك الطريقة إلّا أمرًا واحدًا، أنَّ سماع كانت تظلُّ بمكانها في الزاوية لا تتحرَّكُ منه مطلقًا ممَّا كان يجعلها تبول وتتغوّط على نفسها لطول المدة التي تمكثُها، فيتقذّرُ المكان وتفوحُ الرائحة الكريهة، ما حمَلَ أمَّها على تجنّب معاقبتها بالجلوس في الزاوية، وأصبَحَت تأمُرها بالمكوث في المرحاض الصغير بدلًا من زاويةِ الصالة، هذا ما حكتهُ لي أمّها بنفسها.

أمُّها، لم تكن تَرَى فيها أكثرَ من خادمةٍ لا تحسنُ تأدية الخدمة. يرى بعض الناس الذين يشاهدون طريقَة أمّها وتجاهل أبيها لها أنّهما التقطاها من مكانٍ ما، وليست ابنتهما! والبعض يُرجع هذا لكراهيّة أمّها لأبيها، لكنّني أدركُ تمامًا أنّها ابنتهما، وأنّها كانت تفعل هذا فقط وبهذه الطريقة ودون تفكيرٍ حتّى، وبلا سبب، فليس ثمّةَ أسبابٌ يجبُ توافرها دومًا لتفسير القبح!

أبوها، كان موظّفًا، لكن لا أحد يعرف لماذا ترك الوظيفة مبّكرًا ليمكثَ بالبيت الذي ورثه ثم كتبَهُ باسمِ زوجته. كان لا يغادر شقتّه إلّا نادرًا لتحصيل الإيجار الشهري من السكان، وبعدها يجلس بجوار شبّاكه يحاول أن يمسكَ بيدِه الذباب الذي يحوم حول وجهِه، ولا يفلحُ في ذلك أبدًا. كنتُ أراقبُ هذا أحيانًا من الشارع وأرى إصراره على محاولة الإمساك به دون فائدة، وعندما استدعَتني زوجتُه منذ سنوات لتسألني إن كنتُ قادرًا على تدبّر عمل لسماع التي صارت في الثانية والعشرين من عمرها، أجبتُها بأني سأتدبّر لها عملًا. كنت سعيدًا بهذا اللقاء لرؤيةِ زوجها عن قرب وهو لايزال يحاول صيدَ الذباب منذ أكثر من عشرينَ سنة، ولا ينجح! أعتقد أنّه كان يُفرّج كثيرًا بين أصابعه أثناء محاولة القبض عليه، أو لأنَّ كفَّ يدِه كانت ضخمةً جدًّا فتحرك الهواء، فيأخذُ الذبابُ حذرَه. كنت أتمنّى أن أرى ذاك المغفل ينجحُ في هذا ولو لمرَّةٍ واحدة قبل أن تقتلهم سماع جميعًا.

طلبتُ من ديميان، الذي كان يعمل حارسًا بمبنى الجامعة، أن يخبرني إذا توفّرت أيُّ فرصةِ عمل لبنتٍ أعرفها، فأخبرني أنّه يمكن أن يجد لها وظيفةً كعاملةِ نظافة بمكاتب الأساتذة، لكن بشكلٍ مؤقّت كأجيرةٍ يوميّة دون تثبيتٍ رسمي. أخبرتُ أمّها بهذا، ووافَقَت.

أوصيت ديميان أن ينقل لي أخبارها، ليس من أجل أن أطمئنَّ عليها، فهي لم تكن تعنيني في شيءٍ، لكنّي فقط كنت أريد

أن أعرف أخبارها. وهل ستعرّي مؤخرتها لطلاب الجامعة كما كان يفعل بها الفتية في صغرها؟ أم لا؟

كان يحملني الفضول لمعرفة هل هي عاهرةٌ بلهاء، أم فقط، مطيعةٌ بلهاء؟

ولم يكن لديميان أن يردَّ لي طلبًا، إذ كان مدينًا لي بخدمةٍ، يراها هو كبيرة، عندما مكّنته من العمل في الفندق في أيام عُطلته كحارسٍ وناقل أمتعة، وظنَّ أنّي توسّطتُ له عند مدير الفندق الذي أقوم بتقديم احتياجاته من الطعام والمفارش وسائر الاحتياجات. كانت خدمتي لهُ مقابل حصولي على خُمس راتبه الذي يتقاضاه، ولم يعلم ديميان أبدًا من هو مالك الفندق، ربما لو لم يُصِبه الجنون لأخبرتُه بهذا. فقط ليعلم كم هو غبيٌ أحمقُ!

علمتُ من ديميان، ومِن آخرين، أنَّ سماع لم تكن تبذل مجهودًا كبيرًا في عملها الذي استمر لثلاث سنوات. تذهبُ في الصباح فتنظف المكاتب لمدة ساعة ثم تقضي بقيّة اليوم بلا عمل، فلم يكن أيٌّ من الأساتذة يطلبُ منها إعداد مشروب، لأنّهم يتأفّفون منها، ويحمِلُهم صمتُها الدائم على تجنّبها، إلّا أستاذًا واحدًا، كان يشكرها كلَّ يوم على تنظيف مكتبه ويعطيها شيئًا من المال وأحيانًا بعض الطعام، فكانت تجلس أمام مكتبِه كأنّها كلبٌ ينتظر عودةَ صاحبِه، وعند عودته من محاضراته تنهض إليه وعلى وجهها ما يشبه ابتسامة، لكن لا يمكن أن نسميها كذلك، فأنا أعرفها جيّدًا وأعلمُ أنَّ شفتيها لم تكونا تنفصلان مطلقًا إلا

حين تأكل أو تتكلم، هذا إذا تَكلَّمت! لكن أحيانًا كان يصدرُ عنها ما يشبه الابتسامةَ حقًّا، وأخبرني ديميان أنَّ الجميع علِمَ بفعلتها حين دخلت مرّةً على ذاك الأستاذ مكتبَه وهو يدوّن بعض مذكّراته.. فأحنَت رأسها على مكتبه ووضعت خدّها على كفِّه وهو ذاهلٌ لفِعلها دون أن ينهَرَها.. ثم قامت واتّجَهت نحو الحائط فأدارت له ظهرهَا، ورفعَت تنّورتها وعرَّت مؤخرتها. فقام وأخرجها من المكتب، ولم يعُد يكلّمها بعدها أبدًا ولا يعطيها شيئًا ومنعها من تنظيفِ مكتبِه في الصباح.

انتشر خبر فِعلَتها بين العاملين الذين كتموا الأمر عن إدارة الجامعة حتّى لا يتمَّ فصل تلك المسكينة، البلهاء، وترجّوا الأستاذ ألّا يرفع أمرها للإدارة فرَقَّ لحالها المزري وكتم ما فعَلَت.. وظلَّت على عادتها التي لزمَتها في سنواتِها الثلاث.. تقفُ أمام مكتبه تراقبه، وإذا ذهب لمحاضرةٍ، تجلسُ مثل كلبٍ هادئ لا تتحرّك حتّى يعود.. لكنّه في الأشهر الأخيرة كان يلازم امرأةً تزوره كثيرًا بالجامعة، وحين يكون في محاضرةٍ تدخل تلك المرأة فتنتظره بمكتبه، وعند عودته يمرُّ على سماع الجالسة على الأرض فتنظر إليه، وتقلّب رأسها كدجاجةٍ تراقبُه.. حتّى كان ذاك اليوم الذي خرج فيهِ لإحدى محاضراته، جاءت المرأةُ فانتظرَته بمكتبه، وسماع جالسةٌ على الأرض، وعندما عاد، قامت أمامَه وهي تبتسمُ لأوّلِ مرّةٍ ابتسامةً كاملةً حتّى بدت أسنانُها، فنظر إليها وتجاوزها وذهبَ للأخرى وأغلقَ الباب عليهما لساعتين. فعادت سماع للجلوس على الأرض وتغوّطت في ملابسها.. ولمّا انفتحَ الباب

وضعَت سماع يدها في سروالها وغمستها في الخراء ودخلت عليهما المكتب فلطّخت بغائطها وجهَ المرأة، ثم أمسكَت رأسَ الأستاذ بعنفٍ شديد كأنّها تريد قطفَه. ولا أحدَ يدري كيف لذراعَي هذه الفتاة الهزيلة أن يكون لهما تلك القوّة في الإمساك برأسِ رجلٍ بإحكامٍ لا يستطيعُ مقاومَته، فصرخَت المرأة التي معه مستنجدةً بأيّ أحد، فاحتاجَ الأستاذ لاِثنين من العاملين بالمبنى ليخلّصوا رأسَه من بين يديها بصعوبة. بعد هذا تمَّ طردُها من الجامعة.

●●●

أدركَ صاحبُ الفندق أنّه حسنًا قد فعلَ حين أبقى على رسول ولم يطرده من العمل بعدما ذاع أمرُه وانتشرَ خبرُ جنونه، فقصّةُ رسول وقدرتُه على سماع السرير ومعرفة أفكارِ من ينام عليه، صارت مَنجمَ الذهب الذي انفتحَ لصاحبِ الفندق.

أصبحَ الفندقُ قِبلة الجميع. يتهافتُ الناس على حجز غرفةٍ فيه شريطَةَ أن يدخلَ رسول إليهم ليقصَّ عليهم ماذا يقول السرير، فكانت كلُّ زوجة تشكُّ بزوجها تطلبُ منه أن يبيتَا ليلةً بالفندق، ولو كان صادقًا فعليه ألَّا يخاف! ومثلما فعَلَت النساء، فعَل كثيرٌ من الرجال الذين أخذوا زوجاتهم إلى الفندق لمبيتِ ليلة، ثم يستدعون رسول في الصباح، ليكشفَ لهم الأسرار المخبوءة في العقول والقلوب.

تعدَّدَت حكاياتُ رسول مع الزبائن، كتلك المرأة التي رفضَت أن تنامَ على السرير ولم يَغفُ لها جفنٌ طوال الليل، وكلَّما نام زوجُها واستيقظَ وجدَها جالسةً على المقعد، ولا تنامُ على السرير الثاني، فيضربُها ليجبِرها على النوم وهي تسبُّه وتسبُّ رسول. في الصباح، عندما دخل عليهما رسول، قال للزوجِ: "سريرُكَ يخبرُني بأنّني حتّى لو أخبرتُكَ أنّها تخونك فإنّكَ لن تصنعَ شيئًا أكثر من ضربها، ولن تطلّقها، فإنَّ رجلًا يحمل زوجته للغرباء ليخبروه أنّها خائنةٌ ليسَ برجل، ولو كانت حميّتكَ لشرفكَ لطلّقتها منذ ساورتكَ الشكوك، لكنّكَ لا تريد إلّا إذلالها لتتركَكَ

تَفعل في أموالِها ما تشاء، فما أراكَ إلّا قوّادًا!".. دُهِشت المرأةُ لكلمات رسول إذ أنّها كانت تمتلكُ ثروةً عن أبيها تُنفقُ منها على زوجِها العالة، وتصنعُ هي في نفسِها ما تشاء، وقد عرَف زوجُها من قبل أماراتٍ كثيرة على خيانتها ولم يطلّقها.. ثم التفت رسول للمرأة وقال لها: "أنتِ غجريّةُ الروح لا تؤمنين بغيرِ جسدكِ، فأطلِقي سراحَه. ولا تحبسي حلمَ روحكِ بخياناتٍ مستترة، فالعاهرُ تصبحُ عاهرًا عندما تفعل ما تفعل في الخفاء، أمّا التي تصنع هذا في العلن فهي امرأةٌ حرّة! فماذا تملك المرأة في هذا العالم غيرَ جسدِها؟ هكذا قرَّرَ كلُّ من حولكِ: أنَّكِ جسدٌ لا غير. حسنًا. قولي لهم قبلتُ الصفقة، واصنعي بهذا الجسد ما تشائين".. فخرجَت المرأة من الفندق ولم تعُد لبيتِها بعدها أبدًا، وصارت المرأة الأشهر في مَن حولها جرأةً، أو وقاحة. فإذا أعجَبها رجلٌ صادته ودعته لجسدها، بلا مقابل، ثم تذهبُ بعدها للبحثِ عن آخر.. وذاك الرجل الذي كان يشكُّ بزوجتِه، فاستمَعَ رسول لسريرها الذي باتت عليه، فأخبَرَه بأنّها لا تخونه لكنّها تمارس دومًا العادة السرية لأنّ زوجها لا يُشبعها، فانتفضَ الرجلُ وصفَعَ امرأتَه: "أَبَعدَ كلِّ ما أفعلُه بكِ ولا تشبعين يا ساقطة؟! والله يا رسول إنّي أنفُضُها نفضَ الفأسِ للأرض! لكنّها لا تشبع حتّى لو أجريتُ نهرًا بين ساقيها!".

كثيرون طلّقوا زوجاتهم بعدما أخبرهم رسول بخيانتهنَّ، وكثيراتٌ سَبَبن أزواجَهُنَّ الذين ثبَتَت خيانتُهم، لكن لم تطلُب واحدةٌ منهنَّ الطلاق! كتلك المرأة، التي لم تغضب، بعدما أَخبَرها

رسول أنَّ زوجها شاذٌّ يركبُ الرجالُ ظهرَه! بل ضحكَت وقالت له لا يعنيني أن يفعل بهِ رجُلٌ، المهمُّ ألّا يَفعلَ هوَ بامرأةٍ فيطعَنَ في كبرياء أنوثتي. ومادام شذوذُه لا يمنع قدرته على معاشرتي فلا يعنيني، سأعتبر الأمر إحدى حماقات الرجال، كالتدخين، أو إدمان الخمور!

ديميان كان واحدًا ممّن كان الفندق قِبلتهم، لم تحمله امرأتُه إليه لأنّها تشكُّ به أو بخيانته، إنّما لتعرفَ سرَّ أحلامه الدائمة التي يتمتم بها طوال الليل ولا تفهم منها شيئًا، وهو لا يتذكَّرُ أحلامه، أو هكذا كان يُخبرها، لكنَّ ارتعادَهُ الشديد عقبَ كلِّ حلم وتبدُّل حاله طوال اليوم كان يزعجها ويقلقها، فلمّا سمعت عن رسول قرّرت أن تقصد الفندق لعلّه يفكُّ سرَّ أحلامِ زوجِها، ولم تكن تعلم أنَّ زوجها يعمل بالفندق ذاته في أيام عطلتِه، إذ أنّه لم يخبر أيَّ أحدٍ بهذا، إلّا ابنتَه.

قضت ليلَتها بالفندق مع زوجها الذي نامَ كأنّه ببيته ولم يُقلقه تبدُّل الفراش، في الصباح استدعَت رسول ليُخبرها ماذا يقول السرير، فاستلقى رسول على فراش ديميان، واستَمَع فسمع.

نهض بعدها إلى ديميان ووضع يدَهُ فوق رأسِه وقال له: "مباركٌ أنت في الأرض كما في السماء، المؤمنون بكَ ينتظرونك، فاذهَب إليهم لتهدِيَهم سبيل الرشاد!".

لم يمرَّ يومٌ واحدٌ بعدها حتّى كان ديميان في قلبِ الكنيسة يقلبُ المائدة المقدّسة، رافضًا أن يأكل الناس لحمَه ويشربوا دمه. فقد أدركَ أنّه يسوعُ المسيح، بعدما صدَّقَ حلمه.

❁❁❁

كان في موتِ جدَّة براءة، هلاكٌ لأبيها. ماتت تلك العجوزُ المنبوذة، حتّى من نفسها، في غرفتها الفقيرة دون أن يشعر بها أحد.. وحيدةً عاشت ووحيدةً ماتت.. لم ينتبه أحدٌ لموتها حتّى تطايرت رائحة العفونة إلى أنف كلِّ من يمرُّ بأرضِها الخَربة، فأخبر الجيرانُ ابنَها أنَّ ثمة عفونةٌ تخرج من غرفة أمّه.

لم يستطع أيُّ أحدٍ الدخولَ على الجيفة المنتفخة، وحدَه ابنُها لم يتأذَّ من رائحة الجسد، فقد ربّتهُ أمّه على إلفِ القبائح واحتمالها. كان يشفق عليها، ويدرك أنَّ الفقر قدرهما معًا، حتّى لو كثر ماله. لفّها في ملاءةٍ وحملها فوق ظهره، وسار بها نحو بيته، وفي الطريق بين بيته وأرضِها الخراب تذكّر ما كانت تفعله به حين كان طفلًا.. كانت تُعلّمه من اللحظة الأولى أنَّ الفقير لا يردُّ إساءةً، وأنَّ الإساءةَ إليه ليست ظلمًا بل هو قضاءٌ يناسبُ نفسَ الفقير.. تذكَّر حين كان في السادسة من عمره، يلهو بلعبةٍ صنعها بنفسه، فجاء طفلٌ وأخذها منه عنوة، فضربه واستردَّ منه لعبته، غضب والد الطفل المضروب وذهب لأمّه ينهرها، فقالت "سيُعاقبُ على ما فعل"، ثم ربطَت عنقه بحبلٍ طويل، وأخذَته جرًّا إلى بيت الطفل المُعتدي وأمرَته أن يعطِيَه اللعبة بيده. ففعل. وها هو اليوم، يحملها على ظهره بعدما تعلَّم الدرس. غسّلها وكفنّها ثم حملها إلى القبر. وحده. فلم يشيّع جثمانها أحدٌ سواه. بعدها بأقلّ من شهر سقط شحات مريضًا لا يغادر الفراش، والألم يعتصره ليلًا ونهارًا، فقد فَسَد كبِدُه.

عندما اشتدّ به المرض، نقلوه للمشفى. وبعد أيامٍ قليلة لحِقَ بأمّهِ على عَجَل.

بكَت الأُسرة كلّها ولم تبكِ براءة. كانت تنظر فقط إلى أصابع رجليها، وتمسكُ بموسى تحدثُ بواسطتها جروحًا صغيرة في أصابعها. في اليوم التالي ذهبت لمدرستها، كأنَّ شيئًا لم يكن. كانت تتعرَّض دومًا للمضايقات من زميلاتها اللواتي لا يكفُفنَ عن السخرية من صدرها الكبير ونهدها المنتفخ، كأنّها امرأةٌ، لا مراهقةٌ في الرابعة عشر من عمرها، لكنّها تعلّمَت أنَّ الإهانةَ لا تُرد، فلم تردَّ على هذه السخرية أبدًا. إلّا أنّها خالفت عهدها، عندما قالت لها إحداهنَّ مات أبوكِ، ولم يترك لك سوى هذا الصدر الكبير؟ التفتَت إليها براءة وهي تموجُ بالغضب وقالت "أبي لم يمُت" ثم خطَفَتها من رأسها كأنّها أرنبٌ بين مخالبِ نسر! وجرَّتها من شعرها لأكثر من خمسين مترًا، ثمّ ألقت بها، وذهبَت. فلم يتعرّض لها أحدٌ بعدها بمضايقةٍ.

استطاعت أن تغفر لأبيها كلَّ شيءٍ. إلّا أنّها لم تسامحه على موتِه أبدًا.

●●●

تمثّلُ عقيدةَ "التناول" أحد الأسرار السبعة بالكنيسة الأرثذوكسية وأحد أهم أعمدة الكنيسة الكاثوليكية حول العالم، ذاك الطقس الكنسيّ الذي يتقدّمُ فيه المؤمنونَ لأكلِ الخبز وشُرب النبيذ ليحلَّ بهم لحمُ المسيح ودمُه، صارت هذه العقيدة أمرًا قابلًا للنقاش بعد ما فعله ديميان بالكنيسة.

لم يكن النقاش في العلن، بل كان سرًّا، بين الشباب الذي يتساءل عن فلسفة التناول ومنطقيّتها، وآخرين، يبحثون في أصول هذا الأمر في الكتاب المقدّس، وهل هو من ثوابت العقيدة الواردة في الإنجيل أم أنه مجرّدُ طقسٍ توارثَته الكنيسةُ عن آبائها الأوائل. بدأ الشباب يتحدّثون إلى ذويهم في الأمر، ليس للاستنكار، إنّما للفهم، فيقوم أهلُهم بإسكاتِهم وتعنيفِهم على قلّة إيمانهم، لكنّهم في النهاية وَجدوا أنفسهم يقفون أمام كهنةِ الكنيسة مستفهمين، لا عن ريبةٍ، إنّما للردّ على الأبناء المتشككين!

لم يكن ادّعاءُ ديميان للألوهيّة، وزعمه أنَّه يسوع المسيح، هو ما أزعجَ الكنيسة، ما أزعجَها حقًّا أنّه تسبّبَ في تهييج الشكوك في أنفُسِ الشباب.

بعدما ذاع الخبرُ لدى كلِّ المسيحيين، وطال الكلامُ حول الرجلِ الذي زَعَمَ أنَّه المسيح وحطّم المائدة المقدَّسة حتّى لا يأكل الناس لحمَه ويشربون دمَه، اجتمعَ "المجمّع المقدّس" لمناقشة الأمر. تكلّم الحضور كثيرًا، حتّى قال لهم الكاهن الأكبر: "القضيّةُ

ليست إيمانَ رجلٍ أو هرطقته بادّعاءِ أنَّه المسيح، ولا حتّى أنَّه دنّس المذبح المقدّس وألقى بخبزِ الربِّ ونبيذِه، إنّما القضيّة أنَّ هناك أفرادًا باتوا يناقِشون مُسلَّماتَ العقيدة، وإنَّ أيَّ عقيدةٍ راسخةٍ تظلُّ راسخةً حتّى تبدأ مناقشَتُها. وساعتها ينهار كلُّ شيء! إذا نوقِشت حقوقُ الحاكم قامت الثورة، وإذا نوقِشت عقيدةُ الربِّ انتشرَ الإلحادُ والهرطقة وانفرطَ عقدُ الإيمان. فلا تناقشوا الشباب الذين يسألونكم عن معنى "التناول"، بل حدّثوهم عن مصائر المتشكّكين في الربِّ والخارجين عن الصفّ. ولا تكلّموهم عمَّا فعلَه المجنون، لكن حدّثوهم عن الجنون نفسه. ولا تنسوا أنَّ الكنيسة "البروتستانتية" لا تعترف بعقيدة التناول، وهذا يعني أنَّ الماءَ المتسرّبَ من كنيستِنا سيجدُ له إناءً يؤويه. ولَإن يَخرُج أبناؤنا من مِلَّتنا كلِّها، خيرٌ من أن ينحرفوا إلى طائفة البروتستانت. لأنَّ خروجَهم من المسيحيّة يعني أنّهم لا يستحقّونها، أمّا بقاؤهم على مسيحيّتهم وذهابهم إلى هؤلاء، فهذا يعني أنَّ ثمّةَ بكنيستنا خلل! لن أقولَ لكم أنّني لن أقبل بتحوّلِ رجلٍ واحد من كنيستنا إلى البروتستانتية، بل أقولُ لكم أنا لن أقبلَ حتّى بتحوّل كلبٍ مربوط على بابِ كنيستنا إلى الوقوف على عَظمةٍ ملقاةٍ أمام بابِ كنيستهم، فإمّا أن نربطَ الكلبَ جيّدًا أو ندُسَّ له السمَّ في عظمة فيموت على بوّابتنا نحن.

خذوا ديميان إلى الدير حتّى يشفى، أو يهلكَ داخلَ بوابتنا.".

●●●

على غيرِ عادتِهم، القائمة على الخلوةِ وقلّةِ الاختلاط وندرةِ الكلام، أصبح ديميان حديث الرهبان المقيمين بالدير. كلَّ ليلةٍ يجتمعون لمناقشة الأمر، هل هو جنونٌ؟ أم هرطقة؟ أم كما يقول الراهب الكبير: اختطفَه "بعلزبول"، وضلَّلَ قلبَه، ومحى عقلَه.

لم يعلن أحدٌ منهم اعتراضَه صراحةً على طريقةِ تَعامل الراهب الكبير الموكَّل بعلاجِ ديميان، أو بمعاقبتِه، كما كان يردّدُ البعض في الخفاء. كان الراهبُ معروفًا بصرامته وحزمه الشديد، فلا يستطيعُ أيُّ أحدٍ أن يناقشَه في أمرٍ فعَلَه، أو قرّره، فضلًا على أن يعترض عليه.

حبسَ الراهبُ ديميان بإحدى الغرف النائية بالدير، وكلَّما دخلَ عليه، يردّدُ ديميان وهو نائمٌ على ظهرِه في وضعٍ مصلوب، دون أن يغيّر هيئتَهُ تلك، أو ينظرَ إليه: "كلُّ سنواتِ عمركَ الطويلة ضاعت هباءً، وموعدِكَ هاويةُ الجحيم لأنّك تحبسُ إرادةَ الربِّ، أنتَ شرٌّ ممَّن صلبوني فوق أرض "الجلجثة". لأنّهم كانوا لا يؤمنون بي. أمّا أنتَ فتزعمُ إيمانك، ثم تعذّبني، فقط لأنّي أريد أن أحتفظ بلحمي ودمي!".

في المرَّات القليلة التي حاوَل الراهبُ الكبير أن يحاوره لم يُفلح، إذ كان ديميان متوحّدًا مع ذاته، لا يتصّلُ بمن حوله، إنّما يُلقي كلماته عليهم كأنّهم آذانٌ عليها فقط أن تَسمع، لا ألسنةً يحقُّ لها أن تتكلّم، فالربُّ يقولُ، ولا يُقالُ له.

كان الراهب يُجبره يوميًّا على شرب سائلٍ يُعدُّه بنفسه. يقومُ بدقِّ "جنين القمح" مع "صمغ الحلتيت" و"السدر الأخضر" و"القست الهندي" ثم يقوم بغليه، وينتظر حتّى يبرد ويسقيه له قسرًا، ثم يحملُه كلَّ صباح إلى المنحل الموجود بالدير فيربِطُه ويطلقُ عليه أسرابَ النحل، لعلَّ لسْعَ النحل وسمَّه الخفيف يقتل دمَ الشيطان الذي أصبح يجري في عروقه، والرهبان يرَون ما يفعلُه به كبيرهُم ويساعدونه عليه، حتّى وإن كان بعضهم يحملُ شفقةً في قلبه على ذاك المجنون، فإنّه لم يكن يُظهر شفقَتَه تلك. الوحيدُ الذي أبدى غضبَه فيمَا بعد، هو ذاك الراهب الشاب الذي قال له ديميان وهو مقيّدٌ يلسَعُه النحل "أيُّ عار أن تعذِّبَ ربَّكَ!" فأصبحَ بعدها لا يشارك فيما يحدث له، بل ويتحاشى الخروج من صومعته أغلب الوقت، حتّى لا يرى ما يحدث.

لم يكن يدخل على ذاك الراهبِ الغاضب أحدٌ إلّا (يعقوب) الخادم، كان عُمر يعقوب قريبًا من عمر الراهب، وكان يُكِّنُ له حبًّا كبيرًا، ولذا كان يحرص على المكوث معه في أيام خدمته بالدير.. كعادتهِ حمل إليه شيئًا من الطعام، وكعادتهِ لم يمسَّهُ الراهب بيده! وعندما طلب منه يعقوب أن يأكل شيئًا يتقوَّى به، سأله الراهب دون أن يلتفت إلى طلبه:

- لماذا نحنُ هنا يا يعقوب؟

- نخدم الربَّ يا سيّدي، ونحيا حياتَه التّي كان عليها قبل صعوده.

- لكنَّ الربَّ لم يترك العالم، وينعزل خلف جدرانٍ تحجبُه عن الحياة!
- تعلمتُ منك أنّنا حين نخدم الربَّ فإنّنا نخدم أرواحَنا التي تتّحد مع الربِّ، ليكونَ الكلُّ في الواحد، ولنطهّرَ أرواحَنا بالخلوة والابتعاد عن قذارات العالم. الربُّ يريد لنا أن نصل إلى أرواحِنا، قبل كلِّ شيء، لنصلَ إليه.
- هذا ما نُقنع به أنفسنا يا يعقوب! تطهير الأرواح لا يكون إلّا وسط المحرقة، وليس في الظِلّ الآمن. ماعاد لي يقينٌ بكلِّ ما آمنتُ به قبلًا.. هذا الرجل الذي نقول أنّه مجنون غرَسَ أظفارَه في قلبي فأدماه، كلماتُه القليلة التي يُطلقها لها قوّةُ شهابٍ ثاقب. حتّى المجنون يمكن أن يعلّمنا أشياءَ نغفلُ عنها مهما بلغَت حكمتُنا، إنّه كالمرأة الوثنيّة التي طلبَت صدقةً من الربِّ يسوع فقال لتلامذته: "ليس حسنًا أن يؤخذَ خبزُ البنين ويُطرحَ للكلاب"، فقالت له: "نعم يا سيّد، لكنَّ الكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها".. ماذا قال لها يسوع؟ إنّه لم يتكبّر عليها يا يعقوب ولا نهَرها، بل أقرَّ أنّها قد دلَّته على الصواب وقال: "يا امرأة عظيمٌ إيمانكِ فليكن ما تريدين".. إذا كان الربُّ قد استمعَ إلى كلماتِ امرأةٍ كافرة، فلماذا لا نستمعُ إلى ديميان؟ وكلُّ كلماته لم تخلُ من الحكمة

الغائبة عنّا؟! لماذا نأكلُ لحم الربِّ ونشرب دمه فيمُدُّنا بالحياة والغبطة؟ ثم نتركُ العالم ونمنع عنه خيرنا؟

- سيّدي: لا أفهم ماذا تقصد؟
- دعكَ ممّا أقصده وأخبرني: هل تعرف شيئًا عن هذا الرجل؟
- هل تقصد ديميان؟
- نعم.
- أنا لا أعرفه. لكن.. أعرف ابنته!
- هل يربطكَ بها شيء؟
- لا شيء يا سيّدي. كنتُ أراها كلَّما زارت الكنيسة التي أخدم بها، ولم أتحدّث معها سوى مرّةً عابرةً أو مرتين، أظنُّ أنّها لا تتذكَّر هذا.. ربّما حتّى لم تعد تعرفني..
- وجهكَ محتقنٌ يا يعقوب. أنت تحبّها.
- هي لا تعرف حتّى بوجودي يا سيّدي. صدّقني.
- لكنّكَ تعرف بوجودها.. مسكينٌ أنت يا يعقوب.. ليس شيء أشدُّ من حيرةِ الإيمان إلّا حيرة العشق.. إذا رأيتَها يومًا فأخبِرها أنَّ أباها أعظمُ إيمانًا منّا جميعًا. وأخبرها ما في قلبك أيضًا. فإنَّ حبْسَ النيران في الصدر يخنقُ القلبَ بالدخان، ومن بلغَ يقينَ العشق، بلغَ يقينَ الإيمان، وأدركَ ملكوتَ الربِّ، فالله لم يَخلِقنا إلّا لأجل ذاك الشيء الذي ينبض في صدورنا.

شيءٌ ما جعل الراهب يخرج من صومعته ليلًا، ويدور حول محبس ديميان، فسمع أنينه المكتوم. كانت أنّاته تخبر عن شدّة المواجع المتفجّرة من كلّ جسده الذي غرزَ النحل فيه إبرَ سُمه، فاحترقَ الراهبُ ألمًا لأجلِه. لم يحتمل لسعَ الأنين الذي يتسرَّبُ من أذنه إلى روحِه فيشويها، فغادر الساحة.

كانت صلاةُ الليل الأخيرة قد بدأت، والرهبان والخدّام يتلون الترانيم على وقعِ الموسيقى الكنسيّة. كانت المعازف شجيّةً هذه الليلة أكثر من أيّ وقتٍ سبق، كانت تنوح. وقف الراهب بينهم بخشوعٍ مكلوم، والألحانُ التي تتسرّب إلى نفسه كخيوطٍ من ضوءٍ ينيرُ كلَّ ما كان معتمًا، كان لها وقعُ حبّات المطر على رأسِ رجلٍ محزونٍ، تواسيه قطراتُ العزف التي تحنو عليه، فيتمايلُ معها ويتهادى كغصنٍ هزَّهُ نسيم الفجر.. انتشى وتطايرَت روحه دخانًا يُحلّق بغيرِ حدود، تنفسَّ بقوّة فملأَ الهواءُ صدرَه، قلبُه يضربُ بقوّةِ ناقوسٍ فوق أعلى برج، فيسمَعُ دقاتَ قلبِه بوضوح ويكاد يحسُّ خريرَ الدمِ في عروقه.. خرج عن الصفّ وأخذ يرقصُ باسطًا ذراعيه على طولهما، مثل صقرٍ يسبَح في الهواء دون أن يَخفقَ جناحُه، ثم متلوّيًا كأنَّه مصروعٌ يتشنَّج، لا يشعر بمن حوله ولا يكترث لشيء. دُهِشَ الرهبان لما يرَون، وعندما أمسكوه عن الرقص، وتوقَّفَت الترانيم، وانحبس صوتُ الألحان، قال لهم: "لماذا لا تريدونني أن أرقص؟ أليست الترانيم والموسيقى تكتملان برقصِ الجسدِ والروح؟ ألم يرقص داوود أمامَ تابوتِ العهد؟ ألم يأتِ في الكتاب المقدّس: «وَكَانَ دَاوُدُ يَرْقُصُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ

أَمَامَ الرَّبِّ»؟ فلماذا تكرهون رقصي وتحبسونه كما حبستم الرجلَ الذي زعمتم جنونَه حين نطقَ لسانُه بما رقصَ بهِ قلبُه؟".

كان للموقف أن يمرَّ، لو أنَّ الراهبَ صَمَت!

لكنَّه ألقى بوجهِ مَن حوله شكوكَ قلبِه، التي أشعَلَتها كلماتُ المجنون، فأخذ يُشير إلى الرهبان ويصرخ فيهم: "أيّها الهاربون من وجهِ الربِّ الذي قال «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ وَحِيدًا»! إنّكم تتحَدّون إرادتَه. تجبُنُون أمامَ المخازي التي تحرق العالم، وتختبئون هنا كالجرذان في الجحور، ثمَّ تزعمون الإيمان والسكينة.. ياللنفاق والخزي.. لو كان الإيمانُ بتركِ العالم، فلماذا أرسَلَ الآبُ ابنَه إلى العالم ليحرّره من قبضةِ الشرير؟ تريدون أن تتقدّسوا! الربُّ أرادكم بكلِّ خطاياكم وضعفكم! فليسَ مقدّسًا حقًّا إلّا الربّ. نازَعتُم الربَّ في عباءته. والآن تزعمون الوقارَ والسكون لتقديسه ولا تريدونني أن أرقص أمامه! وهو يريدني أن أرقص. فمن أطيع؟ الجبناءَ المختبئين؟ أم الربَّ الذي أراد أن يحرّرني؟".

خلع عباءته، وتعرَّى كما ولدَته أمّه، ثمَّ هرول إلى باب الدير، لكنّه لم يبلُغه، إذ أطلق عليه الراهبُ الكبير الكلابَ المتوحّشة الثلاثَة التي يحتفظ بها لحراسة الدير وتأتمِر بأمرِه وحده، فانطلقت الكلابُ خلفَ الراهب، ولم تبقِ منه قطعةً من اللحم غير ممزَّقة، حتّى قضَت عليه.

اجتمَع الرهبانُ المذعورون من هول المشهد حول بقايا الجسدِ، ووضعوه فوق ملاءةٍ خشنة جمعوا عليها أمعاءه المندلِقة، ودفنوه أسفلَ الشجرةِ البعيدة عندَ سورِ الدير الشمالي كما أمرَهم الراهبُ الكبير. في مساء اليوم التالي تسلّل سبعةٌ منهم إلى الشجرة فصلّوا على روحه سرًّا، لأنَّ الراهبَ الكبير رفضَ الصلاةَ من أجلِه، وأخبَرهم أنَّ روحَه ضلّت طريقَ النور، وخرجَت عن خراف الربِّ.. فأكَلَهُ الذئبُ عدوُّ الإله.. وصارَ أسيرًا بقبضةِ "بعلزبول".

لم يعرف أحدٌ أبدًا ما حدث في تلكَ الليلة، إلّا الرهبانُ الذين شاهدوا كلَّ شيءٍ ولم يرجعوا بعدها كما كانوا، فإنَّ الذي يُبصر لا يعود كما كان.

منع الراهبُ الكبير أيَّ أحدٍ بالدير بعد تلك الليلة من الدخول على المجنون الذي تسبَّبَ بكلِّ هذا. هو نفسه أصبحَ لا يدخل عليه ولا يسقيه سائلَهُ الذي كان يسقيه إيّاهُ قسرًا كلَّ صباح، وكلَّفَ خادمًا بأن يقدّم إليه الطعام والشراب دون أن يكلّمه كلمةً واحدة، وظلَّ الوضع على تلك الحالةِ أسابيعَ، حتّى كان ذاك الصباح! حينَ هرول الخادم مذعورًا إلى كبير الرهبان، يُخبره أنّه فتحَ الحجرة فوجَدَ ملابسَ المجنون ملقاةً ولا أحدَ بالحجرة، فكان ذاك أشدُّ إرباكًا من كلِّ هذيانِه الدائم وزعمِه أنّه هو المسيح.

أحدث اختفاؤه فوضى بالدير أكثرَ من كلِّ كلماتِه، إذ كانت الحجرةُ بلا نوافذ، ومُحكمة الإغلاق بسلسلةٍ حديديّة من الخارج! فأصبحَ الرهبانُ يقولون: "لقد كان الربُّ حقًّا بيننا فلمّا كذَّبناه صعد مرّة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه"، ولم تُفلح كلُّ محاولاتِ الراهبِ الكبير في إقناعهم بأنَّ الخادمَ قام بتهريبه، وأنَّ ما يقولونه هرطقةٌ وتدنيسٌ للعقيدة! بعدها لم يبقَ في الدير راهبٌ واحد، خرجوا جميعًا يبشّرون الناسَ بأنَّ الربَّ نزل مرَّةً أخرى، لكنَّ العالم جَحَده ولم يؤمن به.

كان الرهبانُ في الدير تسعةٌ وعشرون راهبًا، تركوه جميعًا، وأخذوا يَدعُون للتوبةِ على الطريقةِ القديمة في التوراة، بأن يقتل الجميعُ أنفسهم، تكفيرًا عن خطيَّتهم بحقِّ يسوع الذي عاد للأرض رافضًا أن يُؤكل لحمه ويُشرب دمه، فلم يصدّقه أتباعُه، وحبسوه وعذّبوه بالجوع ولسعِ النحل حتّى صعَد إلى السماء. ولم يمرَّ شهرٌ واحد على خروجهم للتبشير بعودةِ الربِّ، حتّى وجدوهم جميعًا قد انتحروا بالطريقةِ ذاتِها. إذ عادَ كلٌّ منهم لبلدته وشنقَ نفسَه على شجرة. تمامًا كما فعل (يهوذا الإسخريوطي)، الذي أسلَمَ المسيحَ لأعدائه فصلبوه!

●●●

حبيبتي (ماري).. في هذا الضجيج الذي يحيط بي، والحيرة التي لا تنتهي، أشعر برغبةٍ كبيرة في الكتابة إليكِ، وسط هذه الصفحات الباردة التي أدوّنُها كلَّ ليلة عمّا يدور هنا بالمارستان وخارجه.. لا أدري إلى أين تأخذني الكتابة يا ماري.. في البداية كان الأمرُ تدوينًا لأبحاثٍ عمليّة على هؤلاء المرضى الذين يفِدون كلَّ يوم إلى المارستان، على أملِ تنقيحِها بعد ذلك لتكونَ رسالةً علميّة.. لكن مع الوقت أصبحَت قبضةُ العلم تتراخى وتنفرجُ أصابِعُها، ووجدتُ نفسي أكتبُ ما أراه كلَّ يوم كأنّه "تأريخٌ" لمأساةٍ، أو "رواية" أترُكها كشاهدٍ على كلِّ ما يحدث.. لم أعد أراقب الحالات لتحديدِ المرض والعلاج.. بل صار شغفي الأكبر معرفةُ حكاياتهم وما الذي حدث لكلٍّ منهم.. وراء كلِّ واحدٍ منهم قصّةٌ فاضحةٌ لهذه الحياة يا ماري.. ومع الوقت أصبحتُ أحيانًا أميلُ إلى كلماتِ (الدكتور ناصف) ونظرتِه للجنون.. أستمعُ لمن يتكلّم، وأنظرُ لمن يصمت، كأنّهم معلِّمون أتلقّى الحكمَةَ منهم، وأشعر أنّي على وشك الجنون، هذه حقيقةٌ لا مبالغةَ فيها.. أنا أضبط نفسي كثيرًا في حالةِ ذهول واقتناع بكلماتِهم.. ولولا أنّي أذكّر نفسي دومًا أنّني الطبيب هنا وهُمُ المجانين.. لتبِعتُ هذيانهم وأهواءهم التي تغويني.. أكتبُ لكِ الآن لعلَّ هذا يذكّرني بأنَّ لي حياةً خارج هذا الجنون.. أحتاج أن أقول لكِ كلَّ ما يحدث وما

يعتريني من أفكار لأحافظَ على الحدِّ الفاصل بين العقل والجنون، وليتني أنجح يا ماري، ليتني.

لقد تعدَّدت في الفترة الأخيرة الحالات التي تصل إلى المصحة لنساءٍ كلُّهنَّ أُصبن بالجنون، وكلُّهنَّ عرقَل عقولهنَّ عن العملِ رجلٌ واحد.. إنّه أحد "مجانين النوم والأحلام".. مجنونٌ واحد استطاع إقناع أكثرَ من سبعينَ امرأةً بالجنون بلا جهد، هذا إذا اعتبرتُ أنّه لم يؤثر إلّا في من جئنَ إلى المارستان! لكنَّ المؤكَّد أنَّ أضعاف هذا العدد يعانين الجنون خارج أسوار المصحة.. فعَلَها بمجرّد كلمات! فقط يتكلّم فيشتعلُ الحريق.. تتبَّعتُ أخبار هذا الرجل فأذهلني ما حدث.. إنّهم يستعمرون العقول يا ماري، وتقف كلُّ وسائلنا عاجزةً عن الدفاع، رجلٌ واحد كهذا يتحدَّث بكلماتٍ فيُلقي بعشرات النساء إلى هوّةِ الجنون، كأنّه الماءُ الذي يصلُ لأرضٍ متلهّفة للحياة فتُنبت! كيف يُقنعُ مجنونٌ عقلاءَ بالهذيان فيستجيبون؟ بينما كلُّ الأطباء هنا يعجزون عن إقناع مجنونٍ واحد بالعودة للعقل! لماذا الجنون سهلٌ هكذا بينما السَّواء بالغُ الصعوبة؟ كأنَّ الناس كانوا ينتظرون من يمنحهم الجنون طيلةَ الوقت، فلّما جاءهم من يحقّق أمنيتهم ساروا وراءه بإيمانٍ عميق.

الأمرُ هنا أصبح كارثة. إنّهم يكدّسون المجانين في الغرف والطرقات، ولا أحدَ يتحدّث عن طريقٍ للخروج، حتّى أكبرُ أساتذتنا الذي لجأتُ إليه وأنا أظن أنَّ النجاة قد تكون على

يديه، وجدتُه يقف مصفّقًا للمجانين، ويرى أنَّ جنونَهم هو بذاته النجاة.

أنا مُتعَبٌ جدًّا يا ماري. أكاد أن أستسلم. أشعر أنّي أقف وحيدًا في مواجهة ذاك الوحش، بلا سلاحٍ، ولا خارطة تمنحني طريقًا للهروب.

انتهى.

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}

القرآن الكريم

لم يعُد أمرُ الجنون الذي يتسرّبُ كماءٍ تحت الجدار خافيًا على أحد. أوشكَت كلُّ الجُدر على التداعي، لا سيّما بعد انتحار عشرات الرهبان الذين بشّروا بعودةِ الربِّ يسوع ودعَوا إلى إبطال طقس "التناول" لأنَّ الربَّ لم يعد يريد أن يأكله أحد، هذا إلى جوار شيوعِ خبر مذبحةِ الفتاة التي نصبَتها لوالديها وجارها، وشغفِ الناس بقدرة رسول. ذاك المجنون الذي يحدّثُه السرير، وكان داعيةَ الجنون. لتتطايَر كلُّ العقول شظايا لا يعرف أحدٌ أين ستسقط، ولا كيف.

كُلَّ يومٍ يصحو الناس على قصّةٍ جديدة لمجنونٍ جديد، لكنَّ اللافتَ لانتباه المختصين -كما ذكروا بعد ذلك- أنَّ هناك أنماطًا سائدةً للجنون يشترك فيها أعدادٌ كبيرة من الناس وإن اختلَفت طرائقهُم في التعبير عنها، وأشهرُ تلك الأنواع كان متمثّلًا في "جنون النوم والأحلام"، فقد أصبح الكثيرون يعلنون أنّهم نيامٌ، وأنَّ كلَّ ما يحدث ما هو إلّا حلمٌ كبير لا أحدَ يستيقظ منه.

كان أشهرُ هؤلاء المجانين أحدُ خطباءِ المساجد، الذي اعتلى يومًا المنبرَ ملتحفًا بعباءةٍ، فلا يظهر منه غير وجهه، ووقف طويلًا دون أن ينطق بكلمة، حتّى كثرت الهمهمات في المسجد، فأخرج رأسه من العباءة ونظر في الوجوه التي تستنطقه: "تريدون أن يتحدثَّ إليكم النائم؟ حسنًا. سأحدّثُكم. فأنتم مثلي، ولا بأس أن يتكلَّم نائمٌ إلى نيام، يا إخوتي لقد ضلَّلَ الشيطان عقولنا وأفهَمَنا أنّنا مستيقظون، فأحال حياتنا لجحيم، وأدخَلنا في صراعٍ طويل مع أنفسنا لمقاومةِ شهواتنا ورغائبنا! والحقُّ أنّنا نيامٌ نحلم. ليس لكلِّ ما ترَونَه حقيقة. هل تسمعونني الآن؟ إذا كنتم تسمعونني فهذا يعني أنّكم نائمون في مكانٍ ما وتشاركونني الحلمَ ذاتَه.. لا تحزنوا إن اقترفتم كلَّ الخطايا، فليس على النائم حرجٌ من أحلامه.. سيخدعُكم النيامُ الحمقى الذين لا يعرفون أنّهم هم أيضًا نيامٌ يحلمون، وسيزعمون أنّكم مستيقظون، فإذا قابلوكم في الطرقات فابصقوا في وجوههم ليستيقظوا من غفلتِهم ويعودوا لحقيقةِ نومهم! قولوا لهم ما الدليل على أنّكم تحيَونَ اليقظة؟! أعطُونا برهانًا واحدًا، ألسنا في نومنا -الذي ننامه داخلَ الحلمِ الكبير- نحلم بأحلامٍ صغيرة؟ ثم نستيقظ من النوم ونتذكّرُ أحلامَنا التي كنّا نظنُّ أنّها حقيقة، ونكتشفُ أنَّ الأمرَ كلَّه كان باطلًا توهَّمنا فيه أنّنا نواجهُ واقعًا بينما الحقيقةُ الوحيدة أنّه كان حلمَ النائم.. ألم نصرخ من كوابيسَ مرعبة؟ ألم نفرح بحلمٍ كنّا نعاشر فيه امرأةً جميلة ونبلّل سراويلنا بالمنيّ لأنّنا كنّا نحسبُ الأمرَ حقيقة؟ هل كان لدينا أيُّ شكٍّ وقتها في صدقِ ما

نرى؟ فلماذا يكذّبوننا ويزعمون أنّنا لسنا نِيامًا؟ هل لأنّنا نسمع ونرى ونتحرّك؟! هل هذا دليلٌ ينفي أنّنا نائمون؟ هل هذا برهانٌ ينفي أنَّ الحياة حلمٌ لا حقيقةَ له؟!.. قولوا لهم: لقد كنّا نفعلُ هذا في نومنا الصغير أيضًا، فنرى أنّنا نتكلم ونسمع ونضرب ونعاشر ونهرب ونصرخ، ولم نشكَّ ولو لحظةً واحدة أنّنا نيامٌ نحلم! فلماذا لا تُقرّون بأنّكم نيام؟ يا إخوتي آمِنوا بهذا الحلمِ الطويل الذي لا يريد أن ينتهي! ألسنا مسلمين؟ أليس رسول الإسلام قد قال «الناسُ نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا»؟ ها قد رأيتم! رسولُكم يثبتُ لكم أنّنا نيامٌ جميعًا.. ولا يقظةَ إلّا بعدَ الموت.. ومادُمنا هنا نفعلُ ما نفعل فإنَّ هذا يعني أنَّ الحلمَ لازال مستمرًّا.. هل تعلمون يا إخوتي.. إنَّ أخشى ما أخشاه أن أجد نفسي -حين استيقظُ بعدَ الموت- أنّني في الحقيقة لم أكن أنا أنا! وأكتشفُ أنّي أحدُ الذين كنتُ أكرهُهُم في حلمي الطويل! يا لها من كارثةٍ إن استيقظتُ فوجدتُ نفسي لستُ هذا الذي أحسبُ أنّي هوَ، وأكون مثلًا زوجةَ عمّي تلك النمّامة السمينة التي لا تكفُّ عن الضراط ليلًا ونهارًا، أو أكون أنا خادمَ المسجد الذي لا ينظّف المراحيض أبدًا بشكلٍ جيّد كلّما أمرته! حقًّا ستكون تلك ورطةً كبيرة وقتها. نسألُ اللهَ السلامة!"، ثم نزل عن المنبر ولم يقُم بالصلاة، وعندما سأله شابٌّ صغير قبلَ خروجهِ من باب المسجد: "حتّى لو كنتَ نائمًا، هل هذا يجعلكَ تخرج من المسجد ولا تصلي؟"، قال له: "يا بنّي.. ليس على النائمِ صلاة"، وخرج من المسجد، ولم يعُد له أبدًا.

أغلبُ من في المسجد يومَها كان يضحكُ مذهولًا ممّا يرى ويسمع، لكن لا يمكنُ الاستهانة بأنَّ تسعةً -أو كما قيل سبعةَ عشر- قد آمنوا بهذا الذي سمعوا، وخرجوا على الناس وهُم نيام.

"جنون الأحلام"، أصبح من المصطلحات الجديدة التي تتردّد على ألسنة المختصين والإعلاميين، ولم يكن له من وجود قبَل هذا، والحقيقة أنه لم يعد هناك معنى لكلمة "مألوف"، فقد أصبح كلُّ شيءٍ عجيبًا ومدهشًا.. ظهرت أنواعٌ من الجنون لم يكن لأعتى عقولِ علماءِ النفس أن يتخيّلوها، وإن كان مِن الملاحَظ أنَّ أغلبَ من انخرطوا في دائرةِ "جنون الأحلام" لهُم سِمة تميّزُ أغلَبَهم، وهي كونَهم أفرادًا مكبوتين، أو عاجزين، عن تغيير واقِعِهم، فكان الحلُّ السهل في إقناعِهم لعقولِهم -أو ربّما إقناعُ عقولهم لهُم- بأنّهم نيام، كلُّ ما يحدث هو مجرّدُ حلم، ولا حقيقةَ لكلِّ مشاكلهم.. هكذا ببساطةٍ شديدة استطاعوا تجاوزَ هذا الواقع الأليم، وصَنعوا حلمًا مختلفًا يوافق رغباتهم وما كانوا يتمنّونه طويلًا.. كان هذا تحليلَ أغلبِ المختصين.. فشَيخُ المسجد لم يعد مضطرًّا لالتزام الزُّهد والاستقامة المرهِقة، لأنَّ هذا مجرّدُ حلم، وفي الأحلام كلُّ شيءٍ ممكن، فتمَّ ضبطُه مرّاتٍ عديدة وهو يشربُ الخمر في الطريق ويتعرّض بإشارات جنسيّة للنساء اللواتي يَراهنَّ. وسلوكُه الأكثر تكرارًا أنّه كان دائمَ السبِّ والشتم لكلِّ شيء، وإن كان أحيانًا يقفُ ليعِظَ الناس ويدلّهم على الطريق المستقيم، والاستقامة التي كان يدعو إليها، لا تكون إلّا بالتحرّر من كلِّ قيدٍ وقاعدة.. حتّى الجنون لم يستطع أن يمحو عنه

بلاغته القديمة! فكان لكلماته على عبثيَّتها أثرٌ في أغلب من يلقاهم.

لكنَّ البعضَ الآخر -وهم نادرون- كانوا يحاولون أن يستيقظوا عنوةً ويتخلّصوا من هذا الحلم الطويل الذي لا ينتهي، وهو ما حمَل أحدَهم على ضربِ زوجتِه بعنفٍ شديد وهو يقول لها لماذا تظلّين أنتِ زوجتي طوالَ الحلم أيّتها البدينة القبيحة؟ هل حظّي في الحلم تعيسٌ إلى هذا الحدّ ليمنحني أكثرَ نساءِ الكون دمامة؟ أُخرجي من حلمي أيّتها العاهرة، أو افعلي شيئًا يجعلني أستيقظ من حلمي فلا أجِدُكِ هناك بواقعي!.. رجلٌ آخر كان يحطّمُ كلَّ ما يقع تحت يدِه محاولًا إحداثَ أكبر قدر من الضجيج والجَلبة لعلّه يزعجُ نومَه فيستيقظ. يأملُ أنّه حين يصحو سيجد وجهًا أجملَ من وجهه هذا، حتّى أنّه أصاب نفسَه بجروحٍ كبيرة عندما أمسَك بموسى حلاقة ليتخلّص من شعرِه المجعّد، طالبًا من الفراغِ حولَه ومناشدًا إيّاهُ أن يُبدلَه بشعرٍ ناعم بدلًا من هذا، ومهدّدًا الفراغ بأنّه سيظلُّ يحطّمُ كلَّ شيء حتّى يستيقظ، إذا لم يَستجِب له ويعطِيه شعرًا أجملَ ووجهًا أكثر وسامة.

لم يكن ينافس "جنون الأحلام" من حيثُ كثرة المصابين به، إلّا "جنون الموتى السائرين"، فقد كثُر هذا النمط جدًّا، والعجيبُ أنَّ أغلبهم من الشباب ما بين العشرين والأربعين! فلماذا يتحوّلُ إنسانٌ في هذه السنّ الحيويّة الفعّالة إلى شخصٍ

يرى أنّه ميّت؟! فيتوقّف عن ممارسةِ كلّ نشاطاتِ الحياة؟ حتّى أنَّ كثيرًا منهم كانوا يوجدون موتى فعلًا في الأماكن المهجورة بعدما يكونون قد امتنعوا تمامًا عن الطعام والشراب، واللّطفاء منهم، كانوا يسيرون في الطريق يأكلون ويشربون، فحتّى الموتُ لا ينفي الجوعَ والعطش! لكن إذا كلّمهم أحدٌ في الطريق كانوا ينفجرون فيه ضحكًا أو غضبًا ويقولون أشياء من قبيل "أيّها المجنون ألا ترى أنّي ميت فلماذا تحدّثني أيها المغفل؟!".. لقد تخلَّصَوا من كلِّ مشاكِلِهم بالضربة القاضية، فهُم ببساطة، لم يعودوا هنا، ولا أحدَ يستطيع أن يُطالب الميّت بإصلاحِ ما فسد، أو بتغيير ما حدث.. كانت تلك هي طريقتهمُ المثلى في مواجهة واقعِهم، فقط على أحدهم أن يقرّر أنّهَ ميّت، فتنتهي كلُّ معاناته.

●●●

الجنونُ الذي أصاب شيخَ المسجد، وجعله يدعو الناس إلى فعل ما يشاءون لأنّهم نيام وكلُّ ما يرَونه محض أحلام فلا عقابَ لهم على أيّ شيءٍ يقترفونه لأنّه ليس على النائم حرج، لم يستطِع هذا الجنونُ أن يزيل عنه قوةَ منطقِه، فكان يتحدّث إلى الناس في الشوارع بذاتِ القوّة والإقناع التي كان يحدثّهم بها من فوق المنبر، وإن لم يعد أبدًا للمسجدِ الذي كان يخطب فيه، فقد منَعه رواد المسجد وإدارتُه من دخولِه.. فجعلَ منبرَه على المقاهي وفي الطرقات.. يسير ليلًا ونهارًا في دعوته التي لا يتوقَّف عنها إلّا عندما يسقطُ نائمًا، ذاك النوم الذي كان يسميه هو "صمتُ الحلم"، لأنَّ نومَه أبديٌّ وحلمَه دائم، لكنّه يصمتُ ويسقطُ سهوًا!

كانت النساء أكثر من يستمعُ إليه وتقعُ كلماتُه بأنفسِهنَّ، تصافحُ كلماتُه -حول الحلم الدائم- أحلامهنَّ التي لا تتحقّق أبدًا في الواقع، ففتح لهنَّ طاقةَ هواء بأنَّ الحلمَ هو الحقيقة، فلتَحلُمْ النساء ولتَخلِقْ كلُّ امرأةٍ حياتَها كيف تشاء، فلا شيءَ أسهل من حُلم.

لم يتسرَّب الجنون إليهنَّ وإن تمنّين هذا. أو بمعنى أدقّ لم يتسرّب إليهنَّ جميعًا، فقد أصابَ سهمُهُ بعضهنَّ، على استحياءٍ، في البداية. لكن حين ننظر فيما حدث مع هذا الرجل، نجدُ أنَّ النساءَ اللواتي آمنَّ بجنونِه، هنَّ من ذهبن إليه. لقد كانت كلُّ واحدةٍ تحتاج هذا الجنون وتبحث عنه، بل تنتظره من قبلِ

حدوثِ كلِّ هذا، فمن تحرّرنَ من عقولهنَّ كنَّ دائمات الأحلام ليلًا ونهارًا لكن لم تكن لديهنَّ الجسارة لاقتحامِ بحرِ الجنون الفوّار، والتعري أمام موجِه المفعَم بأحلامٍ تجعلُها الروحُ واقعًا وحياة.

الحبُّ كان أعظمَ باعثٍ للإيمان بالجنون، وأعتى عاصفةٍ أسقطَت أوراقَ العقل بلا حول ولا قوّة، فتعرّت الشجرة ووقفَت الجذوعُ أمامَ شمسِ العقلِ تتحدّاه عاريةً.. فما أكثر النساء اللواتي سحقَ الشغفُ قلوبهنَّ لرجلٍ لا يمكن الوصول إليه! فكانت الزوجاتُ التعيسات أكثر مُريدي شيخِ الأحلام. كلٌّ منهنَّ تعيشُ مع رجلٍ يسجنُ روحها وتتوقُ لرجلٍ بعيدٍ عنها تَراهُ الحياة، كزوجةِ "رئيس الحيّ" التي كانت في السابعة والأربعين من عمرها، ولا ينتبهُ زوجُها لزينتها، ويسخرُ منها حين تعرض عليه قصائدها الصغيرة عن الحب، ولا يداعبها يومًا أو يُشبع سريرَها، وغاية ما يحدّثُها به أن تزيد من الملح في الطعام، وألّا تزعجه بأخبار بناته الثلاث لأنَّ هذا دورُها، وعلى الدوام يذكّرها بأنّها كبرت وأنَّ التبرّج الذي تبالغ فيه يُظهر تجاعيدها الناشئة أكثرَ ممّا يخفيها، وأنَّ امرأةً بمثل عمرها عليها أن تهتمَّ ببناتها لا أن تنشغل بكتابة أشعارِها السخيفة.. لم يكن لها مُتنفَّسٌ في تلك الدائرة المغلقة إلّا حديثها كلَّ ليلةٍ مع شابٍّ لم يبلغ الثلاثين -تعرّفت إليه بأحد مواقع الشبكة العنكبوتيّة- فخلَق لها حياةً مهرولةً بمحاذاة حياتِها الكسيحة.. كان الوحيد الذي أحبَّ فيها أنّها امرأةٌ تكتبُ الشعر! وأخبَرها بعدما أرسلت له صورتها أنّها امرأةٌ لها وجهٌ يبارزُ وجه الجمال ويزيدُها التبرج فتنة.. حدّثها فأشبَعها، ألِفَته ثم

فُتنت به، أو فُتنت بمائدةِ كلماتِه أمامَ مائدةِ زوجِها الفقيرة من كلِّ الأطباق.. أعاد لها حقَّ الأحلام فحلمت به. حلمت بأنّها امرأةٌ وليست فقط زوجة لها بناتٌ ثلاث! كانت أحلامُها على رقّتها موجعة. كانت أحلامًا تُظهر بؤسَ واقعٍ تحياه. حتّى سمعَت بشيخٍ كان متحدّثًا باسم السماء من فوقِ المنابر ثم أخبَر الناس بأنّه ليس هناك حياةٌ وسط الحياة! إنّما هي أحلامٌ تصنَعُ الحياة. فتحايَلَت وانتظرَت وترصَّدَت.. حتّى صادَته من وسط الطريق وحملته لبيتها كمجنونٍ مسكين تقدّم له الطعام -والحقُّ أنّها هي من كانت جائعةً لطعامه- فاستمَعَت إليه. أخبَرها أنَّ الناسَ نيامٌ ولا يقظَةَ إلّا بالموت، وقال لها: "لسنا هنا، لكنّنا نحلم أنّنا هنا" وألقى بالغطاء الثقيل الذي يحمله على ظهره في كلِّ مكان وسألها: "في أيِّ فصلٍ نحن؟"، أجابت: "بردُ الشتاء"، فقال: "نعم. تحلمين أنّه بردُ الشتاء لكنّني أراه حرور الصيف!" ثم ألقى عنه ملابسه قطعة قطعة حتّى تعرّى جسدُه النحيف بالغ الطول، لا يغطيه شيءٌ إلّا شعيراتٌ حول ثدييه ولحيةٌ كثّة حول ذقنه وخدّيه، وقال: "أُنظري إلى حبّات العرق تنضَح من جسدي. لقد جعلتُ بردَ شتائكِ حارًّا" فمسحَت بيديها فوقَ صدره، فتبلَّلَت يدُها بحباتِ عرقِهِ المتكوّرةِ كبلوراتٍ دقيقة لتتسرّبَ في مسام كفّها ناقلةً الجنون إلى روحِها العطشى، فكانت في اليوم التالي إحدى المجانين.

لم تعد بحاجةٍ إلى دخول عالمها الافتراضي على الشبكة العنكبوتية، فقد نسَجَت شبكَتَها بيدها. أصبح الشابُّ المعشوق

رفيقَ حلمها الأبدي، تراه بجوارها وتتلو عليه أشعارها وهي متوسّدةٌ صدرَه، وفي فراشها يفعل كلَّ الأشياء التي أخبَرها زوجها أنّها مخزيةٌ ولا تليق بامرأةٍ محترَمة شارفت على السابعة والأربعين من عمرها، صار حلمُها كلَّ الواقع، وليس ثمّةَ سواه، حتّى أنها حاولت طرد زوجها من البيت لأنَّ حبيبها غيور وإذا رآه سيقتله، ولم يفهم الزوج أبدًا ما الذي يحدث لزوجته وعن أيِّ حبيبٍ تتحدّث! ولم يعلم بسرِّ لقائها بشيخِ الأحلام إذ كان على سفرٍ حينها.

تكاد عيونُها تغادر المآقي، وهي تبارزُه بنظرةِ تحدٍّ يكاد أن ينفجرَ من العيون، أخبَرته كيف يمسح عشيقُها على شعرها وهي تُسمعه أشعارها وكيف يعضُّ عنقها في صخب اللقاء حين يلتقيان في ليلة حب. سألها:

- منذ متى تعرفينه؟
- منذ كرهتكَ يا بغيض.
- هل عاشركِ؟
- نعم عاشرني فوق سريركَ.. حتّى فاض ماؤه من جلدي ومن بين خصلات شعري.
- كم مرّة فعَل؟
- سبعةٌ وأربعون عشقًا ولقاء، كنت أحصيها كلَّ مرّة بوردةٍ أضعُها في خزانة ملابسي بجوار قمصان نومي التي كان يحبُّ أن يراني بها!

كانت تتعمد إذلاله بكلماتها، تركها ودخل إلى خزانة ملابسها، فوجد أزهارًا ينام بعضُها فوقَ بعضٍ، أحصاها فإذا هي سبعةٌ وأربعون كما أخبَرَته، فجاء بسكينٍ كبير وطعنَها سبعةً وأربعينَ طعنةً بعدد أزهارِها، ولم يدرك حقيقةَ جنونها إلّا بعد موتها، عندما أخبرته ابنتهما الكبرى أنّها ذهبَت معها واشتَرت باقاتٍ كثيرة من الورد، وأنّها لم تكن تغادر البيت أبدًا أثناء سفره، ولا زارها زائر.. ولم يعرف أحدٌ أبدًا أنّها فقط كانت امرأةً تحلم! ولم يعرف أحدٌ بسرِّ شيخ المسجد الذي صادته ذات يوم إلى بيتها -في غياب كلِّ أهلِه- فغرسَ بها جنونه عندما رأته عاريًا يتعرّق في برد الشتاء.

❁❁❁

كانت أسرة ديميان كلّها راضيةً بما فعلَته الكنيسة، ومستسلمة له، فلا زالت زوجتُه تحافظ على زيارة الكنيسة صباح كلِّ أحد ومساء كلِّ جمعة، دون أن تحاول ولو لمرّةٍ واحدة أن تسأل أحدًا عن أحوال زوجها، أو أين ذهبوا به، واكتفَت بما أخبرها به أحدُ القساوسة بأنَّ الكنيسة ستتولى أمره وتخلّصه من قبضة الشيطان الذي سكن روحَه، فاستجابت بإيمانٍ وثقة لم يخالجهما شكٌّ بأنَّ زوجَها في المكان الذي يستحقّه، يتلقّى علاجه، أو حتّى عقابه.

ابنهُ الأكبر كان أكثر تعايشًا مع الأمر. لم يكن منزعجًا أنَّ أباه ادّعى أنّه المسيح فخرَقَ الإيمان ودنّس المذبح المقدَّس، فهو لم يكن يومًا مهتمًّا بفهمِ هذه الأمور، لا يقدّسُها ولا يدنّسُها، وليس لديه إيمانٌ عميق ولا شكوك مقلقة. هو فقط وجَد نفسه مسيحيًّا، فأصبح مسيحيًّا. كانت قضيّتُه الوحيدة أنَّ كثيرين يسألونه عمَّا حدث كيفَ حدث؟ ويستنطقونه أسرارَ أبيه الذي من المؤكَّد ألَّا أحد يعرفُها مثل ولده الأكبر.

لم يرَ في أبيه يومًا رجلًا خارقًا ولا نموذجًا لرجلٍ مؤمن. كان أبوه هو فقط أبوه، ذاك الرجل العادي، الأبيض، المائل للسمنة والقِصَر، الذي يعمل حارسًا لأحد مباني الجامعة، ويزور الكنيسة صباحَ الأحد ويرفض مصاحبَة زوجتِه في قدّاس مساءِ الجمعة، وينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا. وعندما يحتاج لمناداته فإنّه يناديه بكلمة "بابا" وفقط.

كاد ديميان أن يُنسى تمامًا لولا وجود ماري، ابنتهُ الصغرى، والوحيدة، التي كانت تهتم لأمره. كانت الدليلَ الوحيد على أنَّ ديميان هو شخصٌ مهمّ. لأنَّ أحدَهم يبكي طول الوقت حزنًا عليه، وتفرّغ لأجلِه ولأجل معرفة مصيره، وهي ماري، أو "ماري الوديعة" كما كان يناديها أبوها.

ماري كانت الأقرب دومًا لأبيها، الوحيدة المقرَّبَة منه حقيقةً، إذ لم تكن زوجته أو ابنه الأكبر مهتمَّين لحياته وأخباره أو الحديث معه، لا قبل جنونه، ولا بعده. ماري هي من كانت تجلس معه كلَّ مساء ليستمرَّا في حديثٍ طويل، تهتمُّ لشؤونه الخاصة والصغيرة مثل كيّ ملابسه الذي لم يعرفه إلّا عندما كبرت ماري، فلم تكن زوجتُه ترى أنَّ حارسًا بالجامعة يحتاج لملابس مفرودة بمكواة! لكنَّ ماري أصبحت تفعل. وكثيرًا ما كانت تستيقظ مبكّرًا لتعدَّ له فطوره قبل ذهابه للعمل، فزوجتُه لا تهتمّ إلّا بابنها الأكبر، وتشعرُ براحةٍ كبيرة لانشغال ماري بأبيها، وانشغالِه بها، فأراحَاهَا من همّهما معًا.

لم يكن أحدٌ يعلم أنَّ ديميان يعمل حامل حقائب لنزلاء الفندق في عطلته الأسبوعية يومَي الجمعة والسبت. وحدَها ماري كانت تعلم، ووحدها كانت تعلم أنّه يفعل هذا لأجلها.

لم تستطِع أن تثنيه عن هذا العمل الذي يَحرِمُه من أيام أجازاته القليلة، لم تكن تريد منعه لتدنّي طبيعة العمل، لكن لارتفاع فاتورةِ الجُهد على أبيها. وكانت ترفض ما يخصُّها به من

المال وتطلب منه أن تذهب تلك النقود القليلة لأمّها وأخيها، لعلَّهما يكفَّان عن النظر إليه كربِّ أسرة لا يَجلب الكثير من السعادة.

ماري وحدها من كانت تعلم بتفاصيل أحلامِه الغريبة، وحديثِه العجيب مع يسوع المسيح في رُؤاه، وكثيرًا ما كان يستعين بها لتفسّر له تلك الكلمات التي لم يسعفه ذكاؤه على فهمها، فتشرحها له وهي تضحك وتناديه بـ"أبتِ القدّيس"، فيؤكِّد عليها ألّا تقص رؤاه على والدتها، حتّى لا تسخر منه كعادتها، فتقول له: "لن أفضحَ سرَّك يا تلميذ يسوع الثالث عشر.".

لم تكن تأخذُ أحلامَ أبيها على محمل الجدّ، ولا تراها أكثر من كونها مجرّدَ أحلامٍ غريبة قد يراها أيُّ أحد، ولم تساوِرها المخاوف إلّا عندما بدأت طبائع ديميان تتغيَّر، أصبح أكثر عزوفًا عن الطعام والكلام، ولم يعد يجالِسُها في المساء، ويتغيّب كثيرًا عن المنزل، وكثيرًا ما صارت الأسرة كلّها تسمع صرخَته التي تشقُّ هدوء ليلِهم ويُطلِقها كلَّ ليلة في نومه. لم تكن ماري تؤمن كثيرًا بشفاءِ الصلوات وترانيم القساوسة، إذ كانت مسيحيّةً علمانيّة، لا ترى في الدين أكثر من قناعةٍ خاصّة بالفرد، ولا علاقةَ له بحياة الناس وأمراضِهم، فطلَبت من والدها أن يذهبا معًا لصديقٍ لها يعمل طبيبًا نفسيًّا، فرفض، فكانت تلتقي بصديقها الطبيب لتقصَّ عليه التغيّرات الطارئة على أبيها وتسترشد برأيه بين البكاء والعناق العطوف، لكنَّ أمّها كانت قد سمعت عن ذاك الرجل

الذي يستطيع معرفةَ أسرار السرير، فيَعرف أحلامَ من ينام عليه وما يدور برأسِه من أفكار، فكانت جنايتُها الكبرى في المرّةِ الوحيدة التي حاولت أن تمدَّ لزوجها يدَ العون! إذ حملَته إلى رسول، مفتاح أبواب الجنون التي لا تُغلق إن هو فتَحَها، وإلى الأبد، والذي قال له: "مبارك أنتَ في الأرض كما في السماء"، فخرج ديميان من عندِه إلهًا، يرفضُ أن يأكلَه عبيده، أو يشربوا دمَه.

بعدما تخرَّجت براءة من المعهد العالي للتمريض، التحقت بأحد المستشفيات النائية عن بلدتها لتعمل بها، لم يكن التحاقُها بالمشفى إجباريًا وفقًا لتوزيع الممرضات، بل بناءً على رغبتها بالعمل هناك، رغم نفور أغلب المتخرّجات من العمل في المشافي النائية، لما فيه من إرهاق وانخفاض الأجر.

عملُها بالتمريض لم يُنسِها هوايتها الوحيدة، الرسم. ولذلك كانت تحرص على المشاركة في أيّ معرض، وإن لم ينتبه أحدٌ لأعمالها، التي لم تلقَ استحسانًا، أو حدثَ ولو مرّةً أن وقف أحدٌ على لوحةٍ لها لأكثر من دقيقة، إلّا في المرَّة الوحيدة التي جاء فيها (رؤوف)، أستاذ العلوم السياسية الذي يحرص على زيارة تلك المعارض، لشغفهِ بالرسم. والحقيقة أنّه يفعل هذا ليجد ما يزجي به وقتَه بعد انتهاء عمله بالجامعة.

كان ممتلئًا يميل إلى القصر، يقف على مشارف الخمسين من عمره، ولم تكن له وسامةٌ جاذبة، وإن كان يحرص على مظهرِه كثيرًا. قضى أكثر من نصف ساعة يتنّقل بين لوحاتِها، وهي تتابعُه، وتترقّبُ مواقع نظرتِه على اللوحات.

بعد جولته سألها:

- أنتِ صاحبةُ اللوحات؟

- نعم

- رسومُكِ بديعة. لكن لماذا تحمل وجهًا واحدًا وإن تغيّرت تعبيراته؟!
- لا أعتبر نفسي رسّامة، أنا فقط أشعر بأشياءَ لا أستطيع التعبير عنها، فأرسُمها، فيخرج هذا الوجه في كلِّ مرّة!
- ملامحُه مميّزة وبالغة الحزن.
- نعم كان كذلك على الدوام.
- هل سأكون سخيفًا إذا سألتكِ عن سرّ صاحب الوجه؟
- هذا أبي.

شجّعها على ما تفعل بعدما تعارفا، وتطوّرت العلاقة بينهما، وتوطّدَت بغيرِ مبرّر، فهي لم تكن تعطي لأيِّ أحدٍ مساحة للتقرّب منها.. ربّما لأنّه الوحيد الذي لم يسخر منها وحدّثها بشيءٍ من التقدير لم تشعر به أبدًا من قبل.. تعدّدت لقاءاتُهما، حتّى أنّها أصبحت تمرّ عليه في الجامعة قبل محاضراتِه وتنتظره بمكتبِه لساعاتٍ حتّى ينتهي، ثم يصحبها كعادته لأحد المقاهي، وأحيانًا إلى بيتِه. رغم شعورها بالحبِّ الكبير نحوَه إلّا أنَّ هذا لم يغيّر من حياتها الكثير. كانت تذهبُ للمشفى أربعةَ أيامٍ بالأسبوع، تقضي اليوم في خدمة المرضى وتقديم الأدوية لهم، ولا تغادر المبنى الذي تعمل به طيلة اليوم، ولا تتحدّث إلى أحد إلّا في نطاق العمل. لم يكن لها أيُّ صداقات داخل المشفى -مع زميلاتها من العاملات- أو خارجه. متحفّظةٌ على الدوام، قليلةُ الكلام، أغلبُ من حولها ينفرون منها لغرابةِ طبعِها، تفعل هذا وهي تراه

الصوابَ الوحيد، فهي ابنة الرجل الحاسم الذي علّمها أنَّ المخالطة أمرٌ محظور، وأنَّ الأخلاق تعني تجنُّبَ الناس!

لم تكن تشعر بالتهتّك أبدًا -ولو للحظةٍ واحدة- بعدما يحدث ما كان يحدث كلَّ يوم، حين يأتي أحد العاملين بالمبنى ويقول لها: أريدكِ في أمر. ثمَّ يأخذُها إلى إحدى الغرف المغلقة، أو الحمامات القديمة المعطلة التي لا يدخلها أحد، فيرفع عنها ملابسَها وهي تنظر إليه، بلا كلمةٍ ولا ردّةِ فعل، فيفعل بها ما يشاء ثم يرحل، بعدها ترتدي ملابسها وتعقص شعرها، وتخرج. وقد تركَت ما حدَثَ حيثُ حدَث. تُسقطُه من ذاكرتها وتنساه، وتظلُّ على تحفّظها وقلّة كلامِها.

كان أغلب العاملين يعرفون هذا، ويتناقلونه سرًّا بينهم، فإذا شعر أيٌّ منهم برغبة، فما عليه إلّا أن يقترب منها ويهمس بأذنها: أريدكِ. فيحصل على ما أراد.

كلَّ يومٍ ينالها رجل. وكلَّ يومٍ تنسى ما حدث! وجهٌ واحد لا يغادر ذاكرتَها أبدًا، وجهُ أبيها. ذاك الصارم الذي لم يكن يقبلُ بخرقِ أيّ قاعدةٍ من قواعد الأخلاق! فتشعر بالفخر أنّها ابنة ذاك الرجل العظيم!

●●●

أصبحت ماري عازفةً عن الحديث مع أمّها وأخيها وترى أنّهما مشاركان في جريمة إخفاء والدِها، وكلَّما سألَت والدتَها عن مكان والدها أجابَتها بأنَّ الكنيسة مسؤولةٌ عن جميع رعاياها، وأنّها تعرف ما يصلِحُهم أكثر من معرفتِهم بأنفسهم.. وعندما تلّح عليها ماري كانت تُنهي الحديث بأنَّ كلَّ ما تعرفه أنَّ الكنيسة تولَّت أمرَه لتخلّصه من شياطينه، وتذكِّرُها بفضل الكنيسة التي جعلَت للأسرة راتبًا أفضل ممّا كان يدخله ديميان إلى الأسرة عندما كان بينهم، ثم تقول لها ماذا تريدين من الكنيسة أكثر من هذا؟ ليتهم يحتفظون به إلى الأبد!

يئست ماري من معرفة مكان أبيها عن طريق الأم. فقرَّرت أن تصل إليه بنفسها. حاولَت طرقَ بابِ الكنيسة مرّةً بعد مرّةٍ، لكنَّ القساوسة والرهبان كانوا أشدَّ صمتًا من أمّها.. تحت قوّة إصرارها، وبعد كثيرٍ من الإلحاح، أخبَرها أحد القساوسة أنّه فعلًا لا يعرف أين أبوها بالضبط، لكنه يعرف أنّه يتلقّى العلاج بأحد الأديرة، فقالت له هل جعلتُم من الأديرة محاكمَ تفتيش جديدة تحبِسون بها من لا يوافق هواكم؟ لو كان أبي مريضًا فمكانه بأحد المشافي وليس بالدير، ولو كان مجنونًا فمصحة عقليّة ستكون له أفضل من الدير! غضب القسيس لكلماتها لكنّه احتمل حزنها على والدها وقال لها أبوكِ مريضٌ بالروح وليس بالعقل أو الجسد، وفي الدير سينالُ خلاصَ روحه يا ماري، فكوني مؤمنة.

كان (يعقوب)، ذاك الشاب بالغ النحافة والطول، يراقب الموقف من بعيد ويعرف ما يدور، دومًا كانت ماري تحت مراقبته، يتلهّف لرؤيتها في المرات النادرة التي تزور فيها الكنيسة، فكانت كثرةُ تردّدها على الكنيسة بعد اختفاءِ والدها سببًا لسعادة قلبِه الذي لم يعرف سوى ماري منذ سنواتٍ في صمت.. في تلك المرات القليلة التي تحدّث فيها إليها -قبل جنونِ أبيها- لم يخبرها بشيء.. فقط أخبَرها أنَّ اسمه يعقوب، وأنّه نحّاتٌ تعلّم النحت بكلية الفنون الجميلة -التي تخرّج منها- لكنّه تفرّغَ للخدمة في الكنيسة والدير، ويفكّرُ في الرهبنة لكنّه لم يحسم قراره، فقالت له: "لا أستطيع أن أنصحكَ بهذا أو أصدُّكَ عنه، لكنّني لا أرى في الرهبنة شيئًا مميّزًا، فما قيمة انعزال الإنسان عن العالم وهو مخلوقٌ لأجله؟!"، ولم يمتنع يعقوب عن الرهبنة اقتناعًا بكلامها، إنّما أملًا في قدَرٍ مستحيل ربما يجمع بينهما إذا جعَلها تعرف أنّه يحبها، وأنَّ في بيته سبعةَ عشر تمثالًا نحَتهم كلّهم على صورتها.

لم تكن لديه الشجاعة ليخبرها عن هذا الحب، وتذهبُ عزيمتُه أدراج الرياح كلّما وقف أمام المرآة، فيقولُ لنفسه: "ما الذي يمكن أن يجعل ماري الجميلة تحبُّ رجلًا يكبرها بأكثر من خمس عشرة سنة، شديدُ النحافة، حتّى أنّه يبدو كعصًا تحمل ثوبًا فضفاضًا لإخافة العصافير، عيونه ضيّقة، أسنانه مضطربة، ينتصب أنفُه كصقرٍ كبير فوق وجهه في لوحةٍ بالغة القبح والتشوّه؟ وليس له من ميزة، سوى أنّه نحَتَ لها سبعةَ عشرَ تمثالًا لم تَرَ أيَّ واحدٍ منهم، ولا علمت به!".. فكان يكتفي

بأنَّ حظّه أن يراها فقط، وهذا بحدِّ ذاته كثيرٌ على رجلٍ بالغ النحافة، وله أنفٌ مثل أنفه!

ماري، بحسِّ امرأةٍ، كانت تعلم من نظراته إليها أنَّ قلب هذا الرجل معلّقٌ بها، فكانت تتجنّبه، وإن كانت تشفق على ارتعاشةِ صوتِه واضطرابِه في كلِّ مرّة تحدَّث فيها إليها.

وجدَت فيه طريقًا قد يدلّها على مكان أبيها. فهو خادمٌ بالكنيسة والدير ولا بدَّ أنّه قريب من القساوسة والرهبان، وقد يترامى إلى مسامعه شيءٌ من حديثهم يشي بمكانِ والدها، ولذلك تعمَّدَت أن تجلس بمكان يستطيع أن يراها فيه يعقوب وهي تبكي. وحدث ما أرادت له أن يحدُث. رآها. فتقدّمَ ببطءٍ ووقفَ أمامها مثل جذعِ شجرةٍ مقطوعة من رأسِها، وقال بصوتٍ خفيضٍ وواثقٍ: "أعرفُ أين أبوكِ.".

●●●

حاولتُ كثيرًا أن أصِل إلى الخلل الذي أدّى إلى انتشار هذا الأمر إلى تلك الدرجة الكارثيّة، وما مُسبباته الحقيقيّة.

هل يمكن القول بأنَّ توحُّدَ الناس مع أحلامهم وأفكارهم جديرٌ بخلقِ هذا البحرِ الأسود من الجنون؟! يبدو هذا الاحتمال قريبًا إذا وضعنا محلَّ التفكير واحدةً من أشهر الحيَل الدفاعيّة وهي: "أحلام اليقظة"، فالإنسان منذ سكن هذه الأرض وهو يمارس تلكَ الحيلة ليهربَ من واقِعه، فيحلمُ الضعيفُ بأنّه قويٌّ يقهَر أعداءه، وتحلمُ الدميمة بأنّها امرأةٌ فاتنةٌ تعشقها حتّى صخورُ الأرض. إذا كان الإنسان يفعلُ هذا في يقظته، ويستشعرُ اللذّةَ والألم، وترتاحُ نفسه ويتخفّف من إحباطِه بفِعل أحلامِهِ في اليقظة، فكيف لم ينتبه كلُّ علماءِ النفس إلى أنَّ هذا نوعٌ مِنَ الجنون، وليسَ مجرَّدَ حيلةٍ يمارسها كلُّ الأسوياء؟.. هل كنّا في حاجةٍ إلى أن نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم لاعتبار الأمر جنونًا مكتمِلًا؟ هل الفارقُ الوحيد أنَّ أحلامَ اليقظة تستمر دقائقَ أو ساعات، بينما ما نراه اليوم أصبح دائمًا وبلا انقطاع؟.. وإذا كانت "أحلامُ اليقظة"، حيلةً دفاعيّةً مقبولةً فيمَا سبَقَ، فلماذا نعتبرها اليوم جنونًا؟! وإذا كانت جنونًا فِعلًا، فلماذا رأيناها شيئًا طبيعيًا ومقبولًا بالأمس؟!

إنّنا مجانينُ على الدوام. والفرقُ الوحيد يتمثّل في قدرتِنا على رؤية هذا الجنون جليًّا أو خفيًّا، فإنَّ الناسَ تمارس الأفعال المختلّة طوال الوقت.. كثيرًا ما كنتُ أتعجب عند قراءةِ حادثة في الجريدة، عن مجموعةٍ من الشباب تحرّشوا بممثّلةٍ قامت بدورٍ شرير فقتَلَت إحدى الطيبات في "مسلسلٍ ما" واستطاعَت أن تنجحَ في تحقيق كراهيّة الجمهور لدورها، فلمّا قابلها الناس في الواقع لم يفصلوا أبدًا بين دورها المزيف في مسلسل وحقيقَةِ حياتها، وحاسبوها على ذلك بالسُّباب بل والضربِ أحيانًا! حتّى أنَّ بعضَ الممثلين كان يطلب حمايةً حين خروجه من المسرح حتّى لا يعاقِبَه الجمهور على دوره الشرير! أليس هذا جنونًا مكتمِل الأركان؟ أليس المجتمعُ مجنونًا على الدوام حين يفعل هذا؟ أو حين يتقاتل جمهورُ فريقِ كرة، مع جمهورِ فريقٍ آخر، لأنَّه خسرَ مباراة؟ وينسى كِلا الجمهوران أنّهما جالسان على المقاعد نفسها، وأنَّ من يمارس المكسب والخسارة هم اثنان وعشرونَ لاعبًا يتسامرون على المقاهي سويًّا في المساء!

أشعرُ بالحيرة أمام تلك الحالات التي يكتظُّ بها (المارستان).. هل أُعاملُهُم كمجانينَ فعلًا يحتاجون للعلاج؟ أم أحاول أن أفكّرَ على طريقتهم كما نصحني الدكتور ناصف؟

كثيرًا ما أردتُ أن أعرض هذا على مدير المشفى لكن أخشى أن يشكَّ بقوايَ العقليّة، فلم يعد هناك أيُّ أحدٍ يمكن استبعادُه عن دائرةِ الجنون.

آلمني اليوم رؤيةُ تلكَ المرأة المصابة بـ"الغلمة"، أو ما نسمّيه بـ"الهوس الجنسي"، وهي تحاول أن تمارس العادة السريّة فتفشل. هل كان صوابًا أن نقوم باستئصال "بَظَرِها" حتّى نُجبرها على التوقّف عن ذلك؟ رغم أنَّ "الغلمة" خطِرة الأثر، وقد تؤدّي لموتها.. لكن هل أصبَحَت مجنونةً فقط لأنّها تمارسُ العادة السريّة ليلًا ونهارًا؟ بينما من تمارسُها مرّةً أو مرتين فقط في اليوم، تُعدُّ سوِيّةً نفسيًّا وتُشبِعُ فقط حاجتَها؟! ألَا يمكن اعتبار هذه المرأة ذاتَ حاجةٍ أكبرَ، وأكثرَ استمراريةً، من الأخريات؟.. مرّةً أخرى أجدُ نفسي وجهًا لوجه أمام ذاك السؤال الذي لا إجابةَ له: هل القضيّة في الفِعل ذاته؟ أم في استمرارِه؟

"أحلامُ اليقظة -المؤقّتة-" حيلةٌ مقبولة، بينما استمرارُها جنونٌ! هوسُ الجمهور "بالعنف" أمرٌ مفهوم لأنّه حَدثٌ نادر، بينما استمرارُه هو الجنون!

كيف أصلُ إلى حلِّ هذه المعضلة التي لا مخرج منها: الفِعلُ هو الجنون؟ أم ديمومَتُهُ؟

انتهى.

يعقوب كان هناك في ذلك الصباح الذي اقتحَم فيه ديميان المذبح المقدَّس، وبعثرَ القربان حتّى لا يأكلَ أحدٌ لحمَه، أو يذوق دمَه.

تتبّعَ يعقوب كلَّ خطوةٍ تقوم بها الكنيسة مع ديميان، وعرف مِنَ الراهب الذي يقوم على خدمتِه أخبارَه، وإلى أين أخذوه، ولذلك جعل خدمَته في هذا الدير، وانتظرَ. لعلَّ العصفورةَ الصغيرة تأتي للبحث عن أبيها، فيكون هو اليد الطيّبة التي تشير لها على موضع العُشّ! وعندما رآها تبكي، نزل عليها مثل "الروح القُدُس" الذي يبّثُ اليقين في قلبِ المؤمنين عندما يضربهم اليأس وتهتزُّ ستائرُ إيمانِهم تحت عاصفةِ الشكوك. قال لها: أعرف أين أبوكِ، فنهضَت ومدَّت يدَها وسحبَت كفَّه النائمة بجواره، وضمَّت عليها بكلتا يديها وهي تبتسم. لم تكن بسمةَ امتنان. بل وعد. لكنّه وعدُ من لا يفي أبدًا.

سألَته:

- كيف أصل إليه؟
- لن تصِلي إليه، لا أحد يمكنه أن يصل إليه.
- لكن أنتَ ستساعدني على معرفة مكانه، وماذا حلَّ به. أليس كذلك؟
- بل سأخرجه لكِ.
- كيف يمكن أن تفعل هذا إن كان الأمر بهذه الصعوبة؟
- سأفعلُ لأجلِكِ أيَّ شيء، وكلَّ شيء. فقط إذا ظلَّت هذه البسمة على وجهِكِ وأنتِ تنظرين لي.

- ...
- سأنتظركِ الليلة في بيتي لأُخبركِ بما سيحدث!!
- ألا يمكن أن نلتقي خارج بيتكَ؟
- بل في بيتي ولا مكانَ سواه.
- لكن!!
- في بيتي يا ماري.

لم تُخبر ماري أمَّها أو أخاها بشأن ما توصّلت إليه مع يعقوب، إذ كانت تراهما في الطرف الآخر، حتّى الطبيب الذي تحبُّه لم تخبره، هي لم تكن تستطيع أن تخبره، فقد كانت تعلم أنَّ ما يحدث هو صفقةٌ غيرُ نبيلة، فيعقوب يفعل هذا لا لشفقةٍ على والدها، لكن ليسترضِيَها ويتقرّب منها، ليصلَ إليها. وتعلمُ أنّه لن يدلّها على مكانِ أبيها إلّا إن حقّقَت له هذا الرجاء، كما أنّها تعرفُ أنَّ إصراره على زيارتها لبيته لم يكن لمناقشة الأمر كما قال، بل لدفعِ ثمن الصفقة، ولذا لم يكن من الممكن أن تخبر حبيبها بأنّها ذاهبةٌ للتضحيةِ بشيءٍ ما يخصُّه وحده! كانت مبادئُها تقفُ على حافة الاختيار الأليم، لا أحدَ سواها سيحترق إن هي تراجعَت، ولا شيءَ سيبقى لها من نفسها إن هي تقدَّمت.

تؤمنُ أنَّ للحبِّ قداسَتهُ، لكنّها الليلة مضطرّةٌ لإيهام أحدِهم أنّها يمكن أن تحبَّه. عليها أن تقوم بالفعلِ الأكثر خسّة في كلِّ قبائح البشر وخزاياهم: ستَعِدُ أحدَهم بالحب، لتحصلَ على شيءٍ ما، ثم ترحل.

في الموعد المحدَّد، كانت أمامَ باب يعقوب. أدخَلَها دون أن يتبادلا كلمةً واحدة. جلَسَت على أقرب مقعد صادفها. ووقف يعقوب ينظر إليها. ها هي أمامَه، تلك التي راقبها سنواتٍ طويلة منذ رآها أوّل مرّة. لم تكن أجمل بنات الكنيسة، لكنّه رآها الأجمل، سبعُ سنوات وهو يراقب بصمت، ولم يتخلّف عن الكنيسة يومًا واحدًا حتّى لا يُعطي للقدر أيَّ ثغرةٍ يمكنُهُ أن ينفُذَ منها فيلعَبَ لعبتَه الساخرة فتحضُر في غيبتِه.. والآن ها هي ببيته، على أحدِ مقاعده جالسةٌ مستعدّة لفعل أيِّ شيء يطلُبه.. كان يعرف هذا جيّدًا منذ سحبَت يدَه ووضعتها بين كفيها.

أعدَّ فنجانين من القهوة بالحليب ووضعهما أمامها، فسألَته:

- هل تشرب القهوة بالحليب في أيام الصوم؟
- نعم.
- خادمُ الكنيسة لا يصوم؟!
- لا أصومُ منذ سنوات!

أمسكَت بالفنجان، وأخذَت رشفةً، ثم قالت: "ولا أنا".

كانت متلهّفةً لتعرف أيَّ شيءٍ عن أبيها. لكنّها تعلم أنَّ عليها أن تقدّم شيئًا بالمقابل، ولا شيءَ أرخص من الكلام. فعادت وسألَته:

- هل تعيش هنا بمفردك؟
- نعم.

- وأين أسرتكَ؟
- لا أعرف عنهم أيَّ شيءٍ منذ سبعِ سنوات، ولا هُم يعرفِون عني شيئًا.
- هل ثمة مشكلة بينكم؟
- لا شيء. فقط أنتِ.
- وما علاقتي بأسرتكَ؟
- إذا ذهبتُ إليهم قد تذهبين أنتِ إلى الكنيسة، فلا أراكِ.
- أنا أعرف ما بداخلكَ. كنتُ أشعر به كلّما نظرتَ لي.. لكن كيف تحبُّ فتاةً لا يجمعكَ بها أيُّ شيء، وتوقفُ حياتكَ عليها؟ الأمر لا يستحقُّ كلَّ هذا العناء!
- كما تحبُّ نفسُ الفتاة رجلًا على غير ديانتها وتراهُ قدَرها! القدرُ ذاته قد يجعل خادمَ الكنيسة يعشق فتاةً إيمانُها محلُّ شكّ!
- لا أعرف ماذا تقصد بكلماتك الغامضة تلك، لكنَّ خادم الكنيسة من المفترض أنَّ إيمانه يعصمه عن مثل هذا.
- منذ عرفتُكِ توقّفتُ عن الإيمان، لا يحقُّ لأحدٍ مشاركتكِ قلبي، ولا حتّى إله! هذه إهانةٌ للعشق.. ذاك العشق الذي لا تعرفينه أنتِ، لكنكِ تتوهّمينَهُ مع صديقكِ الطبيب النفسي.

ارتعدَت واضطربَت عندما خرجَت الكلمات من فمه كطلقاتٍ تعرف هدفها، ولأوّلِ مرّة تشعُر بالرعب منه..

- وكيف عرفتَ بأمر صديقي؟ وما الذي يجعلكَ تجزِم بأنّي لا أحبّه أو أحبّه؟!!
- أنا أعرف عنكِ كلَّ شيء. أنتِ لا تحبّينه. بدليلِ أنّكِ الآن في بيتي.
- أنا هنا لأجلِ أبي، ولأنكَ طلبتَ هذا واشترطتَه.
- ولهذا أنتِ لا تحبّينه. لأنكِ كنتِ قابلةً للمساومة. تعرفين أنّي أحبّكِ ومع هذا حاربتِ تردّدكِ بضراوة وجئتِ دون أن تخبريه.. عرفتُ هذا من عينيكِ وأنتِ أمام بابي.. أنتِ تحتالين على الحب يا ماري.
- جئتُ لأنّي أحبُّ أبي وأريد إنقاذه!
- لا شيءَ يستحقُّ إهانةَ العشق حتّى لو كان حياةَ الآباء، وأنا الدليلُ أمامكِ. عشقتكِ فتركتُ كلَّ شيء. مات أبي وأمي وهما يتوسّلان لي أن أذهبَ إليهما ليَرَياني قبل موتهما واحدًا إثر واحد، فلم أفعل، لأنَّ موتهما أيسرُ كثيرًا من حضوركِ إلى الكنيسة في صباح يومٍ أو مساءَه، وأنا لستُ هناك.
- أخشى أن يكون كلُّ من في الدير مثلكَ، هذا يعني أنَّ أبي في خطر وسط مجانين.
- هو فعلًا في خطر. يعذّبونه ليلًا ونهارًا، وأنا أساعدُهم في هذا. لكنّهم ليسوا مثلي، فهُم يفعلون هذا بالكراهية

التي في قلوبهم له، وأنا أعذّبه بالحب الذي في قلبي لكِ. أعذّبه لأنَّه أبوكِ الذي كان سببًا في وجودكِ يا سرَّ شقائي، وأعذّبه لأنّه يقول أنّه يسوع المسيح، فصدّقتُ ما يقول وقمتُ بتعذيبه لأنّه خلقَني بالغ النحافة والطول.. وخلق لي أنفًا كريهًا لا يمكن أن تحبّي رجلًا يحمل مثله.

- أنتم سفلة مجانين. كيفَ تكونونَ رعاةَ خراف الربّ؟! بل أنتم ذئابُها.
- الربُّ نفسُه كان أضحيةً. فعلى كلِّ الخراف أن تقبل دَورَ الأضاحي.
- إذًا أنتَ كذبتَ عليّ، ولن تساعدني في إخراجه من الدير، أليس كذلك؟

نظر لها وعلى وجهِهِ بسمةُ تشَفٍّ، وأسندَ رأسَه لظهرِ الكرسيّ، ولم يردَّ على سؤالها. فجمعَت حقيبَتها وبصقَت قبل أن تحاول الخروج. فسمعَت صوتَه وهي ممسكةٌ بمقبض الباب، قائلًا: "سأقتله إن رحلتِ.".

ارتعشَت يدُها فوق المقبض وتباعدت أصابعها عنه ملسوعةً بالكلمات.. سقطت الحقيبة من يدها.. واتجهَت نحوَه دون أن تنظر لوجهِه، وركعَت، ثم سجدت واضعةً رأسَها فوق قدميه تبلّلهما بالدموع الغزار وهي تقول لا تفعل. وسأفعلُ كلَّ ما تريد.. قال لا أريدُ سوى أن تنظري لي كما كنتِ تنظرين لصديقكِ

الطبيب، وتبتسمي ذات البسمة. ولن أطالبكِ أن تعانقيني مثلما فعلتِ معه. فقط ابتسمي لي.

قامت بين يديه مستجمعةً كلَّ ما في روحِها من قوّةٍ وفزَعٍ، لتسحبَ ابتسامةً ميّتةً من أعمقِ نقطةٍ في بئرِ الحزنِ والمخاوف، فانفرجَت شفتاها كأنّهما بوابةُ مقبرةٍ مفعمةٍ برياحِ الموتِ وظُلمته. مدَّ يعقوب أصابعه وأغلق الشفتين: "هذه النظرة، وتلك البسمة، ليستا بحبّ، ولا حتّى تشبهان الحبّ. غدًا عند الفجر انتظريني عندَ أوَّل الطريق المؤدّي لدير الملائكة، وسأُحضر لكِ أباكِ. اُخرجي الآن.".

●●●

أصبحَ شيخُ الأحلام مفعمًا بالغضب، وهو يدعو الجموع إلى الحقيقة التي يغفلون عنها. يريد أن يوقظهم لينتبهوا إلى حقيقةِ الأحلام! الأحلام التي هي كلُّ شيء -أو هي كلُّ ما هنالك- وليس ثمَّةَ شيءٌ سِواها. لكن حتّى الذين آمنوا به، حتّى أولئك الذين صاروا مجانينَ مُكتمِلين، ومستوفين لأركان الجنون وشروطه، وآمنوا بأنَّ كلَّ شيءٍ حلمٌ كبير، حتّى هؤلاء لم يفعلوا شيئًا أكثر ممّا كانوا يفعلونه قبل الجنون.

بعدَ حديثه مع العاملين في أحد المحاجر الذين رغم عملهم الشاق وأجورِهم الزهيدة كانوا راضين بالأجر ولا يتذمّرون من الظلمِ الواقعِ عليهم، أخبَرهم عن الوهم الذي يحيَونه، وأنَّ عليهم فقط أن يحلموا بشيءٍ غير الذي هم عليه وسيصبحون كما حلموا، فتنتهي عذاباتُهم، ويتلاشى بؤسهم، أصبحوا ينظرون إليه كنبيٍّ أَرسلَته السماء، فتحلّقوا حوله وعلى وجوهِهم المرهَقة بسمةٌ تولد وتختفي كشعاعِ ضوءٍ تحجِبه يدُ الغيم ثم يعود للظهور، يهزّون رؤوسَهم في إعجابٍ عميق، لذلك الذي جاءهم بالخلاص الذي كانوا يحسبونه بعيدَ المنال، فجاءهم من أيسرِ طريق وأسهله، فما عليهم إلّا أن يحلموا. لكنّهم، عجزوا، حتّى عن الحلم!

لمّا مرَّ بهم في اليوم التالي، وجدهم على حالهم، فسألهم:

- هل لازلتم تكذّبونني ولا تصدّقون أنّكم نيامٌ تحلمون؟

- كلّا بل أدرَكنا صدق قولك..
- فلماذا لازلتم على حالكم الشاق الأليم؟
- مادُمنا نحلم فلا مشقَّة! فليست كلُّ هذه الآلام سوى وهم.. وهذه النقود القليلة التي نأخُذها تستوي مع النقود الكثيرة، لأنّه ليس شيئًا حقيقيًّا. فلماذا نترك حلمًا نعرفه إلى حلمٍ نجهله؟ وقد جعلتَنَا نحبُّ ما كنّا نبغضه ونرضى بما كنّا نأباه، فأصبحَ الشقاءُ محتملًا، والمتاعبُ هينة!

لم يختلف كثيرًا حالُ عمّال النظافة في الطرقات، والجنود المعدَمين الذين ينظّمون المرور، والعتّالين بأعمالِ البناء، عن حالِ عمّال المحجر.

أغلبُ الذين آمنوا بجنون شيخ الأحلام لم يتغيّر حالهم في شيءٍ، وغايةُ الأمر أنّهم أصبحوا أكثر رضًى بما هم عليه، أصبحوا فقط مجانينَ أكثرَ طاعةً، وأقلَّ ضجرًا، واعتراضًا. أراد لهم أن يحلموا أنّهم يمتلكون زمام أمرِهم فعجزوا عن ذلك الحلم. فقط ألبسوا الشقاءَ ثوبَ الراحة، وحلموا بأنَّ التعاسةَ أمرٌ سعيد! صاروا يحلمون أنَّ عملهم غيرُ شاق، وأنَّ أجرهم يكفي وزيادة! يتحدّثون عن الحلم، والأوهام، وهم يقومون بأعمالِهم على الوجهِ الأكمل! فلم ينزعج أصحابُ الأعمال من جنونهم، بل أنَّ بعضهم كان يطلب من شيخ الأحلام، أن يحاولَ إقناعَ كلِّ العاملين، بجنونِه النافع، وهذيانِه عظيمِ الفائدة!

النساءُ فقط، كانت لديهنَّ القدرة على تصديق الحلم، ووأدِ الواقع البغيض. كان أكثر أتباعه النساء. منَحهُنَّ الحلم، فتلقَّفَتهُ أرواحُهنَّ وجَعَلته حياة.

كثرت حكايات الفتيات اللواتي اتّبعنَ الشيخ الحالم، وجُنَّت واحدةٌ إثر أخرى. كارهِةُ أبيها، حلمت أنّه ليسَ أباها، فتركَت فتاةٌ في السادسة عشر من عمرها بيتها، واتَّخَذت أبًا كان يحنُّ عليها. بائعُ المثلجات الجوال الذي كان يبتسم لها كلّما اشترت منه، ويخبرها أنّها فتاةٌ جميلة تشبه ابنته الوحيدة التي تزوجت وهي في مثل عمرها ورحلت مع زوجها إلى بلادٍ بعيدة، فكانت تقف على عربته التي يدفعُها بيده تستمع إلى حكاياته عن ابنتهِ الغائبة، فيذكّرُها حديثُه عن ابنته كم أنَّ أباها ضابطُ الجيش الكبير رجلٌ قاسٍ، ذاك الذي عانت معه في الواقعِ قبل أن تعتنق الأحلام، شغلَتهُ رتبتُه العسكرية عنها فلم يهدِهدها مرّةً في صغرها ولا حكى لها حكايةً واحدة، ولا اصطحبها معه في جولةٍ خارج البيت، فحلُمَت بالرجلِ العطوفِ الفقيرِ أبًا. فصارَ أباها. تدفع معه عربته بعدما شاركها جنونها فأصبح يناديها ابنته، وتدعوه أبتِ، وابتعدَا عن البلدة كلّها حتّى لا يطاردهما ذلك العسكريّ الذي يزعُم -في الواقعِ- أنّه أبوها! ومن أحبَّت رجلًا، خَلَقته في بيتِها أو تركَت بيتَها وذهبَت إليه مستسلمةً له تمنحه الحبَّ والجسدَ والجنون، فصار بعض الآباء يخضعون لجنون بناتهم، فيزوّجُونَهُنَّ بمن يحلمن به، بلا قيدٍ ولا شرط، والبعض صار يحبس ابنته فلا ترى النور خارج غرفتها، ثم اجتمعوا على

الشيخ قبل أن ينفوه خارج البلدة، وأوسعوه ضربًا، وعندما قال الشيخ لأحد الآباء الذي أمسك بسوطٍ وأخذ يجلده:

- لماذا تضرب رجلًا يحلم؟
- ألستَ تقول أنّنا كلنا نيام نحلم؟ أنا لا أضربكَ، لكنّكَ تحلم أنّي أضربك!

❁❁❁

خرجَت ماري من بيت يعقوب وهي محمّلةٌ بوعدٍ من رجل بعثَ في نفسها الرعب والأمل. لم تكن مستعدّةً للعودة إلى المنزل ومواجهة أمّها وأخيها اللذان سيمطرانها بالأسئلة عن سببِ تأخّرها، ولا بدَّ أنَّ القلق البادي على وجهها سيفضح أمرها ولن تقوى على إخفائه، كما أنّها لن تستطيع الالتجاء إلى حبيبها الطبيب إذ كانت تشعر في قرارة نفسها أنَّها وجَّهَت له خيانةً، حتّى لو كانت صغيرةً، ومبرَّرَة.

حملتها قدماها إلى الفندق الذي كان يعمل به أبوها ووحدَها كانت تعلم بسرّه، معها نقودٌ تكفي لليلتين فقط، ولم تكن بحاجةٍ لأكثر من هذا، إذ أنَّ موعدها مع يعقوب في فجر الغد. وقَفَت أمام موظّف الاستعلامات بالفندق تُملي عليه اسمَها لحجز غرفة لِلَيلتين، وعندما نطقَت اسمها كاملًا التفتَ إليها رجلٌ -كان يقف بجوارها ويتحدَّث إلى موظف الاستعلامات قبل قدومها- وقال لها: "أنتِ ابنة ديميان المجنون؟".

شعرَت بالخوف لوقعِ كلماتِه أكثر من شعورها بالإهانة، وأربَكها أنَّ الرجل نطق الكلمة وهو مبتسمٌ مطمئن، فلم تستطِع استنكار كلماته أو ردّ إهانته. كأنّها تقف في الظلام ولا تعرف من أين تأتيها الضربة. فكان عليها أن تتحسّس موضعَ الكلمات قبل أن تنطِقَ بها. فسألَته: "من أنت؟".

أدركَ انزعاجَها المتوتّر، فلم تختفِ ابتسامتُه وهو يقول لها: "أنا صديقه، وأنا من توسّط له ليعمل بهذا الفندق قبل أن يصبح إلهًا.".

تحوَّلَت ابتسامتهُ لضحكةٍ عالية. فتحوَّل وجهُها لحمرةِ الغضب وهي تردُّ على سخريته:

- أنت إذًا لبيب الجشِع الذي كان يقتطع خُمس راتبه الضئيل مقابل وساطةٍ لا تستحق؟

- نعم أنا لبيب. لكن ليس "الجشِع". إلّا إذا كان هذا رأي ديميان، فهو إله، ولا بدَّ أنَّه يعرف ما يقول!

ثم أشار لموظّف الاستعلامات أن يردَّ لها نقودها، فاستجابَ له على الفور. لكنَّ ماري أبدَت اعتراضها:

- لا يحقُّ لكَ أن تمنعني من حجز غرفة بالفندق! من أنتَ لتمنعني؟

- أوّلًا. هذا يحقُّ لي. ربما لأنّي صاحبُ الفندق وهذا ما لم يعرفه أبوكِ أبدًا. ثانيًا، أنا لا أمنعكِ من الإقامة بالفندق بل أستضيفكِ على حسابي لتعرفي أنّي لست جشِعًا. تكلفة الليلتين تساوي كلَّ ما حصلتُ عليه من أبيكِ، فأنا لم أكن بحاجةٍ إلى خُمس راتبه لكنّه كان بحاجةٍ لأن يعترض، وهو لم يفعل.

جلسَا معًا في بهو الفندق، وطلب لها شيئًا تشربه، ثم سألها بصوتٍ هادئٍ -كأنّه صديقٌ مخلص- عن حالِ أبيها وما أصابه. كانت خائفةً، يحرّضها عقلُها على الصمت مع هذا الرجل الوقح الذي أصبحَ طيّبًا في المسافةِ بين مكتب الاستعلامات وبهو الفندق، لكنَّ روحَها كانت مثقلةً، تشعر أنّها وحيدةٌ تمامًا في مواجهة الموج الهادر وتحتاج إلى أيِّ أحدٍ بجوارها، حتّى لو كان ذاك الرجل الذي نعتَها بـ"ابنة ديميان المجنون".. فأخبَرَته بأنّه موجودٌ بأحد الأديرة، فقال لها:

- تقصدين حبيسًا.

- نعم. هو كذلك.

- وماذا يمكن أن نفعل لنخرجه؟

- تلك قضيّتي أنا!

- أنا لا أعرف ماذا تعني كلمة "صديق"، لكن بشكلٍ ما يمكن أن تقولي أنّي كنت صديقًا لأبيكِ، قدّمَ لي خدمات وهو يعمل بالجامعة كما قدّمتُ له خدمةً بإلحاقه بالعمل في فندقي هذا، حتّى لو كان مقابل اقتطاع خمس راتبه، وقد اقتطعته منه ليقول (لا)، ولو قالها لضاعفتُ راتبَه، لكنّه لم يفعل.

- مادمتَ صاحب الفندق فأخبِرني، ماذا صنعَ رسولٌ هذا بأبي؟

- كلُّ ما أعرفه أنَّ ديميان جاء مع والدتكِ لينام ليلةً بالفندق حتّى يستمع رسول إلى سريره.. لا أدري ماذا قال له رسول.. لكنّه خرَجَ من هنا إلهًا.
- رسول هو سرُّ كلّ هذا البلاء إذًا!
- لا ذنب له، هم من طلبوا منه ذلك! ولم يذهب هو إليهم، ولا أدري لماذا جاءت الشرطة وألقَت القبض عليه؟! تلكَ الدولةُ عاهرةٌ بشكلٍ كامل! يسمحون للمنجّمين بنشرِ هذيانهم عن حظوظ الأبراج في الجرائد كلَّ صباح، ويدفعون لهم في المقابل، ثم جاءوا أبناء الزانية ليقبضوا على عاملي الذي قال فقط أنَّه يسمع سريرًا. بربكِ أيّهما أكثر جنونًا؟ سماعُ سريرٍ أم سماعُ نجومٍ في السماء؟!
- كان يجب أن يلقوه للكلاب لا أن يقبضوا عليه فقط، ألم يكن سببًا فيما حدث لأبي؟!
- قلتُ لكِ رسول ليس سببًا في أيّ شيء، أعرف أنَّ الأمر يبدو جنونًا، لكنّه لم يكن مجنونًا، شيءٌ ما يجعلني أصدِّقه، لا أصدّقُ ما يقول، لكنّي أعرف أنّه غير كاذب! المهم، دعيني أساعدكِ، فأنتِ أكثر شجاعة من أبيكِ وسأقدّم لكِ كلَّ ما أستطيع.

أخَبَرته بأمرِ يعقوب، وعندما سمع ما فعلَه معها، قال لها: "كيف يزعمون أنَّ الجنونَ جائحةٌ طارئةٌ إذا كان كلُّ هؤلاء التعساء المجانين بيننا على الدوام؟ جديرٌ بهم أن يصنعوا تمثالًا لرسول

الذي أخبَرهم حقيقَتهم، لا أن يُدخلوه المارستان.. سأكون معكِ غدًا عند الفجر.. لن أتركِ بمفردكِ.".

قالها ثم نهض واقفًا ومسح على رأسها: "أُطلبي ما شئتِ، وسأوصي لكِ بعشاء. اصعدي لغرفتكِ حين يطلبك النوم وسأمرُّ عليكِ في الصباح. ولا تنسَي، لا أحدَ يعرف أنّي صاحب هذا الفندق!".

●●●

ذهبت براءة كعادتها إلى الجامعة، لتزورَ رؤوف. دومًا ما تلفتُ نظرَها تلكَ الفتاةُ البائسة، التي تجلسُ بهدوءٍ أمام مكتبِه. سألَته عن أمرِها، وسرِّ جلوسها الدائم أمام مكتبِه دون غيرِه، فأخبرَها أنّها عاملةُ النظافة المكلَّفة برعاية المكاتب، فقالت له:

- هذه البنت تحبّكَ.
- لا أعتقد هذا! إنّها أبسط من ذلك كثيرًا، هي أقرب للبلهاء، تنظر لي دومًا بطريقةٍ غريبة!
- بل مسكينة، ربما تحتاجُ فقط أن تبتسم لها.
- تقريبًا أنا الوحيد الذي يقوم بهذا بالفعل، لكن لِمَ اهتمامكِ بأمرها؟
- لا أدري. لكنّي حين أراها وهي متكوّمةٌ أمام مكتبكَ، أشعر بوخزٍ في قلبي.. لا أدري لماذا لا تردُّ تحيّتي حين ألقيها عليها..
- هي لا تتكلّم إلّا نادرًا جدًّا. لا تكترثي كثيرًا لأمرها، فالتعساء، أكثر من يسكن هذا العالم.

لم يفهم رؤوف أبدًا أنَّ سماع كانت تذكّرها بروحِها المنكسرة، وذاك البؤسُ على وجهها كان مرآةً، تعكسُ أمام عينيها كلَّ ما مرَّت به، لذلك لم تغضب براءة من سماع حين لطَّخت لها وجهَها بالغائط وأنشبت بها أظافرها. ورغم فزعِها ممَّا حدث حين كادت سماع أن تكسر عنق رؤوف وهي تمسكُ برأسه كلبؤةٍ

تمسكُ رأسَ ظبي، إلّا أنّها أقسمت عليه ألّا يرفع الأمر للشرطة، وحاولت أن تحمِله على الوساطة عند إدارة الجامعة كَي لا يفصلونها عن العمل! لكنّه لم يفعل. فغضبَت منه، وتركَته بعدما قالت له أعرفُ أنّكَ لن تفعل، قلت لكَ أنّها مسكينةٌ، تطلب فقط أن يبتسم لها أحد، لا فرق بينكم، جميعكم تقهرون المسكينَ ثم تقذفون به في العرَاء وأنتم تضحكون!

كانت كلماتها حادّةً وقاسية. لأوّلِ مرّةٍ تحدّثهُ بمثل هذا الغضب، فقد كان عهدُها منذ عرفَته ألّا تفعل إلّا كلَّ ما يرضيه، تخضعُ له، وتلبّي كلَّ ما يطلب، ولا تطمح لأكثر من وجودها بجانبه، فتتبتَّل في عشقه والإخلاص له! رغم أنّه لم يكن يرى بها أكثر من عشيقةٍ جيّدة تخفّفُ عنه ضغوطَ حياته فهي لا تسأله عن شيءٍ، ولا تطالبه بشيء.

رغم أنّها لا تمتلك أيَّ مهاراتٍ في إرضاء ذكورةِ رجل، إلّا أنَّ تذلّلها وخضوعَها العجيب معه، جعلانه يتعلّقُ بها، فقد اعتادَ على نفور النساء منه وعدم اكتراثِهنَّ له، حتّى جاءت براءة، فأشعَرته أنّه مركزُ العالم حتّى تكشّفت أمامه، الحقيقة، التي حطَّمت ثقتَه بنفسه مرّةً أخرى! حين قادَهُ قَدَره العاثر للقاءِ صديقٍ قديم، يعمل بالمشفى الذي تعمل به براءة. سأله عنها، فقصَّ عليه، حقيقتَها، التي يعرفها الجميع، وأخبرَه أنّه شخصيًّا عاشرها لأكثر من مرَّة. وعندما قال له لكنّها بِكرٌ لم تزل! قال له صديقه: "أعرف أنّها بكر، هي لم تكن تمنح الجميع أكثر من مؤخرتها!".

عندما واجهَها رؤوف بما عرف عنها، لم تَسِل منها دمعةٌ واحدة، ولا أنكرَت ما رمَاها به، فقط قالت له لم أكن أرغبُ بأحد. ولم أكن أعرفُ، كيف يمكنُ أن أقول (لا) لأحد.

لم تخُبره يومًا بما حدث في طفولتها، ولم تتحدَّث عن أبيها المنكسِرِ، إلّا بوصفهِ الرجلَ الأعظم، فلم يُسعفه عذرٌ يخدّرُ به روحَه المحترقة.. فحتّى تلك الفتاة التي لا تحسن تبادل القُبَل، خانَته!.. تجدَّد الجحيمُ القديم في نفسه مُشعِلًا ذكرياتَ خيانةِ زوجتِهِ له.. اهتزَّت روحُه بقسوة.. وشعر بأنَّ الفراغ من حوله يبتلعه.. وكَرِه ذاته التي لم تحمل امرأةً على الإخلاص له، ولا حتّى تلك الغريبة التي لا تحسن شيئًا غير رسم وجه أبيها.

امتنع عن الذهاب للجامعة شهورًا. تجنّب العالم. ولاذَ بالصمت. حتّى أمسكَ الصمتُ بلجامِ روحِه، وقادَه نحو الجنونِ بيسرٍ، فسقطَ في بحرِه الذي يطال موجُه كلَّ ما يلقاه. هام على وجهه في الطرقاتِ، يتكوّم في زواياها، ورأسُه بين ركبتيه، لا يشعر بكلِّ ما حوله، حتّى التقَطَته إحدى سيارات الشرطة وألقت به في غياهب المارستان الذي أصبح المأوى الأقرب للجميع!

●●●

كانت لديَّ رغبةٌ كبيرة في متابعة حالة رسول، لعلّي أجدُ الإجابة عن كثير من التساؤلات التي قد تساعدني على فَهم ما يحدث، فأنا غير مقتنع بالطريقة التي تتّبعها المصحات العقلية للتعامل مع الأمر، فهُم يتعاملون مع كلّ مريض بشكلٍ فردي، وبوصفه مجرَّدَ مريضٍ عقلي.. إنَّ هذا الذي تفعله المصحّات جنونٌ بحدّ ذاته، فنحن لا نتعامل مع مرضى، بل مع مرض. ولم يعد علينا فَهمُ المجانين، بل الجنون ذاته.

هذه الأعداد الجبّارة التي ضرَبها الجنون جميعًا في وقتٍ واحد لا يتجاوز بضعة أشهر، ليسوا منفصلين، هناك ولا شكّ عاملٌ مشترك ألقى بهم جميعًا إلى الجنون، وهذا ما لم يهتمَّ به أحد.

إنّهم يتعاملون معه مثل وباءٍ ألقى حِمله ثم ذهَب، وكلُّ ما يفعلونه هو معالجةُ من أصابهم الوباء وفحصُ من لم يُصبه الدّور. دون الالتفات إلى الوباء ذاته.. ذاك الجنون غير المعدي وغير المتحرّك، ساكنٌ في مكانه، وضحاياه هم من يذهبون إليه بمحض إرادتهم.

بدأ الأمل يراودني في الوصول إلى إجابةِ السؤال الكبير عندما كُلّفت بمتابعة رسول، ذاك الرجل الذي حمّلَته الدولة

مسؤوليةَ كلِّ شيء حتّى أصبح بطل الأحاديث على شاشات التلفزة والجرائد، فقط لأنَّه كان المجنون الأوّل من وجهة نظرهم! وحتّى إدارة المارستان لم تَسلم من هذا التعامل الساذج!

أدهشني أن يقف الأطباء والممرّضون لاستقبال رسول وكأنّهم يشاهدون الجنون لأوّل مرّة بحياتهم! كمجموعةٍ من الصبية الحمقى، حتّى كدتُ أظنُّ أنّهم سيلتقطون حجارةً من على الأرض ويقذفونه بها!

هذا الحادث نفسه إشارةٌ هامّة، فكيف يقع المختصّون بمثل هذه الحماقة؟ وكيف يتسرّب الخوفُ إلى نفوسهم من مجنونٍ يعالجون مئاتٍ مثله، ويتعاملون مع حالاتٍ أكثر غرابة وأشدّ دهشة كلَّ يوم؟ فلماذا كان لرسول هذا الأثر عليهم؟!

إنّها "عدوى الإيحاء".

تلك هي العدوى الوحيدة الحقيقيّة هنا، وليس الجنون. لقد تكلَّم الجميع عن رسول، ونُصِبَت له محاكمةٌ شغلَت الرأي العام بأكمله، وانتدبَت المحكمة ووزارة الصحة مختصّينَ كبارًا على رأسهم الدكتور ناصف، الأكثر شهرةً وعلمًا، وقرّر الأستاذُ الكبير **أنّه مجنونٌ اتخذ قرارَه ونجح**.. هذا التوصيف الذي أعتقدُ أنّي سأقفُ أمامه كثيرًا كمفتاحٍ آخر.. فعندما حكمَت المحكمة بجنون رسول، أصبح للجنون حصانةٌ، واعترافٌ بالوجود لأوّل مرّة. كلُّ المجانين الذين وقفوا أمام القضاة من قبل وحكَم القاضي بمرضِهم، كان الحُكم بمثابةِ تبرئةٍ لشخوصِهم، واتهامٍ

للجنون، أمّا هذا الحُكم، فقد كان اعترافًا بحقِّ الجنون في الوجود. لقد منحَت المحكمة دون أن تدري إشارةَ التحرّك للبحر، فغطّى موجُ الجنون يابسةَ العقل وأَغرَقها، ومعه صَكٌّ بحُكم محكمة يقضي بأنَّ أحدهم يمكنه أن يقرر الجنونَ ببساطةٍ وعلى الجميع أن يقبل بقراره، فهرولَت آلافُ العقول إلى ذلك البحر لتغتسل من المنطق وتتحرّر من القواعد.. فانتشر الجنون بهذا الشكل الرهيب.. وإذا استمر الوضعُ على نفس وتيرته تلك فستتحوّل الدولة كلّها إلى مارستانٍ كبير قبل مرور عامين أو ثلاثة على الأكثر، فكلُّ مجنونٍ يثير الإعجاب في نفوس الكثيرين مِن حوله، ويوحي اليهم -دون أن يشعروا- أنَّ الجنون ممكنٌ وأنَّ الأمرَ متاح، كبقعةِ ضوءٍ تجذب إليها كلَّ هَوام الظلام ويقصِدها الذبابُ الضّال في وسط العتمة.

رسول هو أكبرُ دليل على غواية الجنون الذي يريحُ صاحبه.. في المّرات القليلة التّي تحدَّثتُ فيها معه، لم أجد فيه مجنونًا بالمعنى المألوف، فهو يدركُ ذاتَه ومَن حوله، يتكلّم بمنطق، ويدرك ما يفعل وما يقول.. حتّى أنّني أرى أنَّ يقينه بالقدرة على الاستماع إلى الأسرّة نوعٌ من (**الحِيَل**)، لجأَ إليها ليتخلّص من آلامه التي سبَّبَتها له عدم القدرة على إثبات شيءٍ يعتقدُه بقوّة ولا يجدُ الدليل عليه! فوفقًا لقصّته التي حكاها بنفسه وأصبح المجتمع كلّه يحفظها، أنَّه رجلٌ اعتقد أنَّ زوجته خانته وظلَّ يعيش معها لمدة عشر سنوات دون أن يستطيع إثبات هذا اليقين، ثم ماتت، ومرَّت سنواتٌ أخرى ولازال اعتقادُه

يسحقه بأنَّه تمّت خيانته، لكن بعد موتها أصبحَت كلُّ محاولات الإثبات مستحيلة.. احتملَ العيش عشر سنوات معها فقط لأجل إثبات هذا، وتعرَّض في كلّ هذه السنوات لضغوطٍ وآلامٍ لا تحتمل.. إنَّ هذا بحدِّ ذاته يُعدُّ قدرةً كبيرة على السَّواء والاتزان النفسي، وقدرةً جبّارة على مقاومة الانهيار، وقدرةً مذهلةً على ضبط السلوك.. لكنَّ هذا كلَّه سقط سريعًا بعد موتها، إذ أنَّ إمكانيّةَ إثباتِ جريمتِها -بالعقل الواعي والدليل العملي- أصبحَت مستحيلة. وهنا انهارَت قوّته على الثبات وتهاوَت قدرتُه على احتمال الشكِّ الذي يحرقه منذ سنوات، فلجأ إلى تلك الحيلة بإدخالِ عنصر ثالث بينه وبين زوجته المّيتة، يمكنُه أن يفصِل في الأمر.. وليس أفضل من سريرها ليقوم بهذه المهمة! وهذا هو الموجود في تقرير الدكتور ناصف، الذي أكَّدَ أنَّ رسول ظلَّ يعاني من حلمٍ واحد لفترةٍ طويلة يرى فيه أنَّ السرير يحدّثه ويقنعه أنَّه الشاهدُ الوحيد على الخيانة. لقد أَوجدَ "عقلُه الباطن" هذا الحلَّ العبقري ليريحَه من آلامه، لكنَّ "عقلَه الواعي" لم يكن ليقبلَ بشهادةِ سريرٍ في "حلم"، كإثباتٍ قَطعي لشكِّه.. ولذلك لم يأتِ في تقرير الأستاذ الكبير أنَّ رسول رأى في حلمه السريرَ يُخبره بالخيانة بشكلٍ صريح، إنّما فقط كان يدعوه للثقة به.. لقد كان "اللاوعي" لديه ذكيًّا ومنظّمًا، فلم يقدّم الدليل في النوم، لأنَّ هذا سيجعل الأمر كلَّه موضِع شكّ، ودَعَم هذا الاختيار بكثيرٍ من "الأحلام" التي تدعوه للذهاب إلى السرير، وفي اللحظة التي وصل إليه، اتحد الوعي واللاوعي وزال الحجاب الحاجز بينهما، فتولَّدَت

تلك "الضلالات" التي جعَلَته يسمع من السرير ما هو يقينٌ في نفسه منذ سنوات بعيدة! فنطقَ السريرُ بما يريد رسول أن يسمَعه، فترسَّخَ ذلكَ في يقينه ولم يعد لأكبر قوّة أن تسلبه ذلك الدليل.. لقد قرَّرَ أن يكون مجنونًا ونجح. ومنَحَه الجنونُ الراحةَ التي كان يبحث عنها طيلة سنوات، ولم يعد ممكنًا أن يتنازل عن هذا الجنون لأيِّ أحد لأنّه يعلم أنَّ هذا سيعود به إلى المربَّع الأوّل مرّةً أخرى.. وعندما أصبح الناس يذهبون إليه ويطلبون منه أن يستمع إلى سرير من يريدون كشفَ ستره، فعلَ هذا ليثبتَ لنفسه أنَّ ضلالاته واقعٌ وحقيقة. كما أنَّ الناس الذين يطلبون هذا منه كانوا مستعدّين تمامًا لتلقّي أحكامٍ تُثبت شكوكَهم، فليس شيئًا أصعب من الأحكام العادلة والصحيحة، وليس شيئًا أكثر راحةً من اتّباعِ الظنون والأوهام! فوجد كلٌّ منهم ما يبحث عنه عند الآخر.

إذا افترضتُ صحّة ما وصلتُ إليه، فلا زال هناك ألفُ بابٍ مغلق، ولا مفتاح له!

لماذا انتشر الأمر بهذا الشكل المفزع؟ ولماذا لم يكن الجنون على نفس النمط، وإنّما ظهرَت عشراتٌ من أنواع الجنون الغريبة؟ المجانين الحالمون، والمجانين الموتى، ومجانين متألّهون، ومجانين قتلة.. من أين جاء كلُّ هذا وفي الوقت ذاته؟!

أتمنّى أن ألتقي بالدكتور ناصف. أعتقد أنَّ لديه كثيرًا من الأجوبة.. لست أعرف لماذا اِعتزل العمل منذ سنوات بعيدة،

كيف لمثلِه أن يعتزل العمل وقد كنّا نسمع عن عبقريته منذ كنّا طلبة بالجامعة؟ ولماذا قَبِلَ الانتداب لتقرير حالة رسول فقط؟ ولماذا عاد للعزلة مرّةً اخرى؟.. أتمنّى أن يَصدُقَ مدير المصحة في وعده، ويصلني به في أقرب فرصة كما قال.

انتهى.

قضى يعقوب ليلتَهُ بالغرفة الكبيرة، المزدحمة، بسبعةَ عشر تمثالًا منحوتًا جميعُها يحمل وجهَ ماري وهي تبتسم. أحضر إزميلًا، وتحسَّس بيده وجوهَ التماثيل وهو يقول: "لماذا تبتسمُ هذه الوجوه إذا كانت ماري لا تبتسم لي؟ هذه الوجوهُ كاذبةٌ، فماري لا تبتسم!"، ثم أمسك بالإزميل والمطرقة الصغيرة وحطَّم شفاهَ التماثيل جميعًا، فصارت كلُّها وجوهًا منزوعة الشفاه. لكنَّ عيونها لازالت تحملُ نظرةً وادِعةً حتّى بعد نزع الشفاه، وماري لم تكن كذلك. كانت خائفةً فقط. فقال للعيون التي تحيط به: "لماذا تخاف ماري من يعقوب المسكين؟ كيف تخافُ عيونُ امرأةٍ من رجلٍ يعشق؟! لا تنظري لي بخوفٍ يا ماري فهذه النظرة تُلقي الظلامَ داخلَ روحي، وتزرعُ الشوكَ بقلبي المتألمِ على الدوام. لا تنظري لي يا ماري الفاسقة. لستِ طيبةً. أغمضي عينيكِ الكاذبتين!"، وضربَ عيونَ التماثيل كلّها بإزميله، فصارت وجوهًا ممسوحةً. لا تحملُ عيونًا ولا شفاه. ثم قال لها: "الآن يمكنكِ أن تسيري وسط الجحيم عمياءَ خرساء يا ماري".

انتظرَ أن تمنحَه الحبَّ كما سيمنحُها حريةَ أبيها، وفَّى بوعدهِ لها، لكنّها لم توفِّ بأحلامِه فيها.

ذهب إلى الدير في اليوم التالي لينجز ما وعدها به. عندما نزل الليل فسربلَ أركانَ الدير، ذهب إلى المجنون المتألِّه، وفتحَ الغرفة المحبوس فيها ديميان والتي طلب منه الراهب الكبير أن

يدخلها فقط ليقدِّم إليه الطعام. كان ديميان على وضعه الدائم، نائمًا فاردًا ذراعيه كهيئةِ المصلوب. فتقدّم يعقوب نحوه حتّى وقَفَ فوقه -محيطًا جسدَه بقدميه كأنّما يمتطي حصانًا- يتأملُ وجهَه بصمتٍ.

لم يكن ثمّةَ ضوءٌ بالغرفة إلّا ذاك المنبعث من الشمعة الصغيرة التي يمسكها يعقوب فتنشرُ أشعةً يتراقص ضوؤها في المسافة بين الوجهين. فإذا سقط الضوءُ على وجه ديميان النائم لم يَظهَر منه إلّا التماعةُ عينيه المفتوحتين، وحين يرتدُّ الضوءُ لوجه يعقوب يبدو أنفُه الضخم صانعًا ظلًّا على خدّيه. وجهُ النائمِ مسالمٌ، ووجهُ القائمِ مفعمٌ بالحزن. فيصنعُ الضوءُ الخافت جسرًا بين الحزن والسلام. ويربطُ بينهما كما هو منذُ الأبد.

قرَّب يعقوب الشمعة من ديميان، يبحث عن ملامح ماري في وجه أبيها، لكنَّ الضوء يتآمر ضدَّ أمنيته البائسَة. خالف الضوءُ طبيعتَه! فصار يخفي الملامحَ أكثر ممّا يُبديها. ضَوءٌ مظلم! تسرَّبت العتمةُ من قلبِ يعقوب التَعِس إلى ضوءِ الشمعة فأظلَمَتهُ. لا شيءَ يظهر من وجه ديميان إلّا العينان، بنظرتهما الذاهلة نحو السقف. ليست عينَا الابنة فقط من تتجاهلانه! ها هي عينَا الوالدِ أيضًا لا تنظران إليه. جلس على بطنِ الوالد، وقرَّب الشمعةَ أكثر لعلّ الضوءَ يمدُّ يدًا من شعاعٍ فينبشَ ذاك الوجه ويُخرِجَ ملامح ابنته. صارت الشمعةُ فوق وجه ديميان

تمامًا، دُهنُها يسيل فيتقاطرُ على خدّيه وأنفِه، لكنّه كصنمٍ لا تصنع فيه لسعةُ الشمعِ حياة. ويعقوبُ، التعيس، لا يرى. مقدورٌ عليه ألّا يرى وجهًا يحبّه!

ناداه: "قم يا ديميان. اِنهض أيها الربّ، فقد وعدتُها أن أحملكَ إليها. قم أيها المصلوبُ الحيّ، أيها الظالم الجبّار يا من جئتَ للعالم بسرِّ تعاستي، ومنَحَتني نُطفَتُكَ عذابَ الأبديّة. هكذا يصنع إلهُ السلام! فكيف يصنع إلهُ القسوة؟! قم لأسلمكَ لها، كما أسلم (يهوذا) الخائنُ (يسوع) لأعدائه كي يصلبوه، ها أنا ذا أسلمكَ لابنتكَ كي تنجيك. لو كان يهوذا يكره المسيح فلماذا شنق نفسه فوق الشجرة؟ أنا يهوذا المسكين الذي لم يَفهم العالمُ سرَّه أبدًا! كان قدرُه أن يُسلم محبوبه ليدِ أعدائه بيدِه، وها أنا أسلمك إلى ابنتكَ كي يطمئنَّ قلبها ثم تَذهبَ لحبيبها فتبتسم له، وأرحلُ أنا! فمن الخائن يا ديميان هنا؟ أنا أم ابنتكَ الفاسقة؟ يهوذا لم يكن خائنًا يومًا.. قم يا ديميان أنا يهوذا الدميم.. انهض يا أبا الفاسقة التي أحرقَت روحي في الجحيم. قم يا يسوع، سيحملكَ يهوذا فوق ظهره ويسلمكَ من جديد.".

لم تعرف ماري إلى أين ستأخذ أباها، فإن عادت به إلى المنزل فإنَّ أمّها لن تنتظر أن يأتي رجال الكنيسة لأخذه بل ستسلمه إليهم بنفسها. فهي غير مستعدةٍ للتنازل عن الراتب الذي فرضَته لها الكنيسة، فضلًا عن أنّها ستكون مضطرةً لرعايةِ مجنونٍ عاجز -لم ترعَه وهو صحيحٌ يدرُّ مالًا- فكيف سترعاه وهو عالةٌ لا مال له ولا عقل؟

عندما استشارَت لبيب في حيرتها قال لها أنا مستعدٌّ لإيوائه بالفندق. لكنَّ الناس صراصيرٌ تزحف تحت أعقابِ الأبواب، وستدركُ سرّه، وينكشف أمرُه ولا شكّ!

لم تجِد ماري بُدًّا من الرجوع لحبيبها لتستعين به، وكان لديه المَخرج لأزمتها، أخبَرها أنّهُ سيأخذه إلى المارستان، كمجنونٍ متشرّد، فلديه سُلطة طبيب تمكّنه من قبول أيّ أحد بالمارستان.

كان هذا هو الحل الأكثر رحمة، سيَلقى العلاج بالمكان المناسب، كما سيكون بعيدًا عن يدِ رجال الكنيسة، والأهمُّ أنّه سيكون تحت عينِ رجلٍ يحبّها.

عند الفجر، جاء يعقوب في الموعد، حاملًا فوق ظهره إلهًا صامتًا. اصطحَبَت ماري لبيبَ في ذاك اللقاء، الذي لم يستمرَّ سوى دقائقَ، ودون كلمةٍ واحدة من يعقوب. ألقاه بين يديها، ونظر في عينيها بصمتٍ، ثم ولّاهُما ظهرَه ورحل، فأسلمت ماري أباها إلى الطبيب ليُدخله إلى المارستان.

●●●

حكايَتهم وفقًا لروايةِ الرّجلِ الحكيم الذي لم يكُن يحبُه أحد.

تعرّفتُ إلى ديميان منذ سنواتٍ بعيدة، ولا أعرف كيف استطاع هذا الضعيفُ المستكين، أن يصنعَ كلَّ هذه الضوضاء؟ لا يمكن أن يكون قد امتلكَ قدراتٍ خارقة غابت عني، فهو لم يكن يومًا له رأي، ولم يجرؤ حتّى على مناقشتي عندما قرّرتُ اقتطاعَ خُمس راتبهِ، ولم يطلب ولو لمرّةٍ واحدة أن يحتفظ بهِ كاملًا! ولا سألني عن سرِّ سطوتي على مدير الفندق ولا أَخبرَ المدير بأنّي أقتطعُ خُمس راتِبِه فقد سألتُ المدير أكثر من مرّة هل فاتحكَ ديميان في هذا؟ ودومًا كان جوابُه بالنفي.. أحيانًا كنت أتمنى أن يخيب ظني ويكون قد فعل هذا وقرّرَ أن يثور عليّ، رغمَ أنّي ما كنت سأسمحُ لهُ بهذا، لكنّني تمنيت أن يفعل على سبيل التغيير في سلوكه.. هؤلاء الناس لا يفهمون مشكلتهم أبدًا. إنّهم يقبلون الجميع مِن حولهم، ويتفهّمون قهرَهم لهم.. لكنّهم لا يتقبّلون أنفسَهم، ولا يتفهّمون حقّها في التنفس، أو حتّى مجرّد التفكير في التنفس!.. لكنَّ ابنَ العاهرةِ هذا فَعلها أخيرًا وبطريقةٍ حتّى أنا لا أجرؤ عليها! فقد شطح وقفز من الدائرة كلِّها وأَعلنَ أنّه إله. كيف فاتني هذا الأمر ولم أسبِقه إليه؟!.. أذكرُ مرّةً أني سألت ديميان هل يغضبكَ أنّي أقتطع من راتبك في الفندق

مقابل وساطتي؟ أجابني بأنّه حقّي لأنّني صاحب الفضل في تمكينه من العمل بالفندق، وأكّد أنَّ ما يتبقّى من الراتب يكفيه، وعندما قلتُ له: "لكنَّك حتّى لو أردتَ الاعتراض فإنّكَ لا تجرؤ على فعله"، ابتسمَ ولم يجب بنصفِ كلمة! فضربتهُ على كتِفِه وقلت له: "ألم أقل لك أنَّكَ جبانٌ، لا تستطيعُ مجابهةَ الشرير"، قال لا. لستَ شريرًا، فهذا حقّكَ وأنتَ لا تقصدُ إيذائي. قلتُ: "بل أقصد"، فعاد لبسمتِهِ البلهاء دونَ ردٍّ.. وعندما أمرتُه بالتجسّسِ على سماع أثناء عملها بالجامعة، ونقلِ أخبارها لي، لم يستشعر الحرجَ في جعلي له عينًا وجاسوسًا، ولم يرَ أنّي أطلبُ منه ما لا يحقُّ لي. فقط قال حاضر. سأنقل لك كلَّ أخبارها، وظلَّ ثلاث سنوات ينقل لي أخبارَها بكلِّ دقّة، كأنّه تركَ عمله وتفرَّغَ لمراقبتِها، رغم أنّي لم أمنَحه أيَّ مقابل سوى التوسط له للعمل بالفندق، والذي لم يكن بالمجّان. لكن وللحقّ، طاعَتُه كانت دومًا مُحتقِنة. وعيناه كانتا غائمتين على الدوام. كأنَّه وضعَ حاجزًا فوقَ عينِه ليحجب التماعَةَ الغضب عن كلِّ من حوله.

كنتُ أعرف سرَّ تلك النظرة المحايدة، البليدة، وأعرف أنَّ تحتَ رمادِها، كثيرٌ من الجمر، الذي لا يصلُه الهواء.

كثيرًا ما كنت آمرُ مديرَ الفندق بأن يُثقل عليه في العمل ولا يزيد في راتبه مقابلَ الجهد المبذول! كنت أريدُ أن أثبت لنفسي أنّه أجبنُ من أن يثور حتّى وإن غَضِب! فيتأكدُّ لي أنَّ ما أفعله به وبهم هو الصواب.. هؤلاء نعاجٌ تُساق حيثما وجَّهَتَهُمُ العصا.. مرّةً

سألتُه: "لماذا لا تأكل ولا تشرب في نهارِ رمضان، رغم شِدّة الحر وطول النهار، وأنت مسيحي، وهذا صومُ المسلمين لا صومكم؟"، لم يقنعني قوله بأنّه يحافظ على مشاعرِ المسلمينَ الصائمين من حوله، لأنّي كنتُ أعرف أنه فقط لا يريد أن يُذكِّرَهم، بأكله وشربه، أنّه مسيحي على غير ديانتهم! يشعرُ أنَّ مسيحيتَه وسط المسلمين عورةٌ يجب أن تُستر! لا أدري.. لعلَّ قَبوله بهذا لأنّه يعبد إلهًا قتله أعداؤه، ولأنّه تربّى على أنَّ الصفعة لا تردّ، وحتّى لو تمنّى هذا في نفسه فإنّه لم يستطع أن يفعلها أبدًا. ولما قرّر أن يفعل، تألَّهَ، وصفَعَ كنيسته! فأصبحَ ابنُ المحظوظةِ هذا أشهرَ رجلٍ في البلد كلِّه. ربما لو كان إلهُنا نحن أيضًا يؤكل ويُشرب دمُه، لقلبتُ قربانهم وأعلنتُ نفسي إلهًا! لكن أنا لا أحتاج للتألّه لأني لم أشعُر يومًا أنّي عبدٌ لأحد! أفعلُ كلَّ ما يخطر لي، فما حاجتي إلى هذا الخَرَف.. لازلتُ أفضلَ منكَ يا ديميان، ولو كانت ألُوهيّتُكَ تمنحُكَ راتبًا، فسأقتطع منه الخُمس!

●●●

وجد "شيخ الأحلام" نفسَه منفيًّا في حلمه، منبوذًا من أناسٍ أراد أن يُهديهم طريقًا يغيّرُ بؤسَ الحياة، فألقوا به خارج عالمهم، ليجدَ حلمه وحيدًا منفيًّا في الخلاء! يطرده كلُّ حيٍّ يقترب من حدوده بعدما سمع الجميع بما فعله بعقول النساء. قبلوه بينهم، على جنونِه، ولفظوه، عندما قال للنساء: أُحلُمن. وعقيدةُ كلِّ الرجال أنَّ المرأةَ إذا حلمت فسَدَت. فلم يجد له من مأوى إلّا القبور. وبين شواهدِ بيوتِ الأموات التقى بجموعٍ أخرى من المجانين، كلّهم هجروا مدنهم إلى المقابر، حيث عالمُهم الذي اختاره لهم الجنون. إنّهم "الموتى السائرون". ومن بينِ مجانينِ الموت لم يجد رفيقًا، فكلّما اقتربَ من أحدهم ليحدِّثَه عن الحلم، حدّثَه هو عن الموت.

الحلمُ في مواجهةِ الموت، وجهًا لوجه.

لم يستمع إليه من الموتى إلّا رجلٌ كان قبل جنونه يساريًّا يدعو للثورة على النظام، لكنَّ الجماهير التي كان يخطب فيها في الندوات والجامعات لا تستجيب لدعوته بالثورة. فلما أصابَه "جنونُ الموت"، انتقلَ مِن خذلانِ مَن لا يستجيبون له، إلى الحياة بين مقابرِ الأموات الراقدين في القبور، فقد كان الموتى السائرون يرَون بعينِ جنونهم أنّهم أدنى مرتبةً من هؤلاء الراقدين، وأنَّ موعد رُقادهم لم يأتِ ليكتملَ الموتُ الجليل.

تحدَّثَ اليساريُّ الميت إلى الشيخ الحالم ليقنعه بموته، والشيخُ يسعى لإفهامه أنّه نائمٌ يحلم بالموت!

سأله اليساري:

- لماذا أنت هنا الآن بين المقابر رغم أنّك لم تحلم بهذا ولا أردَته؟!
- لأنّي أعيش حلمي وسط أحلام النيام من حولي، ولا يمكن تحقيق الحلم إلّا بمساحةٍ تسمح بها أحلام الآخرين، فحتّى الأحلام لا يمكن أن تحيا وحيدة! ولا بدَّ أن يتشاركها الجميع.. ولأنّهم لم يفهموا حقيقة الحلم ولم يصدّقوا أنّهم نيام، حسبوني مجنونًا، فلفظوني كبصقةٍ على وجه المقابر.
- لفظوك لأنّهم ليسوا مثلك ولا أنت مثلهم، فلماذا تعتب عليهم؟ ولماذا أنت غاضبٌ إذا كان حقًّا كلُّ هذا حلمًا؟ إذا كانوا نيامًا يحلمون فقد حلموا بأنَّك مجنون، وأخرجوك من حلمهم العاقل!
- غضبتُ لأني أردتُ لهم أن يتخلّصوا من بؤسهم ويعيشوا حلمًا كريمًا. فلم يقبلوني.
- أنت تقاتل لأجلِ قضية خاسرة.
- القضايا الخاسرة وحدها تستحقُّ النضال. ووحدها تمنحُنا الشرف.
- الناسُ لا يتغيّرون أبدًا، ثق بي. أنا "يساري". كنتُ قبل إدراكِ حقيقة موتي أعيش فقط من أجل تغيير مَن حولي. كنتُ مثلكَ أحمقَ حينَ سعيتُ إلى مثل هذا.. حتّى فهمتُ ما غاب عنّي وعن كلِّ البُلهاء الذين أفنوا

حياتهم وهم يضعون قواعد التغيير.. ويحُثّون الناس على السير إلى جنّةٍ فوق الأرض لا وجود لها! كلُّ هذا هراء. هذا العالم منذ وجوده وهو قبيحٌ ومفعمٌ بالوضاعة، وحماقتنا الكبرى كانت أنّنا أردنا أن نصنع من الدودةِ صقرًا، والديانُ لن تطيرَ أبدًا. هذا العالم ميّتٌ، لكنّه لا يشعر بموته. أنا وهؤلاء الذين تراهم حولك فقط من أدركنا تلك الحقيقة، فاعترفنا بها. نحن أمواتٌ يمشون. ليس إلّا.

- الذي يحلُم ليس بميّت، أنتم موتَى لأنّكم لا تحلمون، وهؤلاء الذين رفضوني أهلكوا أنفسَهم برفضهم لي. وقريبًا سيصبحون مثلكم، فينتبهون ويعرفون جنايتهم على أنفسِهم!

- يجب أن تتحلّى بروح "الديمقراطية" وتتقبّل حقّهم في تقرير مصير أحلامهم لو كنتَ صادقًا فيما تزعم! لكن لأنّك رجلُ دين فأنت لا تقبل إلّا أن تتَّبِع الجماهيرُ طريقتكَ، وإلّا نزل عليهم غضب السماء، الذي هو في الحقيقة غضبُكَ أنت!

- هل حانَ الوقت لأتلقى النُصحَ من الأموات؟!

- دعني أخبركَ الحقيقة. أنت مثلنا ميّت. لكنَّ روحكَ تعوَّدَت قيدَ النصوص المقدّسة التي أفهمتكَ أنَّ الإنسان حيٌّ على الدوام! حيٌّ فوق الأرض، حيٌّ تتجوّلُ روحه في جنبات القبر، ثم حيٌّ في الحياة الآخرة حتّى لو

كانت حياته في الجحيم! كلُّ الأديان ورجالها لا يعترفون بالموت. رغم قولِهم أنّه الحقيقة الوحيدة. إنّكَ ميّتٌ.

- الموتى همُ الذين يستكينون للتعاسة، ولا يشعرونَ بالحياة حتّى وهم يسيرونَ على أقدامهم! لقد وهبتُهم الطريقَ وأردتُ لهم تغييرَ أحلامهم البائسة، وجعلَهم يحلمون بواقعٍ سعيد لا يؤلم أرواحهم، ليستمتعوا بحياتهم قبل أن يوقظهم الموت.. لو كنتُ ميّتًا فكيف أسعى إلى تغيير حياة الأحياء؟!

- لأنّك تخاف مواجهة الموت. فحلمتَ بأنّك حيّ. خوفُكَ من الموت هو ما جعلكَ على ما أنت عليه الآن.

- أنا لا أخاف الموت، بل أنتظره لأنّه موعدُ يقظتي. ومن آمنَ بالحلم آمنَ باليقظة، وساعتها يؤمنُ بالموت، الذي هو الطريق إلى الله.

- إنّك حقًّا رجلُ دينٍ مثالي مكتمِل العجز والغباوة. لا أقول أنّك لا تستطيع أن تفهم بل أنتَ لا تستطيع حتّى أن تفكر! أنت تفعل هذا لأنّك جاهلٌ بالحقيقة. أنت لا تنتظره ولا تحبّه، بل هو أكثر ما يفزعكم وتهربون منه، الموت الذي يُرعب كلَّ رجل دين.. فيسعى لنقلِ رعبه إلى الأحياء لينسوا الحياة ويخضعوا للمتحدّثين باسم الموت وما بعدَه.. أنتم رجال الدين أكثر من يكفر بالموت، ورعبكم الجبّار منه هو دليل كفرُكم به

وإنكاركُم له.. لم تحبونه أبدًا ولا تمنّيتموه.. ووصفتموه على الدوام مقرونًا بالألم والعذاب، فتخوّفون الناس منه وتحذّرونَهم قدومَه. إذا كان هذا هو الإيمان بالموت والآخرة فما هو الكفرُ بهما؟! حتّى أحلامُك هذه التي تدعو الناس إليها ما هي إلّا هروبٌ من الموت، فتركتَ المنبر وسعيتَ تطلبُ الحياةَ الدائمة، التي تسمّيها أنتَ الحلم.

- حتّى إذا كان ما تقوله حقًّا. فإنَّ أحلامي وجدت سبيلها إلى الكثيرين، ولم أقِف مقيّدًا بكفَنٍ يلفُّ روحي كما تفعلون. بل سعيتُ إلى إبدال الواقع كلّه وبثِّ الحلم في النيام ليفرحوا. ولم أركَن مثلكم للطريقة الأسهل.
- وأين أنت الآن؟! ها أنت في القبور.. ليس لك مكانٌ إلّا بين الأموات. وانتهى الحلمُ إلى المقبرَة. فمن الذي انتصر برأيك في النهاية؟!

كان الشيخ مُتعبًا، حطَّم الرفضُ روحَه، يريدُ أن يتمسّك بما آمن به حتّى لا يسقط في الهاوية السحيقة، لكنَّ الألمَ حين يرافقُ الخذلان، يهزمُ الصبرَ في الخاتمة.. جنونُه مثخنٌ بالجراح لا يستطيع المزيد من القتال، واليأسُ راحةُ الأرواح المتألّمة.. كان يريد لكلِّ شيء أن ينتهي، ويتمنّى في جوهر روحه أن ينتصر عدوُّه حتّى لا يجد نفسَه في ميدانِ معركةٍ جديدة.. وذاك اليساري الميّت يقدّم له المخرج الوحيد من نفقه المظلم، فاستجابَ له:

- إذًا أنا ميّت.
- كلَّ الموت.
- لكنّي لا أشعر بموتي!
- دليلُ الموت ألّا تشعر به!
- لكنّكم تشعرون به.. وها أنت تجادلني ليلةً بطولها عن الموت!
- حتّى في الموت هناك الميّتُ الجيّد والميّت المغفّل. نحن موتى جيّدون، نعرف حقيقةَ الأمر ونتوافقُ معه بنبلٍ وبغير ادعاء. أمّا أنت فميّتٌ مغفّل لا تفهم ما أنت عليه!
- وكيف أصبح مثلكم؟!
- لا يمكن أن تصبح مثلنا. فالناس يفهَمون بأنفسهم أو لا يفهمونَ أبدًا. لكن يمكن أن تصل إلى مرتبةٍ أخرى أفضل من هذا الخراء الذي أنتَ عليه. تصبِح من "الموتى الراقدين في القبور". هذا أشرف لك من أن تسير برأسٍ مقطوعة يراك "الأمواتُ السائرون" ويضحكون منك لأنّك لا تشعر بموتك. أنا أشفقُ عليك وسأساعدك لتتخلَّصَ من كلِّ هذا الروَث، وتصبِحَ عَدمًا، فترتاح.
- لستُ أريدُ غير الراحة. لكن كيف سأفعلها؟
- أفتحُ لك قبرًا، وأدفِنُكَ به!

رقد الشيخُ بجوف القبر. أحكَم "الموتى السائرون" بابَ المقبرة عليهِ فانحبسَ الحلمُ في قبضةِ العتمة. رقَدَ الحلم. الصمتُ يزحف ببطءٍ على الجدران وأصواتُ أقدام من دفنوه تتباعد والهواء يرحلُ معهم. صدرُه يضيق. يستجدي الهواءَ المكوثَ فلا يستجيب. سأل نفسَه: "هل دفنوني أم أنَّي لازلتُ أحلم؟".. تذكّرَ قوله فوق المنبر: الناس نيامٌ. فإذا ماتوا انتبهوا!.. "هل أوشَك زحفُ اليقظة؟" يسألُ نفسَه. ونفسُه خرساء لا تجيب. يتحسس وجهه.. "مالي أتعرق في هذا القبر؟ لو كنت أحلم فلماذا أنا عاجزٌ عن جعله بردًا وسلامًا؟ ألم أفعل هذا مع المرأة فجعلتُ بردَ شتائها حرًّا يلد العرق؟ هل كنت أحلم أنّي أحلم؟ هل هذا اليساري الميّت قويُّ المنطق إلى هذا الحد؟ أنا حقًّا خائفٌ ترتعدُ عظامي والرعب يعضُّ قلبي، أين الملائكة لماذا هي ليست هنا؟ فليأتِ أحدٌ يؤنس هذه الغُربة، فلتأتِ ملائكة الرحمة أو حتّى شياطين الجحيم. العتمةُ قاسية والوحدةُ ثقيلةٌ لا تطاق..".

تحسَّسَ الجدران من حوله. ترابها باردٌ رغم الحرّ الشديد. التصق التراب بيده وملأ عينه عندما مسح بها على وجهه. ضرب الجدارَ بقبضةٍ صلبة فأعيَته الحجارة. صرخ طويلًا فلم يَسمَع صوتَه. زاد هلعُه عندما تاه الصوتُ بين فمه وأذنيه.. يسأل نفسَه مرّةً أخرى.. "لماذا لا أسمعُ صوتي؟ هل الموت جاء سريعًا هكذا.. هل الموت هو الصمت؟".

أراد رفع غطاء القبر. لكنّه كان أثقلَ من وهجِ الحياة. أنشبَ فيه أظفاره حتّى تكسرت أصابعه. ولم يتزحزح الحجر. بكى طويلًا لكن لم تسِل دمعةٌ واحدة على خدّيه. تذكّر زوجتَه وطفله الذي داعب لحيته وهو يحمله لآخرِ مرّةٍ قبل أن يقف على المنبر. الشوقُ حارق.. لا يعرف كيف نسيَهُما حين ضاعَ في تِيه الأحلام؟ الذكرياتُ توقِظُ عقلَه.. والأحلامُ تتساقط كلّما بدت لهُ الوجوه البعيدة التي أَحبّها.. زوجتُه تمُدُّ يدًا لا تصِلُ إليه، وطفلُه يبتسمُ من بعيد.. يريد أن يحتضنهما، وبابُ القبر يحولُ بينه وبين ما يشتهي.

صَرخَ. فعادت أذنه تسمع، بكى. فشعرَ سخونةَ الدموع على خدّيه. لقد انتبَهَ. والناسُ نيامٌ، فإذا ماتوا انتبَهوا. فعلِمَ أنّه مات!

رقدَ بسلامٍ وعلى شفتيهِ بسمةٌ مالحة اختلطت بدموعه. واستسلمَ الحلمُ في ظُلمةِ القبر. ومات.

●●●

بعدما تسبّب يعقوب في الفتنةِ الكبرى، وأعلَن في الصباح أنّه فتح الباب على ديميان، فلم يجده بالغرفة التي لا نافذةَ لها ولا مخرج غير الباب المغلق من الخارج بإحكام، طاش عقلُ الرهبان جميعًا. وآمنوا أنَّ الربَّ كان بينهم، فعذّبوه وقادوه إلى "جلجثة" جديدة، فتركهم وعاد إلى السماء.

اِنفرطَ عقدُ الرهبنة في الدير، وهام الرهبانُ على وجوههم يبشرّون أنَّ الربَّ قد عاد، حتّى لا يؤكل لحمه ولا يُشرب دمُه، وحتّى يكفّروا عن جنايتهم بحقّه، شنقوا أنفسهم جميعًا، فانهارَ كلُّ شيء. غادر الجميع الدير، ولم يبقَ إلّا الراهبُ الكبير ويعقوب الذي رفض مغادرة الدير بعد فِعلته، رغم أنَّ الفرصةَ كانت متاحةً، لكنّه قرّر أن يفتح كلَّ النوافذ، ولتأتِ العاصفة بما تشاء.

مشى الراهب الكبير إلى غرفة يعقوب بخطواتٍ أثقَلها الحزنُ الجليل، دفع الباب غير المغلق، فانفتحَ. كان يعقوب ينتصب مثل خشبة، وجهُه للحائط وظهرُه للباب كأنّه ينتظر قدومَ القادم. ولِجَ الراهب داخل الغرفة وصحبته ريحٌ تُصفّر كانت تتأهبُ لغزو الغرفة المظلمة إلّا من شعاعٍ ألقى بضوئه على ظهر يعقوب الذي تهتزُّ عباءته تحت يد الهواء القادم مع الراهب.

لم يكن بالغرفة سوى فراشٌ للنوم على الأرض ومقعدٌ من جريد النخل عليهِ وسادةٌ من القش لجعله أكثر لينًا على من

يجلس فوقه. خطواتُ الراهب ثقيلة، وجبينه يتفصّد عرقًا رغم شدّة البرد. اتكأ على ذراع الكرسي وتركَ جسده يسقطُ فوقه كخرقةٍ لم تعد قادرةً على مواجهة: الرياح. خلع قلنسوته وألقاها بجوار المقعد وتنفسَّ ببطءٍ وصعوبة، فالهواءُ مرهَقٌ في صدره هو الآخر، وماعاد قادرًا على الصعود بعد النزول.

يعقوب، على هيئته ذاتها، ينتصبُ في مواجهة: الحائط، الذي أضاءه شعاعُ القمر المكتمل، يراقبُ عنكبوتًا -داخلَ كُوّةٍ غائرة بالحائط- يحجل في سعيه نحو ذبابةٍ تعثّرت بخيطه ووقفَت عاريةً، وثابتةً. لا تحاول الفكاك من نسج العنكبوت القادم نحوها وهي ساكنةٌ، وجناحاها مصلوبان فوق خيوطه، وأرجلُها مقيّدةٌ بنسجِه.

قال الراهب بصوتٍ ضعيف لكنّه مسموع وسط الصمت الكبير:

"لقد كنتُ أعِدُّكَ للرهبنة يا يعقوب.."..

مرَّت الكلماتُ على أذنه بلا أثرٍ، وهو يراقب سير العنكبوت ببطءٍ نحو الذبابة مُقتربًا شيئًا فشيئًا..

"لكنّكَ هدمتَ الإيمان يا بنيّ.. وأهلكتَ إخوتكَ الرهبان.."..

أصبحَت الذبابة بين ذراعَي العنكبوت الذي يكفّنها بدقّةٍ وسرعةٍ داخل نسجه.

"الراهبُ الذي مزّقَتهُ الكلاب كان أفضلَ أبنائي هنا، لكنَّ الشيطان اختطفَ روحَه لمّا أصابه رجسُ المجنون، أنا لم أقتله، فلم تكن الكلاب مدرّبةً على القتل! الربُّ سلّطهم عليه حتّى لا يملكَ الشيطان جسدَه بعدما ملكَ روحَه، فطهّره الربُّ بأنياب الكلاب واستنقذَ روحَه من هوّة الجحيم الأبدي.."..

الذبابةُ مستسلمةٌ أمام إبرة العنكبوت الجبّار وهو يحقنها، والزلزال أصابَ خيوط نسجِ العنكبوت المهتزَّة لسحق الذبابة.

"ثم ماذا يا يعقوب؟ لقد كنتُ أريد شفاء ديميان وإعادة الخروف إلى القطيع الآمن، ولو أردتُ الخلاص منه لقتلتُه بلمحة بصر، لكنَّ الربَّ راعِينا أرسلَنا دواءً للناس لا مقصَلَة.. بُشرى لهم ولسنا عقابًا.."..

الذبابةُ صارت طعامًا.. ورمحُ العنكبوت اخترق قلبها يمص سائلَ الحياة.

"لآخر نفَسٍ في صدري كنت سأبقى مع ديميان ولن أيأس منه، ولو كان شفاؤه بموتي لقدّمتُ روحي وأنا أبتسم، لكن هكذا أراد الربُّ.. لكنّكَ خنتني يا يعقوب، وأطلقتَ سراحه، ففَتَنتَ كلَّ من بالدير، وإخوتكَ الرهبان سقطوا جميعًا في الضَلال.. أرادَ الربُّ أن يختبرَ خِرافه فأدخلَهم في التجربة، فكنتَ أنتَ الذئبَ الذي انتهبَ الخراف. نهَشتَ إيمانهم يا يعقوب، فماتوا جميعًا على الهرطقة.. أهلكتَ كلَّ الرهبان يا بنيّ.. كيف ستلقى الربَّ يا يعقوب وعلى يديكَ سلاسل الشيطان؟ وقلوبُ الرهبان معلّقةٌ

بين أصابعه يدفعهم للهاوية.. لقد ذبحتَ خراف الربِّ وقدّمتَهم أضحيةً للوثن يا بنيّ. فلتبقَ في الظلام الى أن تزول السماواتُ والارض ولن تزولَ عتمتك."..

الذبابةُ تنتفضُ، والسمُّ يسري في عروقها، والموتُ قد حلّ.

"تركتكَ بالدير ولم أطردكَ منذ فعلتَ فعلتكَ، على أمل أن يعود الرهبانُ فتُقِرَّ بجنايتكَ أمامَهم فيرجعون للإيمان. أمّا وقد قتلوا أنفسهم جميعًا، فلا بقاءَ لك هنا بعد اليوم. عندما يطلع الفجر لا أرى لكَ وجهًا. أُخرج من الدير يا يعقوب فقد هلَكَت الخرافُ كلُّها، فعلامَ بقاءُ الذئب؟".

أكل العنكبوتُ ذبابَتَه كاملةً وعاد يحجل في نسجه راجعًا لموضعه.

نهض الراهبُ الكبير وترك قلنسوَّته ملقاةً على الأرض، وغادر الغرفة، والهواء لا يزال يؤرجِح البابَ الخشبي الذي تصطكُّ مفاصلُه بصفيرٍ مخيف يشقُّ صمتَ الظلام.

غادر يعقوب الدير، عاد إلى بيته ولم يرَهُ أحد، حتّى رأى الجيران ألسنة النار تتطاير من نوافذ شقّته، ووجدوا جثّته داخلَ بيته متفحمةً على أرض الغرفة الكبرى بين سبعةَ عشر تمثالًا كلُّها محترقةٌ، بلا عيونٍ ولا شفاه.

●●●

أصبح الناسُ يرون أنَّ الدولة تتخلّصُ منهم بتركهم لقمةً ليّنةً بفم الجنون، ولا أحد يمدُّ لهم يدَ العون لانتشالهم من هذا البحر الأسود، أو يقفُ حائطًا يحول بينهم وبين الوحش الصائل كحيّةٍ عمياء لا يعلم أحدٌ أين ستضعُ بيضتها.

كثرت المظاهرات في كلِّ ميادين المدن الكبرى تُحمِّلُ النظامَ مسؤوليةَ الجنون. البعض يقول أنَّ هذا الجنون عدوى أطلَقَتها الدولة ليصبحَ لديها شعبٌ من المجانين لا يعلم شيئًا ولا يعترضُ على شيء.. فيردُّ آخرون بأنّه لو كانت عدوى لأصابت الجميع وليس البعضَ دون الآخر.. فيتّهمهم الفريقُ الأوّل بأنّهم دخلاءُ مناصرون للدولة، فتقوم معارك صغيرة بينهم.. ويعلو صوتٌ آخر بأنَّ هذا انتقامُ الله من العالم.. أَرسلَ عليهم الجنون يحصدهم.. كما أرسل الجراد على قومِ فرعون وأرسل الطوفان على قومِ نوح، ها هو يرسلُ الجنون.. وكما أنَّ الله خلق للإنسان عقلًا أكرَمَه به فاختار بعقلهِ غيرَ طريقِ الله، أنزَلَ الله انتقامَه بتدميرِ العقول العاصية.. هكذا تحدّث رجالُ الله!

كثيرٌ من البسطاء ردّدوا رأيًا آخر، بدا كرأيٍ علمي من الغريب أن يردّده أمثالُهُم! إذ كانوا يرَون أنَّ الصواريخ التي أصبحَت تطلقها الدول بكثرةٍ نحو الفضاء لاستكشاف العالم البعيد حاملةً أقمارَها الصناعية، ومحطات الهواتف النقالة التي لا تكف عن إطلاقِ ذبذباتها، قد دمّرَت سقفَ العالم وأحدثَت به

ثغراتٍ كبيرة تمكّنَت من خلالِها الشياطينُ العلوية من النفاذ إلى الأرض لتتخلّصَ من ظُلماتِ الأفق وبرودته، وتنعمَ بدفءِ الأرض ونورها.. ولمّا نزلَت لم تجِد مأوى تسكن إليه، فتلبَّست أجسادَ البشر، ومحَت عقولَهم.

لم يكن الغريبُ فقط أنَّ تُردّد الجماهير الجاهلة مثل هذا، بل العجيبُ حقًّا، أنَّه وسط تجمعات الناس الغاضبة من تفشّي الجنون، كان هناك كثيرٌ من أساتذة الجامعة والعلماء الذين لم يفلت كثيرٌ من ذويهم من ضربةِ الجنون، فخرجوا ساخطينَ وسط الغِضاب، ولمّا سمعوا قولًا من قبيل خرقِ سقف العالم، ونفاذِ الشياطين العلوية إلى الأرض، لم يستنكروا هذا! بل دعموه بأدلّةٍ علمية! وإن كان ذلك على طريقتهم الخاصة.

أصبح أساتذة الكيمياء والفيزياء والمختصون في علوم الفضاء يخطبون في الجمهور، يتحلّقُ حولهم الناس، فيشرحون لهم كيف أنَّ هذه الصواريخ والأقمار المُرسلة والذبذبات يمكن أن تدمّر "الأوزون" تمامًا.. ذاك الدرعُ الذي يحمي صدرَ الأرض من شرّ الفضاء، ثم تحوَّلت كلمة "شرّ الفضاء" إلى "أشرار الفضاء"! وأخذوا يشرحون أنَّ العلم لم يستطِع الجزمَ بعد أنَّنا وحدنا من نعيشُ في هذا العالم! وأنَّ الأشرارَ ليس بالضرورةِ أن يكونوا شياطينَ، فقد يكونون أجسامًا طيفيّةً رقيقة مؤلَّفة من غازات الانفجار الدائم في النجوم البعيدة. عبر رحلتِها لملايين السنين في السديم الأسود، وغبار الفضاء، تطوَّرَت تلك الأجسام الطيفيّة

لتصبحَ لها إرادة! فإذا نفَذَت إلى الأرض وأصابت الإنسان، دمّرَت خلايا الإدراك في المخ، وأصابَتهُ بالهذيان، فتصيب كلَّ من تمسُّه بالجنونِ الأسود!

كانت الجماهير الغاضبة تتجمَّع وتتفرّق من تلقاء نفسها. وفي كلِّ مرّةٍ تتكوّنُ فيها تلك التجمّعات، وينعقدُ عزمُهم على احتلال الميادين، تجدُ الدولة حلًّا لهذا الطاعون الجديد.

كان يحدث أن يظهَر وسط هذه الجماهير الغاضبة، مجنونٌ أصابه الجنون فجأةً وهو بينهم، كهذا الذي أخذ يخلَع ملابسه ويلقيها في وجهِ السماء، ثم يمسك بالحجارة ويقذفها للأعلى وهو يصرخ: "لقد انتَهت الحرب بين الله والشيطان وعقدَا اتفاقًا معًا لأجلِ سحقِنا. اُهربوا فإنَّ الخيرَ والشرّ يطلُبانكم معًا، الظُلمةُ والنور تريدان إبادتَكم!".

كان ظهورُ مجنونٍ واحد مثل هذا كفيلًا بتشتيتِ آلافٍ من المجتمِعِين الذين يصيبُهم الذعر من إمكانيةِ إصابتِهم بما أصابَه، فيفرّون فرارَ الأرنب من الذئب، لا يلوون على شيءٍ كي ينجوا بعقولِهم، حتّى أنَّ رجال الأمن الذين يحيطون تلك التظاهرات بمئاتِ الجنود أصبحوا يستخدمون تلك الحيلة حين يكثرُ المتظاهرون، فيندسُّ أحدُ الضباط بوسَطهم ثم يدَّعي أيَّ نوعٍ من الجنون المفاجئ.. وما هي إلّا دقائق حتّى يفرَّ الجميع هاربًا!

●●●

عندما وصلتُ إلى لبيب، ذاك الرجل الحكيم الذي لم يكن يحبُّه أحد، عرفتُ أنّني كنت أتخذُ المسارَ الخاطئ، فقد فتح لي هذا الرجل طريقًا جديدًا للبحث والفهم الأكثر عمقًا.

كان أوّلُ لقائي به عندما رأيتُ رجلًا يتقدّم نحوي وأنا أجلس كعادتي أثناء وقت الراحة تحت "شجرة المانجو العملاقة" في حديقة المارستان الكبيرة. جلس بجواري دونَ استئذانٍ حينها وسألني بلا مقدّمات "هل ديميان بخير؟"، انزعجتُ في بادئ الأمر، وظننتُ أنّه أحد رجال الكنيسة جاء ليتأكد من وجوده هنا، وكان له من الذكاء أن عرف ما يدور برأسي! فقال لي: "أنا لبيب الذي ساعد ماري في إخراج والدها من الدير. لا بدَّ أنها أخبرتك بهذا".. تذكرتُ حينها ما قالته لي ماري، لا سيَّما أنّها قد وصفَت لي هيئته، فأخبرتُه أنّه يتلقّى علاجه بشكلٍ جيد، وإن كانت حالته كما هي!

تكرّرت زياراته بعد ذلك كثيرًا، حتّى أنّني أصبحتُ أنتظرُ تلك الزيارة لنجلس ساعةً كاملةً وأحيانًا أكثر وأنا أستمع إليه، لا سيّما بعدما عرفتُ أنّه كان جارًا لرسول وسماع، فضلًا عن معرفته الوثيقة بديميان.

كان يعرف جيّدًا أنّني بحاجةٍ إليه.. حكى لي قصة من يعرفهم.. حكاها لا كتجربةٍ مرَّ بها، بل كمُفسّرٍ يعرفُ كلَّ شيء لماذا

حدث، وليس فقط كيف حدث.. لقد كان يقول لي دون تصريح: "أنت جاهلٌ وأحمق".

عندما سألتُه لماذا تحرص على الزيارة بشكل منتظم؟ هل هذا لمساعدتي بما لديك من معرفة أم لزيارة رفاقك القدامى؟ قال لي أنه لا يكترث لأحد، ولا يعنيه مساعدتي، وأنّه لم يأتِ حتّى لأجل شعورٍ بالحب نحو هؤلاء النزلاء الذين يعرفُهم إنما فقط جاء ليشاهدَهم. حين نظرتُ لوجهِه واستمعتُ لنبرته وعرفتُ حكاياته العديدة، أدركتُ حقًّا أنّه جاء ليشاهدَهم. فقط يشاهدهم. وأنَّ كلامه معي لم يكن لأجلِ مدِّ يد العون! إنّما هو فقط أراد أن يخبرني كلَّ شيء. فأخبَرني كلَّ شيء.

لقد اكتشفتُ مع الوقت أنّني لم أعد أستمعُ له لأعرفَ تفاصيلَ حكاياتهم ولا لأعرفَ أسبابَ جنونهم، إنّما أستمعُ له لأعرفَه هو. لقد أخذني هذا الرجل. أخذني بكلِّ ما للكلمة من معانٍ، أجلسُ منه مجلسَ الباحث أمامَ الطبيعة الثريّة البكماء، أستكشفُ مناطقَهُ عن طريق التجربة والخطأ، وأتعرّف على رجلٍ بين ضفَّتَي العقل والجنون. فقد كان يجري بينهما على الدوام. كانت حكمتُهُ في: قَبول نفسه.

لم يكن مثل الطيبين منّا، الذين يَقبلون تشوّهاتهم كنوعٍ من الرضى الساذَج.. ولم يكن من الأشرار الذين يغضبون لتشوّهاتهم ونقائصهم، فيعاقِبون العالم لأنّهم يرفضون ذواتهم! لم يكن من هؤلاء ولا أولئك.. كان يكتملُ بقبول المظلم فيه، كما

يَقبل المنير، وبتقديره للشرّ، بنفس القدر الذي يبجّلُ به الخير. لم يكن ينظر إلى فسق "أمّه" على أنّه زنًى وانحطاطٌ للأخلاق، ولا سألها كيف حملت به سفاحًا.. أخبرني قصّتها ببساطة كأنّه يتحدثُ عن أمرٍ غير ذي بال ولا أهمية.. حتّى أنَّ ابتسامته الساخرة لم تغب وهو يحكي أمرًا بمثل هذه الخطورة والخزي: "لقد هاجَت على رجلٍ غيرِ زوجها فأشبَعَت جسدَها وروت عطشها"، حتّى أنني شعرتُ بالخجل لأجله وأردتُ أن أجد له مَخرجًا يبرّر موقفَ والدتهِ، فقلتُ له: "لعلَّ زوجها لم يكن يَهتمُّ لأمرها ولا يحسن معاملتها"، أذهَلَني ردُّه ونظرتُه لي كأحمق، مستنكِرًا دفاعي: "لا أعتقدُ هذا، ولا يعنيني حتّى، فكيف نطالب من شعَر بالعطش خارج المنزل أن ينتظر حتّى يعود لبيته ويشرب؟! حتّى لو كان بيته على بُعدِ رميةِ حجر.. لماذا ينتظر العودة والماءُ أمامَه؟ وقد عطِشت أمي. فشَرِبَت ولا لومَ عليها! لو كنتُ عاتبًا على أحدٍ فإني أعتب على ذاك الأحمق الذي عاش عمره كلّه ومات واثقًا من أنّه أبي! وكأنَّ أمّي لا يمكن أن تشتهي سواه، وكأنّها لا يمكن أن تحنَّ إلى الفسق وكسر القاعدة ولو لمرّةٍ واحدة! من هذا الذي لا يكسر القاعدة أبدًا؟ القاعدةُ موجودة فقط كي تُكسر. والشرير هو من يطالب بعدمِ كسرِها، والأكثر شرًّا من يظنُّ أنَّ الآخرين لن يكسروها!".

لا أعتقدُ أنَّ لبيب عاقلٌ.

ولا أعتقدُهُ مجنونًا! لا يمكن أن تصفَه بالخَيّر ولا بالشرير، ولا هو بالصالح، أو الفاسد، يختلط فيه كلُّ شيءٍ بنفس المقدار، ويقول

"نعم" للشيءِ بقدر ما يقول له: "لا"، فيقبَلُه ويرفُضُه بنفس القدر!

عندما سألتُه: "كيف تجمع هذا التناقض؟ فأنت تقبل فُسق أمّك، ولا تقبل فسق القطط في الطرقات؟"، أربكني كعادته بأجوبةٍ محيّرة: "قبول الشيء لا يعني عدمَ رَفضِه! وقولكَ لشيءٍ (لا) ليس معناه إنّكَ إن قلتَ له *نعم* تكونُ كاذبًا. أنا نصفي *نعم* ونصفي: **لا**. فلماذا تريدني أن أنتصر لإحداهما، فيصيب العرجُ روحي في الحياة؟".

لم أرَ في حياتي رجلًا مثله! وضعتُ كلَّ ما أخبرني به وسط ملاحظاتي، لأنّه كان أكثرَ فهمًا، وأبعدَ نظرًا، من كلّ ما تعلمتُه. وكانَ حكيمًا جدًّا، حتّى لو لم يكن يحبُّه أحد.

انتهى.

الجماهيرُ الكبيرة يسوقها الحزنُ على أبنائهم الذين يختطفُهم الجنون من بينهم، لا سيّما "جنون الأحلام" و"جنون الموت"، اللذان يمدّان قبضتَيهما فيختطفان كلَّ صباحٍ مئات من العقول. كلٌّ منهم يصبحُ مجنونًا يحيا حلمًا كان يرجوه على الدوام، أو يسيرُ في الناس ميتًا متنازلًا عن الأحلام كلِّها، فانتفضَ الآباء أمام الوزارات وقطعوا الطرق ليجدوا لأبنائهم مكانًا بالمصحات التي أصبحت غير قادرةٍ على استقبال المزيد من المجانين، لكنَّ الجماهير لا تفهم أبدًا أنَّ الدولة يمكن أن تعجز أمامَ شيء، كما أنَّ الدولةَ لم تكن مستعدّةً أبدًا لدور العاجز، حتّى لو كان هذا هو الواقعُ المتحقِّق.

الحزنُ الذي جلّلَ القلوب على فَقدِ عقول الأحبّة والرفاق، سرعان ما تحوّلَ لخوفٍ زعزعَ القلوب، فمشاهدُ الجنون كثيرةٌ ومرعبة، حتّى لو أنَّ الجميع قال بأنَّ الأمر ليس عدوى، وأنَّ كلَّ مجنون أصابه جنونه بقوّةٍ ذاتيّة، وأنَّ الخللَ في استسلام الفرد لأفكارِه الجامحة وخيالاتِه الغريبة، فلا يصيبُ مجنونٌ عاقلًا بجنونِه، ولا ينقلُه إليه. لكنَّ يدَ الخوف قويّةٌ، وعند الفزع يبدو كلُّ منطقٍ كذبًا وخداعًا، الجنونُ عدوى. هذا ما استقرَّ في نفوس أغلبِ الناس، فأزال هذا اليقينُ الشفقةَ التي في قلوبِهم على المجانين، وأحالَها إلى خوفٍ، وجعل الحزنَ غضبًا، فانقلبَ الاحتواءُ إلى نفور.

زاد ضغطُ الناس على الدولة لتخلِّصهم من ذويهم بقَبولِهم في المصحات حتّى لو لم ينالوا الشفاءَ أبدًا، لأنَّ أغلبَ المجانين ورغم اِمّحاءِ عقولهم، لم يكن الجنونُ قادرًا على محو خرائط منازلهم من عقولِهم، فكانت تنتهي كلُّ جولاتهم بالعودةِ إلى ذات الجدران التي تربّوا بينها.

أدركَت الدولة ما يدور بعقل الجماهير من مخاوف، فلم تعد تنتظر أن يذهب أهل المصاب إلى المصحات ليسلمونه للعلاج بإرادتهم، فخرجَت دورياتُ الشرطة لتصيدَ المجانين من الطرقات، خاصّةً "مجانين الأحلام"، لا لأنّهم الأكثر انتشارًا لكن لأنّهم الأكثر إرعابًا للدولة التي ترى أنّه ليس أخطرَ على نظامٍ من شعبٍ يحلم، حتّى لو كانت أحلامَ المجانين.

لم تكترث الدولة لاعتراض الأطباء في المصحات على أنَّ زيادة الأعداد بهذا الشكل الرهيب تؤدّي لاستحالة العلاج، وأصبح واضحًا للجميع أنَّ المراد هو حبسُ المجانين، لا شفاءهم.. وإن كانت الدولة بعد ذلك أوجدَت حلًّا لتلك الأزمة بتحويل كثيرٍ من النوادي والمدارس إلى مصحاتٍ عقلية.. فتوفِرُ لكلّ مكان ثلاثة أو أربعة أطباء وضِعفَ هذا العدد من الممرضين، لرعايةِ عددٍ من المجانين، كان يصلُ أحيانًا لأكثر من ألف وخمسمائة مريض بالمكان.

عندما كثُرَ اعتراضُ الأطباءِ النفسيين لعدم قدرتهم على علاج هذه الأعداد، قامت وزارة الصحة باستدعاء أطباء غير

مختصين، ووزَّعت عليهم كُتيّباتٍ إرشادية لكيفيّة التعامل مع الجنون، فاختَصَرت ما يتعلَّمُه الطبيب في خمس سنوات إلى نصفِ ساعة يقرأُها طبيبٌ للأمراض الجلدية أو مختصٌّ بالتوليد، ثم يجدُ نفسه وجهًا لوجه أمام الجنون الجبّار، فيُقالُ له قم بدوركَ واجعَلهم عقلاء إن أمكن!! حتّى الأطباءُ البيطريّون صاروا يكتبون قوائم علاج الهوس والاكتئاب والفصام والهلاوس المعقَّدة!

●●●

لا يوجدُ دليلٌ واحد على أنَّ ما يحدث هو عدوى، فلوثَةُ العقول لا تنتقل من فردٍ إلى فرد، بطرُق بيولوجيّة أبدًا. لكنَّ "الإيحاءَ"، و"الإبهام"، لهُما أثرٌ أشدُّ من كلِّ أنواع العدوى البيولوجيّة.

بدا لي ذلك عندما راقبتُ أفعالَ الأفراد المجتمِعين في مكانٍ واحد، فوجدتُ توحّدهم في السلوك نفسِه عبر "الإيحاء"، مثلما يحدُثُ في صلاة المسلمين خلف أئِمَّةٍ اشتهروا بالتأثير في من يصلّون خلفَهم.. إنّهم يخرجون من بيوتهم وهُم مؤهَّلون للبكاء، وعندما يعلو صوتُ مُصلٍّ في أيٍّ من الصفوف بالبكاء، تتداعى له سائرُ الصفوف بالبكاءِ والنشيج.. حتّى يتحوَّل المسجد كلّه لمأتمٍ.. رغم أنَّ أيَّ واحدٍ من هؤلاء لو صلَّى خلفَ أيِّ إمامٍ آخر، وتلى الآيات ذاتها، لن يبكي مادام من حوله لا يبكون!.. كذلك لا تنتشر سلوكيَّاتٌ كالتحرّش إلّا من جماعاتٍ من الشباب متقاربة في المكان، يبدأُ الأوّل فيتبعه الآخرون من دونِ اتفاقٍ مسبق ولا وجود معرفة بينهم.. المثال الأوضح نراه في المظاهرات والتجمّعات الاحتجاجيّة، فنرى "عدوى" انتقال الهياج الجماهيري تنتقل من فردٍ لآخر بسهولةٍ ويسر، حتّى أنّهم يتقدّمون نحو الموت بخطًى ثابتة ويقين كأنّهم مجموعات من الانتحاريين!

يبدو لي أنَّ أمرَ الجنون لا يختلف كثيرًا عن ذلك، فكلُّ هؤلاء الذين أصابهم الجنون حدثَ لهم ذلك بالطريقة نفسها، فهُم يتوحّدون مع أفكار غرائبيّة يؤكِّد دومًا أهلُ المريض أنّه تحدّث عنها مرّةً على سبيل المزاح، أو راوده حلمٌ عنها وحكاه لمن حوله، حتّى يفاجؤون بهِ يعيشُ تلك الأفكار كواقعٍ لا يستطيع أيُّ أحدٍ أن ينتشله منه، فانتقلَت هذه الفكرة الأثيرة حول القدرة على تحوُّل الشخصِ إلى ما يريد، من شخصٍ إلى آخر، وسقطوا جميعًا بتلك الهوّة السحيقة التي تنفلتُ فيها الإنسانيّة، وتتجلّى فيها صورُ البؤس في أبشعِ حالاته وقد انحطَّت البشرية إلى أبعدِ نقطةٍ في التخلّف.

لكنَّ عامل "الإيحاء المباشِر"، و"انتقال الوهم"، في حالاتِ التجمّع للأفراد، لا وجودَ له هنا! فأغلب من يصيبُهم الجنون لا يتصادفُ وجودُ شخصٍ قريبٍ منهم أصابَه الأمرُ نفسه، ممَّا ينفي إمكانيَّةَ الانتقال بالإيحاء المباشر!

أعتقد أنَّ السبب هنا راجعٌ للدولة نفسها وطريقةِ تعامُلها مع الكارثة، عبر الحديث عن الجنون في وسائل الإعلام كلّها، ومحاكمة رسول -ذلك المجنون الذي كان بدايةً لكلِّ هذا- أمامَ القضاء، وتناوُلُ الأمر والبحثُ فيه وشرحُ المختصين على الشاشات لخطورةِ التوحّد مع الأحلام والأفكار غير المنطقيّة.. فقدّموا بذلك شرحًا مفصّلًا وخارطةً للناس: كيف تصبح مجنونًا في ثلاث خطوات فقط!

أفكّرُ كثيرًا هل كان من الممكن تفادي هذا الأمر لو تمَّ التعتيمُ عليه، وعدمُ تناوُلِه مطلقًا، وإشاعةُ أفكار مضادّة له؟

أصبحتُ أتذكّر رواية (جورج أورويل) التي يتحدّثُ فيها عن دولةٍ قائمة كلّها على الأكاذيب، وتحكمُها قبضةٌ حديدية تُحرّك المجتمعَ بأسرِه وفقًا لرؤية الدولة.. أعتقدُ أنّه كان يرسل لنا رسالةً عبر روايته لتفادي هذا الأمر، وجَعلِ "*الإيحاء والإيهام*" عنصرًا فعّالًا في حفظِ جسدِ الدولة وعقلها، وتثبيت المجتمع.

تمتلكُ الأكاذيبُ دومًا قوّةَ الإقناع.. الحقائق وحدها هي الشيءُ الذي يصعبُ إثباته! فإلى اليوم لا توجد قضيّةٌ واحدة في العلم يمكن الجزمُ بها، والعلم هو الممثِّل الأعلى للحقيقة، ورغم ذلك فإنَّ كلَّ قوانينِه بلا استثناء قائمةٌ على مبدأ الاحتماليّة ولا يقينَ ولا حتميّة مطلقًا! ونعتبرُ هذا أعظمَ انتصارٍ وتطوّر للعلم!.. إذا كانَ العلمُ يدفعُنا إلى التغيّر الدائم وعدم الثبات على قاعدة، إذًا فإنَّ الخداع والأكاذيب هي الضامنُ الوحيد للثبات! فلماذا إذًا لم تكذب الدولة لتضمنَ ثباتَ المجتمع وتحميه من انفلاتِ الناس إلى بحرِ الجنون وتحفظ عقولهم؟ إنَّ التاريخ يُثبت أنَّ أكثر الدول ثباتًا واستقرارًا هي تلك التي تقوم على الأكاذيب، والقبضة المستبدة، لجعلِ الأكاذيب، هي الواقع الوحيد، المتاح..

ربما لو كذبَت الدولة وقالت أنَّ الجنونَ ليس له وجودٌ هنا لكُنَّا جميعًا عقلاء!

انتهى.

أخيرًا حصل الطبيب الشاب على ذاك اللقاء الذي كان يتلّهف إليه مع "الأستاذ الكبير" كما يطلق عليه الجميع، فقد رتّب له مدير المصحة -كما وعده- موعدًا مع الدكتور ناصف الذي تمَّ انتدابه للفصل في حالة رسول بوصفه واحدًا من الأطبّاء وعلماء النفس الأكثر أهميّة، ثم عاد إلى عزلته الاختيارية بشقته الكبيرة التي يحيا بها منفردًا في الحيّ الثري.

في تمام السابعة مساءً كان الطبيب الشاب يطرق باب الدكتور ناصف، والذي اشترط على مدير المصحة ألّا يزيد اللقاء عن نصفِ ساعة مع الطبيب الذي أرسله.

استقبلَ ضيفَه ببسمةٍ محايدة، وقدّم له مشروبًا مثلّجًا، فالمشروبات الساخنة تكون للضِيفان الذين نحب أن تطول زيارتهم.. بنظرةٍ واحدة إلى بيت الدكتور ناصف يمكنكَ أن تحصي ما فيه، فبوسط الصالة الكبيرة لا يوجد سوى مقعد كبير، رغم ما يبدو عليه من فخامة لكنَّ حشوَه مهترئٌ وغير نظيف -وإن كان يبدو مريحًا لمن يجلس عليه- وبجواره كرسيٌّ خشبي من الواضح أنه يستخدمه للوصول إلى الكتب التي توجد بالأرفف العالية في مكتبته التي تغطي كلَّ الحوائط، رغم أنَّ أغلب الأرفف فارغة، ولا يوجد إلّا مجموعةٌ متناثرة من الكتب فوقها -ربما لا تزيد عن عشرين كتابًا- بعضُها في الأرفف العليا وبعضُها في الأسفل.

كان الدكتور ناصف يقارب الثمانين من عمره لكنّه كان يبدو بصحّةٍ جيّدة، يتحرّك بسهولة ونشاطٍ وقور، ولا يظهر امتلاءُ جسده مع طوله الفارع.. عيونه زرقاء حادّة، وشعره الأشيب الناعم مرسلٌ للخلف، يشوب بياضُ وجهه حمرة، وملامحه تدلُّ على أنَّ جذوره تعود لبلاد بعيدة.

جلس الطبيب الشاب على الكرسي الخشبي، وأمسك بعلبة العصير التي قدّمها له الدكتور ناصف دون كأس، ولم يرتشف منها شيئًا! غلبهُ الخجل في حضرة العالِم المبجَّل، فقال له الدكتور ناصف:

- تعلم أنَّ معك ثلاثون دقيقة أليس كذلك؟
- نعم يا دكتور أعرف هذا. وأشكرك على وقتك، فهذا شرفٌ كبير أن ألتقي الأستاذ الذي تعلّمنا على يديه.
- إذا بدأت بالإطراء فستخسر نصف وقتك، الإطراء هو الوسيلة الوحيدة لقول الأشياء التي لا نعنيها حقًّا. وأظنّ أنّك جئت لأمر تعنيه، فاستثمر وقتك الطويل الذي يمتدُّ لثلاثين دقيقة!!
- عفوًا يا دكتور، علمت أنّك كنت صاحب الفصل في حالة رسول، المريض الأشهر، الذي كانت بدايةُ جائحة الجنون بظهور جنونِه، وأنّك اختصرتَ حالته في جملةٍ واحدة هي ما جعلني أطلب مقابلتك. "أنه رجل قرر أن يكون مجنونًا ونجح.".

- وهل جئت لأنّك لم تفهم الجملة، أم لأنّك تعترض عليها؟
- بل لأنّي واثقٌ أنّها التحليل الأمثل لكلِّ ما يحدث، وكثيرًا ماكنتُ أميلُ لهذا الرأي لكنّي لا أجد "الدليل العلمي" على إثباته!
- ماذا تقصد بكلمة "العلمي"؟!
- أقصد مصدرًا ماديًّا يُعتَمدُ عليه في نظريات الطب النفسي.
- الطب النفسي!! تلك هي الجملة المقيتة التي لأجلها اعتزلتُ كلَّ شيء. إنّها الخديعة الكبرى! هل هناك حقًّا ما يسمّى طبًّا نفسيًّا؟ إنّها أشبه بقولنا "فيزياء السحر" أو "وجود اللاموجود"!.. لهذا سيستمر ذاك الأمر طويلًا.. لأنَّ حافظة النقود سقطت منَّا في حديقة المنزل، وحتّى لا نُتعبَ أنفُسَنا بالبحث بين الحشائش، خرجنَا نبحثُ عنها أمام المنزل، حيثُ الأرضُ فارغةٌ وواضحة، أليس هذا بحدِّ ذاته جنونًا؟!
- أنا هنا لأجل قولكَ هذا، وربما سيدهشك أنَّ كلماتك تلك لم تثِر دهشتي! لأنَّ ما يحدث دليلٌ أنَّ هناك خللًا في القواعد كلِّها. لكنَّ الفارقَ أنّك تعرف الحقيقة التي تقول، بينما أشعرُ بها فقط، ولا أستطيع صياغتها أو حتّى الاعتراف بها بيُسر.. ماذا سنفعل إن نحن وضعنا كلَّ نظريّات الطب النفسي تحت مقصلة الشكّ؟ ونسفنَا كلَّ ما توصّلَ إليه العلماء عبر عقودٍ من الزمان؟ من أين سنبدأ؟!

قام الدكتور ناصف من مقعده، ووقف عاقدًا يديه خلف ظهرِه ووجهُه للمكتبة الضخمة الخالية أغلبُ أرففِها من الكتب، ثم قال للطبيب الشاب دون أن ينظر إليه:

- اِفعل كما فعلتُ أنا. لقد تخلّصتُ من كلِّ الكتب والمراجع النادرة، التي لم يكن لبعضها سوى نسخةٌ وحيدة أو مخطوطةٌ أمتلكها، ووهبتُها لحارس العقار ليحرقَها ويستدفئ بها في برد الشتاء، ولم يبقَ سوى هذه المجموعة القليلة التي تراها، وبالمناسبة ليس بها كتابٌ واحد في ما تسميه "الطب النفسي". كلُّها دواوين للشعراء القدامى: "هوميروس"، "أبو العلاء"، "جون ملتون"، "جوته".. الأمر حقًّا صعب بل بالغ الصعوبة، كيف ستتخلّى عن الشيء الوحيد الذي أنت عليه؟! لكن أيّهما أيسر؟ أن تعترفَ بحقيقةِ أنّكَ "لا شيء"، أم تخدع نفسك وتوهمها أنّك "شيء"؟
- لكن لا سبيل أمامنا سوى اتخاذ هذا المسار.. لا نملكُ رفاهيةَ الوقت لمراجعة قواعِدِنا العلمية بينما المجتمع في الخارج يتهاوى.. تلك هي الحقيقة الوحيدة التي يجب أن ننشغل بها!
- الطب النفسي لن يُنجيهم! إنَّ كلَّ ما نفعله خرافة.. كيف تستخدم المشرط لتمزّق به جسدَ الضوء؟ أو كيف تغلق أصابعك بقوة لتقبض على الهواء؟ كذلك كيف يمكن أن نزعم بأنَّ ثمّةَ "طبٌّ للنفس"؟! لقد كانت تلك هي الخطيئة

الكبرى عندما قرّرنا أن نُخضع النفسَ الأثيريّة الشفّافة لأحكامِ الطبِ والدواء، وأن نتعاملَ مع العقل على أنّه فُصوص المخ!

- لم يكن من الممكن أن نقف عند الحدود النظرية.. كان لا بدَّ من تفعيلِ وسائلنا العلميّة لنتعاملَ مع ما نواجهه من الأمراض النفسيّة والذهانيّة.. كان لا بدَّ في النهاية من اللجوء للعلاج الماديّ.. وإلّا كيفَ سنصلُ إلى الشفاء؟
- لقد كان هذا هو الاختيارُ الأسهل.. بعدما عانى الآباء الأوائل لـ"علم النفس" في وضع قواعده، جاء مَن بَعدهم وقدّموه هديّة بلا ثمن لرجال "العلم التجريبي" التافه الذي لا يفهم إلّا الجسد.. فأصبح علم النفس من وقتها حبيسًا داخل أسوار كليات الطب، يخضعُ لقواعدِ التشريح وكيمياء المخ ومستوى العصارة الصفراء ونوع الغِذاء.. ليجلسَ طبيبٌ لا يفهم نفسَه خلف مكتبه فيستمع إلى عقولٍ جبّارة استطاعت كسر سقف العالم والوصول إلى أبعدِ قدراتِ التفكير، ثم يقوم هذا البليد بإمساكِ قلمٍ وورقة بيضاء يكتب عليها مجموعة من العقاقير التي تخدر الروح والعقل ويزعم أنّه شفاء! ماذا فعل الطبّ النفسي؟! مجنونٌ واحد، تقف أمامه امبراطورية من الأطباء بمَراجعهم ونظرياتهم وتجاربهم عاجزةً، فيظلُّ في برجه العالي لا ينال أحدٌ من عقله وهو نزيلٌ بمصحّاتهم لعشرين أو ثلاثين سنة.. لم يصل مجنونٌ واحد إلى "الشفاء" الذي يسمونه شفاء! ثم

بعد هذا يزعمون أنّهم أطباء وأنهم أصحاب العلم التجريبي والكيميائي والإكلينيكي الذي حوّلَ علم النفس، من علمٍ نظريّ، إلى علمٍ "عمليّ" جديرٍ بالاحترام! أين هو الدليلُ على هذا؟ وبأيّ مقياسٍ نحكم أيها القيّاس؟

- أيها الاستاذ المبجل، ربما يكون من الحماقة أن أعلّق على كلماتك المرعبة تلك، لكن سامحني، أعلم أنّك تقول هذا الكلام بشواهدَ حقيقية، وأعرف أنَّ ما وصلنا إليه بالغُ التردّي. لكنّي اختلفُ معك في زاوية الرؤية.. أنت ترى أنَّ البناء كلّه يحتاج للإزالة، بينما لازلتُ مؤمنًا أنّه يعاني من تشقّقاتٍ كبيرة لكنّها قابلة للترميم.. هل ستقف اليوم يا دكتور أمام مجتمع بأكمله يذوب عقلُه في الجنون كقطعة من الملح تمَّ إلقاؤها في الماء؟ وكلُّ لحظةٍ تمرُّ، تهرول بها نحو الزوال؟ لأجل قطعة الملح هذه طلبتُ مقابلتك، هل سننتشل قطعةَ الملح ونجفّفُ الماء الذي يبتلعُها؟ أم نجلس مئة سنة لنعيد النظر في علومنا؟ بأيهما نبدأ وكيف نبدأ؟! الجنون في الخارج يتحرّك في كلِّ مكان لا يوقفه بابٌ موصد ولا سدٌّ منيع. وأنت الآن تحدّثني عن فساد منطق الطبّ النفسي بأسرِه! أتفق معك أنّه يجب مراجعة كلُّ شيء، لكن هل نفعلُ هذا ونحن في وسط المعركة والعدو محتشدٌ في كلِّ الميادين؟ نحن لا نملك الوقت حتّى لتذخير البنادق، فكيف تطالبني بالتخلّي عن البندقية ذاتها؟

- لأنَّ رصاصَتها سترتدّ إلى الخلف يا بُنيّ!!

- إذا كان ذلك كذلك، فدعني أسألك، لماذا قبلتَ انتدابكَ للفصل في قضية رسول؟ وأنت تعلم أنَّ كلمتكَ قولٌ فصلٌ يأخذُ بها الجميع، لماذا قمتَ بدور الطبيب وأنت تكفر بالطب كلّه؟!

- هذا ما كان يظنّه المغفّلون من حولي! لم يفهموا أنّي قبلتُ بهذا الدور لأقتربَ من الرجل الذي أنهى كلَّ شكوكي التي راودتني لأكثر من ثلاثين سنة في هذا العمل الضال. ذهبتُ إليه لأنّي أنا من احتاج له. هذا الرجل هو دليلُ البداية، لقد أصبح الإنسان قادرًا على أن يصبح ما يريد، إذا اتخذَ قرارَه! فذهبتُ إليه وقلتُ الحقيقة التي لم يفهمها لا الأطباء ولا القُضاة: "هذا الرجل قرَّر أن يكون مجنونًا، ونجح"، فتوقّفوا عند كلمة "مجنون"، ولم ينتبهوا لكلمة "قرّرَ"!

- أنت في صفِّ الجنون إذًا يا دكتور! إذن ساعدني لأفهم هذا الجنون وأراه بعينك. فلتقبَل وجودك معنا في المارستان، لنستدلَّ برأيك ونرى الأمر من الزاوية الأخرى.. عندما سألني مدير المصحة عن إصراري على مقابلتك قلتُ له أنّنا بحاجةٍ لعالِم مثلك نرجع إليه وهو وسط الميدان يرى كلَّ ما نرى. وقد أخبرني أنّه من المستحيل أن تقبل. وأنا أطالبك بحقِّ هذا العلم الذي عندك ولا يحقُّ لك أن تكتمه، حتّى لو كان ضدَّ كلِّ النظريات التي نعمل وفقًا لها،

أن تكون معنا، فإنَّ ما قلتَه الآن زادني يقينًا بأنَّ وجودك سيكون هو الجسر لفهم ما يحدث.

- هل تريد جاسوسًا على المجانين أيها الولد؟!
- بل أريد أن أصلَ إلى الحقيقة مثلك. فإن كان الطب النفسي الذي تعلمناه في الجامعات خطأً، أو ضلالًا كما تسميه، فأنت ومن مثلك من العلماء من علّمتمونا هذا الضلال! فإن كُنتَ وصلتَ الآن إلى الحقيقة فإنَّ شرفَكَ يُلزمك بأن تصحّح ما علّمتنا إيّاه، فنحنُ حصادُك أيها الزارع المبجل، وعليك أن تكونَ معنا لتصحّح مواضع البذور التي غرسَتها يدُك!

قام الدكتور ناصف عن كرسيّه ومشى نحو الباب وفتحه وهو يمدُّ ذراعه للطبيب الشاب، مشيرًا له بالخروج وهو يضرب بسبابته على ساعةِ يدِه الممتدّة بالطرد! فنهض الطبيب عن كرسيه الخشبي ومشى بخطواتٍ بطيئة نحو الباب، فقال له الدكتور ناصف قبل أن يصله: "قد قبلتُ دعوتك للعمل بالمارستان، ليس لأنَّ كلماتك مؤثرة ولا لأنّك أقنعتني! لكن لأنّك استطعت أن تتجاوزَ النصفَ ساعة التي أحدّدها للجميع بخمس عشرة دقيقة زائدة دون أن أشعر! وهذا ما لم يحدث أبدًا مع أيِّ زائر آخر منذ عشرين سنة!".

●●●

«المجنونُ ليسَ سوى رجلٍ رفَضَ المجتمعُ أن يستمِعَ إليه ،
بل وأراد أن يمنَعَه من البوح بحقائقَ لا تُحتمل..»

"أنطوان أرتو"

المارستان

أو (المارستان الكبير)، كما أصبح يسميه الناسُ تمييزًا له عن باقي المصحّات العقليّة، المنتشرة في العاصمة، وكلّ المدن الكبرى.

كان المارستان في زمنِ الاستعمار سجنًا، يتكوَّنُ من ثلاثة طوابق، طابقٌ فوقَ الأرض لإدارةِ السجن، وطابقان تحتها بهما زنازين المساجين. لم يكن السجن للمجرمين واللصوص، إنّما كان فقط لمن يطالبون بالحرّية ويفكّرون أكثرَ ممَّا يجب، كأنّهم مجانين!!

حول طابق المبنى الطافي فوقَ الأرض، كان هناك فناءٌ كبير يحيطُ به بشكلٍ دائري، فكان المبنى مثل نقطةِ ارتكازٍ وسط دائرةٍ من الفراغ، يُحيط بها سورٌ ضخمٌ يرتفعُ لأكثرَ من عشرين ذراعًا.

بعد مرورِ عقودٍ على زمن الاستعمار، بقيَ السجن على حاله، لكن تغيَّرت اليافطةُ الموجودة فوقَ البوابة السوداء الكبيرة، التي يُطعّمها أشكالٌ نحاسيَّة من يدقّقُ فيها يكتشف أنَّها صورٌ لوجوهٍ منحوتة في النحاس تحملُ عيونًا كبيرة مفتوحة، ولا شيءَ غيرها، بلا فمٍ ولا أنف، وكلُّ وجهٍ تحيطُ به ثلاثةٌ من الأسودِ

المنحوتة، المطليَّة باللون الأبيض، وفمُها مفتوحٌ تتأهَّبُ للافتراس. أعلى البوابة الكبيرة وُضعت اليافطة الجديدة التي غيَّرت تاريخَ السجن وهويَّته، مكتوبٌ عليها بلونٍ أحمرَ حائل من أثرِ الشمس: المارستان.

بقيَ المبنى القديم على حاله، ثمَّ تمَّت إضافةُ مبنيين كبيرين عن يمينه ويساره، كأنَّهما جناحانِ يمتدَّانِ رأسيًّا، كلٌّ منهما سبعة طوابق فوق الأرض، والمبنى القديم بطابقهِ الوحيد بينهما، فأصبح في وضعِ طائرٍ جاثمٍ على الأرض، له جناحان يرتفعان نحو السماء، لكنَّهما غير قادران على حَملِه على الطيران.

من داخل المارستان، أصبحَت تُدار المعركة الكبرى مع الجنون، فيقوم الأطباء والممرضون بالدور الذي حدَّدته الدولة منذ أقدم العصور: تخليصُ تلك العقول من أفكارها التي تخالفُ ما هو مرسومٌ للجميع، وإعادتهم إلى الحظيرة بهدوء، أو يظلون، خارج دائرة المجتمع، يحيط بهم سياجٌ منيع يحُول بين أفكارهم المربكة وبين العقول الوديعة التي تستجيبُ بصمتٍ لما يُملى عليها.

يقومُ المارستان على قواعدَ ثابتة لا تتغيّر، يحدّدها مدير المصحة، ويقوم على تنفيذها جيشٌ من العاملين، الذين تتمايزُ رُتَبهم بين طبيب ومساعد طبيب وممرض، فيسيرُ كلُّ شيءٍ بدّقةٍ متناهية تمَّ تحديدها سلفًا، كأنّه دولةٌ صغيرة يحيط بها سور، تمثّلُ نسخةً مطابقة للدولة الكبرى. أمّا رعيّتُهم، وعلى صخبهم وشذوذ فِعالهم وضربهم للقواعد، إلّا أنّه من الممكن دومًا

إخضاعهم، أو إسكاتهم على أقل تقدير، فالمارستان يمتلكُ وسائلَه التي لا تخيب، ومن يخالف القاعدة يتعرضُّ للعقاب الذي يمكن تسميتُهُ بكلمةٍ أكثر لطفًا: "العلاج"، لكنَّ رعية المارستان، بعد انتشار الجنون، لم يعد إخضاعُها أو السيطرة عليها بالأمرِ الهيّن، فهؤلاء لم يضربهم الجنون بيدِ القدر، إنما بيد الإرادة، التي تكمن في أرواحِهم، فباتت كلُّ وسائل المارستان عاجزة أمامَ إرادةِ إنسانٍ، قرّرَ أن يكون مجنونًا، ونجح.

●●●

لم يكن رسول مجرَّدَ مريضٍ عقليّ تمَّ إيداعُه المارستان، بناءً على حكم قضائيّ، بعدَ محاكمة انتظرَت الدولة كلّها النطقَ فيها. كانت الدولة تريد إثبات أنَّه مجرَّدُ مجرم قامَ بارتكابِ جناية كتلك التي تحدث كلَّ يوم مئاتَ المرَّات، وأنَّه مجرَّدُ رجل كانت لديه شكوكٌ في شرفِ زوجته، لم يستطِع أن يحاسبَها وهي حيَّة فعاقبَها وهي ميّتة بإخراجِ رُفاتِها وإشعال النارِ فيه وفي القبر. الناسُ في بادئ الأمر، ودونَ أن يدركوا قوَّةَ الوحش الذي يواجههم، تمنّوا أن يكونَ رسول مجنونًا قامَ بأحدِ الأمور المدهشة الجديرة بشغلِ مساحةٍ من حديثِهم المملول على الدوام، وكسرِ رتابةِ حياتهم، لكنَّهم بعدَ ذلك، وعندما أصبحَ الجنون هو العنقاء التي تُطِّل برأسِها كلَّ صباحٍ ومساء لتختطفَ عقولَ أحبَّتِهم، تمنَّوا لو كان رسول مجرَّدَ مجرمٍ! وأنَّ كلَّ هذا الذي يحدث مسلسلٌ سخيف يقوم فيه ألفُ ألفِ ممثِّل بأداء دورٍ رديء وغير متقن.. لكنَّ القضاء، وبعدَ سماع المختصين، خضَعَ للحقيقة المفزعة، وأقرَّ بوجودِ شمسِ الجنون خلفَ ستائر السحاب.. حتّى لو لم يكن وجهُها جليًّا فإنَّ حرارتَها تلسعُ الوجوه بغيرِ شعاع، تلسعُها من أبعد نقطة في الأفق، وتنشرُ الخوف في الجميع. إنَّهُ مجنون. هكذا نطق القاضي مُقرًّا بأوَّلِ نوعٍ لم يَعرِفه أحدٌ من قبل، أنَّ أحَدَهم قرَّرَ أن يكون مجنونًا ونجَح. **الجنونُ إرادة.** أصبحَ الأمرُ متروكًا لكلِّ شخص، فمن شاءَ عقلَ، ومن شاءَ جُنّ.

بعدما خرج القرار بإيداع رسول المارستان، انطلقت به سيارة الشرطة المحاطة بحراسةٍ مشدّدة، رغم أنّه لا شيء يتهدّد السيارة، ولا يوجد أيُّ شخص أو جهة ترغب في تحريره! الخوفُ كان نابعًا من الداخل، فكان الفزعُ أكبر. لأوّل مرّة تقف إدارة المارستان بأكملها لاستقبال مجنون قادم إليها، كان الجميع متلهّفًا لرؤية رسول. رسول الجنون إلى الناس. ذاك الذي يحكي له السرير أسرارَ من نام عليه ولو لغمضةِ عين واحدة، فيكشف أحلامَه وأفكاره وأكثر مخاوفه فزعًا وأبشع خفايا نفسه خزيًا، فاستقبلوه كأنّه قائدُ جيشٍ جبّار، أحرقَ المدن ودمّرَ الحضارة وذبَح الأطفال، والآن هو أسيرٌ تقيّده السلاسل.

كانوا يتصرّفون كأنّهم غير مختصّين في معالجة الجنون، وكأنّهم لا يحيَون ليلًا ونهارًا بين المجانين! فوقفوا كنساءٍ فضوليّات، يقفن بالشرفات لرؤية أحد الغرباء!

لسببٍ غير مفهوم، قرّرت إدارة المارستان عزلَه من أوّلِ يوم بعيدًا عن المجانين، خوفًا أن يصيبَ جنونُه الغريب المجانينَ الذين اعتادت المصحة جنونَهم! رغم أنَّ الأمرَ لا منطقَ له، فهو ليس مجنونًا مهتاجًا ولا هو قام بقتل أو إيذاء أيِّ أحد، إلّا إذا اعتبرنا أنَّ حرقَ رفاتٍ لإنسانٍ ميّت يُعدُّ قتلًا! ولم يعترض أيُّ طبيب على ذاك العزل، كان الجميعُ متّفقينَ، دونَ اتفاقٍ، على أنَّ هذا الرجل يجب أن يكون بعيدًا حتّى عن المجانين.

لم يتمَّ وضعُه بالمبنى الخاص بالمجانين من الرجال، وقطعًا لم يضعوه بالمبنى الخاص بالنساء، فالمرأةُ في رأي الجميع -حتّى الأطباء- هي أكثر من يتفهّم الجنون، ويقبَله! ولذلك عزلوه بالمبنى القديم في إحدى الغرف التي تقع بالطابق الثاني تحت الأرض، تلك الغرف التي لم يكن يقطنها أيُّ أحدٍ من المجانين منذ تحويل السجن إلى مصحة عقلية. فتمَّ حبسُه انفراديًّا، أو كما كانت تقول الإدارة: "عزلَه".

كان الطبيب الشاب هو المكلَّف بمتابعة حالة رسول، ذاك التكليف الذي كان يتمنّاه الجميع، لا لقدرتهم على التعامل مع رسول، إنّما لرغبتهم -الممزوجة بالخوف- في الاقتراب من ذاك الرجل الذي كان ظهورُ جنونِه بدايةً لسقوط أحجار الدومينو.. كانت رغبتهم الجامحة متساوية مع خوفِهم المقلق من الاقتراب منه.. الجميع يريد أن يتعرّف عن قرب على الرجل الذي يستطيع أن يُقنع غيرَه بالجنون، هكذا وبتلك البساطة يقنعه!! ذاك النمط الذي لم يعرفه علم النفس أبدًا ولا اختبَرَته كلُّ تجارب الأوّلين مع الأمراض العقلية، فلم يكن هناك في أيّ يوم من الأيام وجودٌ لجنونٍ يتمُّ بالإقناع!

لم يستمر اللقاء الأوّل بين الطبيب الشاب ورسول لأكثر من عشرين دقيقة. كان بمثابة تلمُّسٍ للأرض، وتحديد أين عليه أن يضع قدمَه فوق البحيرة المتجمدة التي قد ينهار جليدها بأيّ لحظةٍ، فيبتلعه الماء.

رسول، على هيئته منذ دخل غرفة العزل، يجلسُ هادئًا، فوق السرير الحديدي الذي لم تكن قد جلبت له إدارة المصحة مرتبةً أو غطاءً بعد، فقد انشغلَت باستقباله عن كيفية استقباله! كان الطبيب يجلس أمامه، على كرسيٍّ خشبي به الكثير من البقع السوداء نتيجة لتغيّر لون الطلاء القديم، بعدما عرّفه بنفسه أخبَرَه أنّه الطبيبُ المسؤول عن رعايته والتعامل معه، محاولًا رسم ابتسامة، غير موفقة، لتحقيقِ شيءٍ من التواصل والثقة.

بدأ الطبيب الشاب كلامَه مؤكِّدًا أنَّ المكان للعلاج وليس للسجن، مدعّمًا كلامه هذا بقوله: "لقد بذل الأطباء مجهودًا جبّارًا لإقناع القاضي بأنّك لست مجرمًا، وفعلنا كلَّ شيء لإبعادك عن السجن حتّى نجحنا في ذلك".. عندها نظر رسول إلى غرفته الضيقة وسريره العاري والحوائط الصلبة الصامتة من حوله، الخالية من أيّ منفذٍ للهواء سوى نافذةٍ صغيرة لا يمكن حتّى لطفل أن يخرج منها، كانت فوق باب الغرفة الحديدي، ولم يردّ.. فاسترسل الطبيب الشاب في حديثه عن المصحة وما توفّره لمرضاها، وأنَّ إقامته بتلك الغرفة المنفردة لن تدوم طويلًا. فسأله رسول دون مقدّمات:

- هل كلُّ الأطباء مثلك؟
- ماذا تقصد بمثلي؟!
- يجلسون أمام مرضاهم هكذا وهم خائفون منهم.

- أنا لا أخافك يا رسول. ما الذي جعلك تظنُّ هذا وأنا أجلس معك بالغرفة ذاتها والباب مغلق ولا أحد يقيّدك أو يحدُّ من حركتك؟
- أُنظر إلى وجهك أيها الطبيب وأنت تدرك عمق خوفك.
- وهل لديك ما يجعلني أخاف منك؟
- نعم.
- جيّد، إذن يجب أن أخاف منك، مادمتَ ترى أنّك مستحقٌّ للرهبة، الآن لندَع خوفي منك جانبًا، وأخبِرني لماذا أحرقتَ رفات زوجتك بعد موتها بمدّة كبيرة؟ وما الذي أخبرك به سريرُها تحديدًا؟
- أنت الآن تسألني كأحد مرضاك المجانين.. وبعد قليل ستخرج ورقةً وقلمًا لتدوّن ما وصلَتْ إليه حالتي من سوء! أليس كذلك؟
- أنا طبيبك يا رسول.. أجلسُ هنا لأني بجوارك وأقف في صفّك. فثق بي.
- أيها الطبيب. دلّني على سريرك، وأنا أخبرُكَ بكلِّ مخازيك.

نطقها وهو يغرز نظرته بعين الطبيب الشاب، فارتجَّ العلمُ الذي حصّلَه لسنوات داخل رأسه، أمام تلك النظرة الواثقة المسدّدَة، وبدى كلُّ شيءٍ قابلًا للشكّ! فأغلقَ أزرارَ قميصه الأبيض، وغادر.

●●●

من بين كلِّ "الحزانى" الذين رأيتُهم، ومن بين كلِّ هؤلاء الذين رأيتُ الجنون يأكل أرواحهم ويذّلُ إنسانيتهم، لم أرَ قطُّ شيئًا أكثر حزنًا، وقهرًا، من هؤلاء المجانين الذين يسكنون الزوايا ويختبئون من شيءٍ يذبحُ قلوبَهم بقسوةٍ مفرطة. يُرخون رؤوسَهم فوقَ صدورهِم، كأنَّ أعناقَهم صارت حبلًا ليّنًا لا يقدر على حمل الرأس فسقَطَت حزنًا فوقَ الصدور، ويُحلِّقُون أيديهم فوقَ رؤوسهم، أو يُخبئون بها وجوهَهم لساعاتٍ طويلة بلا حركةٍ واحدة، أو هزّة رأس، أو تحريكِ عضو. لقد كانوا تعساءَ، أكثر من التعاسة ذاتها.

هؤلاء الذين عجزَت أمام أحزانِهم كلُّ طرق الشفاء، ووقَفَت بلا حول ولا قوّة كلُّ طرائق العلاج، مستسلمونَ كخرقةٍ بالية ترتفع إذا رفعتَها وتسقط إن تركتَها، كنتُ أتساءل دومًا، أيّ خيانة تعرضوا لها، أو أيّ خذلانٍ مرير، ذاك الذي نَزع آدميَّتهم وسلبَهم أرواحَهم ثم ألقى بهم كحجرٍ في بئر الحزن الذي لا ينتهي أبدًا؟!

كان ذاك الرجل، الذي يبدو في الخمسين من عمره، أكثرهم إثارةً لشفقتي وحيرتي معًا، هيئتُه وقورةٌ تخبر عن مكانةٍ كانت له قبل أن يسحقه الجنون، ولا يزاحم الحزنَ في عينيه شيءٌ

إلّا الذكاءُ المتّقد في نظرته والذي يتجلّى بوضوح حين يُفلتُه القهرُ من قبضتهِ ساعةً كلَّ بضعة أيام. لا يتكلّم كثيرًا في تلك الساعة، لكنّه يتحرّك وينظرُ حوله من وقتٍ لآخر، كأنّه يتساءل عن سبب وجوده في هذا المكان الغريب.

كان واحدًا من المئات الذين جاءت بهم سيارات الشرطة لتلقي بهم إلينا، وكلُّ ما استطعتُ أن أعرفه أنَّ اسمَه رؤوف، حين سمعتُ المرأةَ الوحيدة التي كانت تزوره بشكلٍ منتظم تناديه به. كانت لا تقلُّ عنه غرابةً! كثيرًا ما حاولتُ أن أتحدّث إليها، لأصل إلى أيّ معلومة عنه، لكن باءت كلُّ محاولاتي بالفشل أمام صمتها.

كانت تأتي لزيارته صباحَ كلِّ سبت، لتجلس بجواره بلا كلمة، تنظر لرأسِه المتهدّلة على صدره ويديه الملتفّتين حول ركبتيه، ودموعُها لا تتوقّف لحظةً واحدة. لم أرَ بحياتي كلّها امرأةً يمكنها أن تبكي لساعاتٍ بلا توقّف مثل هذه المرأة! لقد كان الأمرُ مخالفًا حتّى للطبيعة البيولوجية لقدرةِ الغُدد الدمعيّة على إفراز هذا النهر الذي لا يوقفه شيء! تبكي بلا صوت وعيونها متسمّرة على رأسه، لا تفعل أيَّ شيء، ولا تقوم بأيّ حركة، إلّا مسحَ رأسِه بكفّها من وقتٍ لآخر، حتّى إذا هدّها التعبُ واستنفدَت الدموعُ قوتَّها، أمسكَت برجله تمدّدها، وهو لا يقاوم أيَّ تدخّل بجسدِه، ثم تنام على فخذه وتستكمل وصلةَ الدموع، وهو لا ينظرُ إليها، لا يراها، ولا يشعر بها.

مرّاتٍ قليلة كانا يتبادلان جملةً واحدة، كأنّما غِطاءُ الجنون يرتفعُ للحظة ثم يعود! ينظرُ لها سائلًا: "إلى متى سيدوم هذا الحزن العظيم؟" فتضمُّ رأسَه إلى صدرها وتردُّ عليه: "إلى الأبد يا حبيبي. إلى الأبد."، ثم يعودُ الصمتُ والدموع، حتّى يأتي الممرّضون في الساعة الرابعة لإخراج الزوار، فتنهض بعدما تقبّل رجليه، وتعود إلى المجهول الذي يقذفُها صباحَ كلِّ سبتٍ جديد.

عندما استوقفتُها مرّةً لأسألها عن علاقتها به لم تردَّ عليّ بنصفِ كلمة، إلّا بعدما هدّدتُها بأني سأمنَعُها من الزيارة إن لم تتكلّم. ردَّت بجملةٍ واحدة. نطقَتها بحزمٍ ويقينٍ مخيف، فلم يُداخِلني شكٌّ في صدقِ عزمها وهي تتوعدّني: اِفعلها وسأقتُلُكَ.

انتهى.

وسط المارستان الكبير الذي امتلأ عن آخره، وأصبح الجنون يتساقط عن حوافه لكثرة الذين يفدون إليه كلَّ يوم، كان هناك عددٌ من المجانين الذين يعرفهم كلُّ العاملين بالمارستان، ويحظون بما يشبه الاحترام، أو ما يمكن أن نسميه بشكلٍ أكثر واقعيّة: "اهتمام". إنّهم أولئكَ الذين ذاع صيتُهم قبل دخولِهم إلى المارستان، وعلى رأسهم رسول وسماع وديميان، وكثيرٌ من زعماء المجانين الحالمين والمجانين الأموات.

بجوار الزُمَر التي يوحّدُها نمطُ الجنون، كان هناك المجانين المتفرّدون، لكلٍّ منهم جنونه الخاص الذي يميزه، وكان لبعضهم أماكن ثابتة، ما إن يتمّ إخراجهم من العنابر المزدحمة إلى الفناء الكبير حتّى يذهب كلٌّ منهم إلى مكانه، مثل صانع الآلهة الذي اشتهر في إدارة المارستان بهذا الاسم، وإن كان البعض يطلق عليه تندّرًا "مروّض الآلهة". كان مكانه المفضّل دومًا تحت شجرة المانجو، وسط الحديقة الخالية من كلِّ الأشجارِ سواها! يضعُ لوحاته ويمسكُ بأدوات الرسم التي كان يحملها معه في كلِّ مكان، ويقوم برسمِ أجسامٍ بشرية لها جناحان، أو مبتورة الساق، أو جسد يحملُ صخرة.. من ينظر إلى لوحاتِه الصغيرة يعرف على الفور ومن أوّل نظرة أنَّ هذا المجنون يعرف كلَّ آلهةِ اليونان وأساطيرهم! فكلُّ لوحةٍ تمثّلُ إلهًا من "آلهة الأوليمب" القدامى، وبعدما ينتهي من لوحاته يجلس أمام كلٍّ منها محاولًا إقناع الآلهة

بكلمات متداخلة عن ضرورة تخلّيها عن الألوهية! يذكر كلمات من قبيل أنَّ "السماء شديدة البرد والظلام" وأنَّ "حياة الأرض أفضل"، وعندما يرى ديميان بالساحة، يقف أمامه ويضعُ يده على كتفه، ثم يقول له، من وسط جميع الآلهة لم أرسم لوحةً لكَ، لأنَّك الإله الوحيد الحكيم الذي اختار أن يكون إنسانا!

كانت عادة الأطباء ألّا ينزلوا إلى فناء المارستان وحدائقه الخالية، ويتركون متابعة المرضى للممرّضين والحراس الذين لم يكونوا بحاجةٍ لأيّ تدخلات، فكلُّ مجنونٍ كان يمارس جنونَه الخاص براحةٍ وسلام، ودون تعرُّضٍ لمن حوله.. أغلب حالات الهياج كانت لا تحدث إلّا وسط العنابر عندما يتمُّ توجيه المرضى لشيٍ معيّن، وحين يُتركَون لأنفسهم، يظلّون هادئين مثلَ حشائشَ تنمو بهدوءٍ، دون أن تزعج من بجوارها، رغم ازدحام الأرض بها.. وحده الطبيب الشاب كان يحافظ على التجوّل وسط المجانين كلَّ يوم أثناء وجودهم بالفناء الكبير بعدما يخلع قميصه الأبيض، وأحيانًا يجلس بزاويةٍ منعزلة ويراقب عن بعد، وأثناء وجودهم بالعنابر يظلُّ ينتقل من عنبر لآخر كأنّه يبحث عن خاتمٍ ذهبي سقط وسط الرمالِ الصفراء، ثمَّ عندما يخلو بنفسه في غرفته يبدأُ في تدوين كلِّ ملاحظاته ومذكراته، يُفرغ فيها روحَه، ومخاوفه، وكلَّ ما يدور، دونَ أن يُهمل حتّى الأحداث العابرة! كأنّه يريد توثيقَ تاريخٍ يخشى من طمسِه، وتزويره، إن هو لم يقم بتوثيقه.

●●●

ما الذي يعرفه الدكتور ناصف عن هذا الجنون ولم يعرفه أحدٌ سواه؟ كنت أظنُّ أنَّ ما يقوله يمثّلُ إحباطَ عالِمٍ كبير، وكنت على ثقةٍ كبيرة أنّه عندما يفي بوعده ويأتي إلى المارستان سيغيّر موقفه، لكنَّ ما يحدث هنا يجعلُ منطقَه هو المنطقُ الوحيد الذي يبدو صحيحًا. لقد بدأ الشكُّ يتسرّب لنفسي بقوّة، ماذا صنعَ الطبُّ النفسي هنا؟

إنَّ كلَّ ما نتّبعه من وسائل باتَ بلا فائدة ولا نتيجة، لم يتحسن مريض واحد، فضلًا عن أن يصل إلى الشفاء.. المجانين يتمسّكون بجنونِهم في مواجهة كلِّ علاج، إنهم يقاومون بالجنون. وكأنَّ هذا الخلل، أصبحَ هو شغفَهم بالحياة.

كلُّ الفريق الطبي هنا يقف عاجزًا، كلُّ طبيب يرتجل بطريقته الخاصة ما يشاء، حتّى أنّنا عدنا إلى استخدام الطرق البائدة، لقد ارتدَّ الطبُّ ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء، فأصبحنا نستخدم لعلاج "السوداويّة" مهدئات "الأفيون" و"البلادونا" و"الخربق الأسود"! حتّى أصبحتُ أتوقّع أن يدخل طبيبٌ إلى المصحة وفي يده ساحرٌ يتلو تعاويذَه، أو شيخٌ يتلو رُقية، أو قِسّيس يحمل صليبَ شفاء! نحن نقاتل شبحًا في الظلام ونتخبَّطُ بقوّة، بينما المجانين يجلسون بثقة وطمأنينة في أبراج جنونهم

الحصينة، ولا يستطيع أيُّ أحد أن ينفذَ إلى عالمهم أو يستخرجهم منه.. فهل يجب أن نصبح مجانين لنفهم حقًّا ماذا يحدث داخل عقول هؤلاء؟

الدكتور ناصف وحده يستطيع هذا. لكنَّه لم يحضر بعد، ولا أحسبه سيفعل. لقد أصبح في صف الجنون! يرانا كغزاةٍ لموطنِه وليس كأطباء تعلّموا على يده.. ما أبأسَ أن تشعر أنّك مسؤول عن إصلاح العالم، وهو لا يكترثُ لك!

لا شيء في يدي، وليس أمامي سوى الانتظار، ومزيدٍ من القتال، الذي لا أعرف إلى أيِّ فريق سينحازُ النصر فيه.

انتهى.

أراد الطبيب الشاب أن يواجِه الجنونَ بالجنون، ليرى هل ستخرجُ شرارةٌ من احتكاكِ تلكَ العقول ببعضها أم سيهطل المطر؟ فلن تتسنّى لأيّ طبيبٍ في العالم تلك الفرصة التي حظِيَ بها حين اجتمع أمامَهُ أعتى أنواع الجنون في ظاهرةٍ لم تشهدها البشرية من قبل، فلا يحدثُ كلَّ يوم أن يصابَ هذا العدد الرهيب بالجنون في مكانٍ وزمانٍ واحد، وها هو، وفي حوزته الآباء الاوائل لهذا الجنون الذين كانوا بدايةً لكلّ شيء، فقرَّر أن يخوض تلك التجربة التي لها مذاقُ المقامرة، حين عقَد لقاءً بين رُسُلِ الجنون، بعدما أخبره لبيب بحكايةِ كلٍّ منهم.

سمحت له إدارة المارستان أن يفعل ما يشاء، وبعدما كان محرَّمًا خروجُ رسول من غرفة العزل، أصبح القرار بيدِ الطبيب الشاب، الذي قرَّر أن يعقد لقاءً بين رسول وديميان المتأله، وهو ينتظرُ صوتَ الرعدِ من اصطدامِ السحبِ الجبّارة، لكنّه لم يرَ إلّا سحابًا يمُرُّ بجوارِ سحابٍ، بهدوءٍ ودونَ اصطدام.

لم يكن بالحديقة الكبرى غير ديميان، يجلس تحت شجرة المانجو، وبقيّة المجانين يتناثرون بعيدًا في المكان.. كان ينظر نحو شيءٍ بعيد في السماء.. يُجلِّلُه الصمتُ والذهول.. اتّجهَ الطبيبُ نحوه وهو يمشي بجوار رسول حتّى وقفَا على رأسه، فنظر الطبيب الشاب إلى رسول وسأله: هل تعرف من هذا؟ لم يجبه رسول وجلس بجوار ديميان دون كلمة واحدة، فانسحبَ الطبيب الشاب

غيرَ بعيدٍ، وجلس على بعد أمتارٍ خلفَهما ضمن مسافةٍ تمكّنه من سماع حديثهما، إن دار بينهما حديث!

لثلاثِ ساعات وهو ينتظرُ قطرةَ مَطرٍ واحدة. لكنَّ السماء كانت صافيةً تمامًا، وشمسُ الخذلان قويّةٌ تُخبرُ أنَّ الصمتَ هو الحقيقةُ الوحيدة في حضرة الجنون!

غلبهُ اليأس. قام إليهما، وقال: "قم يا رسول"، فنهض رسول ومشى معه خطوتين، ثم تركه ورجع إلى ديميان فوضع يده على رأسه وتبسّم وقال له: "مباركٌ أنت في الأرض كما في السماء يا يسوع" ثم أعطاه ظهره وعاد للطبيب الذي وقف ذاهلًا أمام ما فعل! وقد أدركَ أنَّ رسول تحدّاهُ حين جلس بجوار ديميان ثلاثَ ساعاتٍ دون كلمة واحدة، لأنَّه يعلمُ أنَّ الطبيبَ جاءَ به ليدخِلَهُ في التجربة. فأَفسدَ عليهِ تجربَتَه.

عندما عاد به إلى غرفة العزل سأله:

- كيفَ عرفتَ أنه يسوع؟
- لأنّه لن يعرِفكَ أحدٌ إلّا إذا عرفتَ نفسك. وهو قد عَرفَ نفسَه، فعرفتُه!
- هو مجنونٌ يا رسول. اسمه ديميان، يعملُ حارسًا بالجامعة ومتزوّجٌ وله أسرة، وليسَ يسوع. لكن أنت جعلتَ منه مجنونًا حين قلتَ له أنّهُ يسوع.
- أنا لم أقل له أنّه يسوع!

- ألم تفعل هذا بالفندق قبل أن يصيبَهُ الجنون؟ استمعتَ لسريرهِ وقلتَ له ما قلت، فصارَ مجنونًا. قد أخبرني لبيب بكُلِّ ما حدث.
- قلت له "مباركٌ أنتَ في الأرض كما في السماء"، ولم أقل له أنّه يسوع.
- فلماذا ناديتَهُ الآن بـ"يسوع"؟!
- لأنَه يومَ الفندق كان يحلمُ فقط أنّه يسوع، هكذا أخبَرني سريره. أمَّا اليوم فقد صار حُلمُه حقيقة. فناديتهُ باسمه.
- أنتَ لستَ مجنونًا. لكنك تُحرّض على الجنون! أنتَ تعلمُ جيّدًا ما تفعل يا رسول..
- أنتم الذينَ قُلتم أنّي مجنون! أنتَ ورفاقُكَ الأطبّاء والقاضي، ولم أقُل أنا هذا. فلماذا تحدّثني كأنّني كذبتُ عليكم؟ وتريدُ أن تحمّلَني جنايةَ حُمقِكم!
- أنا لستُ قاضيًا ولا أحاسبُكَ على شيء! فقط أريد أن أساعدكَ، فساعدني على هذا.
- تريدُ أن تُساعدَ نفسَك وتثبت ما تظنُّ أنّه الحقيقة! تريد فقط أن تثبت أنّي مجنون، ثمَّ تجعل منّي عاقلًا، لتجلسَ بين زملائك فتشعرَ بالنصر وأنت تحكي لهم عن إنجازك الكبير..
- هذا هو دوري يا رسول، فأنا طبيبك، وسأشعرُ بالرضا -وليس بالنصر- حين أساعدكَ لتتجاوز هذا الأمر. لا

أحدَ يحدّثهُ سرير! هذه هلاوس سبَّبتها لكَ خيانةُ زوجتك.

- وكيف عرفتَ أنّها قد خانت؟!

- أنتَ من قلت هذا.

- ولماذا تصدّقُ مجنونًا؟! وإذا صدّقتَهُ في هذهِ فلماذا كَذّبتهُ في تلك؟!

- لأنَّ الخيانة أمرٌ منطقيّ، يمكن أن يحدث بسهولة. لكنَّ سمَاعَكَ للأسِرّة هذيانٌ مخالفٌ للعقل، وضدَّ الطبيعة الإنسانيّة.

- إذا كانت تلك هي رؤيتك فأنتَ المسكينُ الذي يستحقُ العلاج، وليس أنا! الخيانةُ هي الشيءُ الوحيدُ غيرُ المنطقيّ في هذا العالم، والشيءُ الوحيدُ المخالفُ للعقل، وينزعُ كلَّ معنًى للإنسانية. لماذا يمكنُ أن يخونَ إنسان؟! ليس في الأرض، ولا في السماء، مبررٌ واحدٌ للخيانة. عندما عصى الشيطانُ أمْرَ الله ولم يسجد لآدم، لم يسقطه اللهُ من السماء! بل تركَهُ يرتعُ في الجنة ويوسوسُ لآدم هناك، لأنّه كان متمرّدًا بجسارة ورفضَ الأمرَ وجهًا لوجه. أمّا آدم فقد خانَ الثقة وزحف نحو الشجرة كالأفعى في الظلام وارتكبَ خيانتَه، فأخرجه الله من الجنة وأسقَطَه من السماء. لم يُسقِط المتمرّد وأسقطَ الخائن!

- عجيبٌ أمرُكَ يا رسول! إذا كانت لديكَ كلُّ هذه الحكمة فكيف تكون مجنونًا؟!
- وعجيبٌ أمرُكَ أيها الطبيب! إذا كانت لديكَ كلُّ هذه الحماقة فكيف تكون عاقلًا؟!

❁❁❁

كان في قدوم الدكتور ناصف إلى المارستان تسريةٌ لحزن الطبيب الشاب، وطاقةُ ضوءٍ يهتدي بها وسط العتمة، لا سيّما بعدما أخبره الدكتور ناصف أنّه سيعمل في المارستان كطبيب، ويتّبع كلَّ وسائل الطب النفسي المتعارف عليها وطرائقَه المعهودة. قال له سأفعل هذا كدليلٍ أخير على ما قلتُه لك ببيتي، وسأكون متجرّدًا من موقفي الخاص، وسأعملُ كأيّ طبيبٍ مغفّل يؤمن بما لقّنوه إيّاه من قواعد الطب النفسي! سأبذلُ قُصَارى جهدي معك، لا لأنّي أشكُّ فيما توصّلتُ إليه من قناعة، لكن لأمحو شكوكَكَ أنت! فإخلاصكَ نادرٌ وهو ما دعاني للمجيء إلى هنا. فإن نجحنا في علاجِ هؤلاء أو بعضهم أو حتّى مجنونٍ واحد، فإنّي أعِدُكَ أن أعود إلى التدريس في الجامعة كما كنتُ، وإن ثبُتَ لكَ ما قلتُهُ، فعليكَ أن تتّخذَ قرارك يا بنيّ وتفعل ما يتوجّب عليكَ فعلُه.

رضيَ الطبيبُ الشاب بتلك الصفقة العادلة، بل والسخيّة، وأصبح الدكتور ناصف بعدها يرافقه على الدوام، رافضًا التعاون مع أيّ طبيب غير الطبيب الشاب، وممتنعًا عن تقديم مشورةٍ لأحدٍ سِواه. وافقَ مديرُ المصحة على هذا، لمعرفته بأهميّة الدكتور ناصف الذي كان مجرّد وجودِه بينهم يمثل أملًا بحدِّ ذاته، فها هي المصحة تلجأ إلى الطبيبِ الأوّل في الدولة بأسرها. فماذا يمكنها أن تفعل أكثر من هذا؟!

كان الطبيب الشاب يعلم يقينًا أنَّ الدكتور ناصف لن يمكث بالمصحّة طويلًا، وسيعود لعزلته بعدما يسدّد الضربة القاضية للطب النفسي، لكنّه قد وعدَ بأن يكونَ محايدًا ولو بشكلٍ مؤقت، ويعملَ كطبيبٍ وفقًا للقواعد العلميّة للطب النفسي، ولذلك كان حريصًا أن يستغلَّ كلَّ دقيقة من وجوده، ولو استطاعَ أن يعرض عليه كلَّ مريضٍ بالمصحة لفعَل.

دُهِشَ الطبيبُ الشاب أمامَ الطرق العبقرية -وإن بدت غريبةً- تلك التي كان يستخدمها الدكتور ناصف للتعامل مع أنماط المجانين المتباينة.

كانت القاعدة الأولى التي استخدَمها: كلُّ شيءٍ بين الطبيب والمريض يحدُث على مستوى العاطفة. يجب أن يعلم المريض أنّكَ في صفّه، وأنّكَ لستَ مسيطرًا عليه، إنّما فقط تسير بجواره وتعامِلُ جنونَه على أنّه حقيقة! من خلال تلك العلاقة الدافئة يمكن أن تدحض الجنون دون أوامرَ مباشرة، ولو استخدمتَ التحايل والخدع، ومعاملة الجنون بشيءٍ من الجنون!.. وكانت القاعدةُ الثانية: اِجعل المجنونَ يتكلّم.. فالكلام بمثابةِ تسليك للمدخنة.

هذا ما حدث مع رجلين كان لديهما أعراضٌ من "الذهان الهوسي". رغم اختلاف نوع مخاوفهما إلّا أنَّ الجوهرَ كان واحدًا، والطريقةُ التي استخدَمها الدكتور ناصف معهما كانت هي نفسها.

كانت الحالة الأولى لرجلٍ مصابٍ بذهان مصحوبٍ بحالاتٍ من الفزع، وكثيرٍ من العنف، يعاني من ضلالات دائمة بأنّه محكومٌ عليه بالإعدام حرقًا، ممّا يجعله دائم الاختباء ليلًا ونهارًا، وإذا اقترب منه أيُّ أحد فإنّه يراه من الحراس الذين قَدِموا لاقتياده إلى المحرقة، ما جعله يُهاجم زوجتَهُ وأبناءه كلّما اقتربوا منه، وبعدما تمَّ نقلُه إلى المصحة كان الممرضون يعانون من عدم القدرة على الاقتراب منه لردّاتِ فعله بالغةِ العنف، فطبّق عليه الدكتور ناصف طريقة العلاج بـ"الإيهام". تمَّ تقييد المريض واقتياده إلى غرفةٍ حَرِصَ الدكتور ناصف أن تبدو مثل قاعةِ مَحكمة! وجلس بين رجلين عن يمينه وعن يساره وكلّفَ طبيبًا -لا يعرفهُ المريض- بأن يقوم بدور المحامي ويدافع عنه، وفي نهاية المحاكمة أعلن الدكتور ناصف أنَّ الرجلَ بريءٌ وغيرُ مستحقٍّ للحرق، وأسقط عنه جميع التهم التي لم يذكر أحدٌ ما هي، وقال له: "تستطيع الآن أن تحيا بحرّية، فلستَ مدينًا بشيء!".

المريض الآخر. كان مريضًا يعاني من ضلالاتٍ مختلفة. يتلوّى على الدوام، ويصرخ بصوتٍ مفزع، لأنَّ الضفادع دخلت إلى بطنه ولا تكفّ عن التقافز داخلَه! فأعطاه الدكتور ناصف دواءً مُقيئًا بعدما أحضر عددًا من الضفادع فأطلَقها وسط قيء المريض، الذي تبسّم حين رأى الضفادع أمامَه، وتحسّس بطنَه براحةٍ كبيرة بعدما قال له الدكتور ناصف: "مبارك شفاؤك، ها هي الضفادع قد غادرت، ويمكنكَ أن تنام دون أن تزعجكَ مرّةً أخرى!".

كِلا المريضَان أصبح يتعامل داخل المصحة بشكلٍ طبيعي، وقد زالت ضلالاتهما تمامًا، حتّى أنَّ الطبيب الشاب فكّرَ بكتابة تقرير يوصي بخروجهما من المارستان، لكنَّ الدكتور ناصف قال له: "لا تتعجّل، فالجنونُ لا يستسلمُ بسهولةٍ أبدًا!!".

●●●

الركيزةُ الأساسيّة في علاج الجنون تقوم على مبدأين أساسيَين هما: (العزل) و(النظام).

عزلُ المجنون عن وسطه ومحيطه الذي يحفّزُ جنونَه، بل ويكون هو المتسبّبَ فيه في كثيرٍ من الأحيان، وذلكَ بإبعاده عن كلّ المُثيرات التي ألِفها عقلُه المضطرب، وصُنع واقعٍ جديد يكون بمثابة غسلِ الإناء وتطهيره.. ثمَّ تأتي الخطوة الثانية: فرضُ النظام على تصرفاتِه، وهي الخطوةُ الأصعب، والتي تحتاج إلى كثيرٍ من تدخّل الأطباء والممرضين لإقناعِ عقلٍ لا يعرف المنطق بأنَّ هناك نظامًا يجب أن يُتّبع في النوم والاستيقاظ والحركة والغذاء، وهنا تختلف المدارس النفسيّة لتحقيق هذا النظام.. كنّا قديمًا نتبع نظامًا بسيطًا في المصحة، عندما كان الجنونُ مرَضَ البعض القليل، قبل أن يصبحَ لدينا آلاف المجانين داخل المارستان! كان النظام القديم يطبّق بشكلٍ سلس، كأنَّ الأطباء والمرضى قد اتفقوا عليه وتوافقوا بحكم العادة وطولِ مدّة الإقامة بالمصحة، فتكرارُ التوجيه مرّةً بعد مرّة جعَلَ المرضى يسأمون منَّا ويقومون بما يجب أن يقوموا به من تلقاء أنفسهم، وكان لدى الجميع الوقتُ والمساحة لتعلّم كلّ ما يجب تعلُّمه، أمّا الآن فقد أصبَحنا نواجه صنوفًا فريدة من الجنون بأعدادٍ أكبر من كلّ طاقاتنا، ممَّا جعل عمليّة الضبط وفرض النظام لا

تخضع لشكلٍ محدّد، إنّما كلُّ طبيب يطبّق ما يراه مناسبًا من الوسائل القديمة والحديثة بلا رقابةٍ عليه إلّا من مهاراته وضميره الطبي، إذ أنَّ العمل وسط كلِّ هذه الأعداد أصبح مِنَّةً من الأطباء وتفضّلًا، وأدركَت الإدارة هذا، فلم تفرِض نظامًا محدّدًا يعملُ به الجميع تحت رعايتها.

العقابُ والتهدئةُ بالماء هما الطريقة الأسهل لأغلبِ الأطباء مع المرضى الذين يمتازون بـ"الهياج" وكثرة الحركة والصراخ.. يضعونهم تحت مدفع المياه الباردة الذي يوجّهُ بقوّةٍ نحو الرأس حتّى يصلَ المريضُ إلى الشعورِ بالاختناق، ويظلُّ تحت غَمر المياه لفتراتٍ طويلة تصلُ أحيانًا لثلاثِ ساعات، يصبح بعدها أكثر هدوءًا. وكلَّما خالف القواعد المحدّدة يتمُّ إدخالُه غرفة المياه، أحيانًا لأجل التهدئة، وأحيانًا كثيرة لأجل العقاب.. ومع الوقت لم يَعُد هذا القرار تحتَ سُلطةِ الأطباء وحدَهم، إنَّما تمَّ إعطاءُ سلطاتٍ كبيرة للممرضين الذين كانوا يمثّلون الحلقةَ الأقوى داخل المصحة، ويقع على عاتقِهم المجهود الأكبر.. في البدء كان الأطباءُ يعطونهم الإرشادات التي يقومون بالعمل وفقًا لها، ثم بعد ذلك لم تعد لهم حاجةٌ لتلك الإرشادات، إنّما يتصرفون وفقًا لرؤيتِهم. أمامَ الأعداد الكبيرة للمجانين كان الممرضون لا يتردَّدون في عقابِ أيِّ مجنونٍ يخالفُ أوامرهم أو يسبّبُ لهم مشكلةً داخل العنابر المكتظة، سواءً بغمر الماء، أو بتقييد المصابين "بالهياج" في أسرَّتِهم لأيامٍ عديدة، يُطعمونَهم وهُم مقيَّدون، حتّى أنّهم يبولون ويتغوّطون في أفرِشَتهم، وبعد انتهاءِ مدّة العقاب يأتون بالمجانين

المصابين بـ"البَلَه" لرفعِ الأغطية والملاءات الملوّثَة وحملِها إلى المغاسل المخصّصَة داخل المصحة.. ورغم أنَّ العلاج بالماء أمرٌ معروف منذ أكثر من قرن في علاجِ "الهياج" والمصابين بـ"السوداوية"، وكان له أثرٌ فعّال حينَ يتمُّ تحت مراقبةِ الأطباء، لكنّه بعدما أصبح متروكًا للممرضين، ككلِّ شيء، أصبحَت آثاره عكسيّة، وتعدّدت حالاتُ الوفاة داخل المصحّة، وارتفعَت لمعدّلاتٍ مُرعبة.

انتهى.

ككلِّ صباح يجلسُ الدكتور ناصف في مكتبه، الذي هو بالأصل مكتب الطبيب الشاب بعدما تركه له، يحتسيان القهوة سويًّا في حديث يمتدُّ أحيانًا لأكثر من ساعة عمّا توصَّلا إليه، ثم يبدآن في جولةٍ طويلة بين عنابر المارستان.

في هذا الصباح، كان الدكتور ناصف يبدو منشغلًا بأمرٍ جعلهُ يفقدُ تركيزَه مع ملاحظات الطبيب الشاب، الذي سأله:

- هناك شيءٌ يشغلك يا دكتور؟
- نعم. في الأيام السابقة لاحظتُ أنَّ أعداد المصابين بـ"السوداوية" و"الاكتئاب الذهاني" كبيرةٌ جدًّا هنا.
- نعم يا دكتور. لكنَّ هذا الأمر يبدو طبيعيًّا بنظري، فعلى الدوام كان مرضى "الاكتئاب" هم الأكثر عددًا في كلِّ المصحات.
- هل تعلم أنَّ منظمة الصحة العالمية ترى أنَّ الاكتئاب سيكون هو المرض الأوّل الذي سيسبّبُ العجز في الدول المتقدمة مُستقبلًا، متفوّقًا حتّى على أمراض القلب والشرايين؟ لكنَّ الملاحظة الأهم أنَّ الربح السنوي لشركات الأدوية من العقاقير المضادة للاكتئاب وصل إلى عشرين مليار دولار سنويًّا.. إنَّ هذا الرقم يكادُ أن يساوي ميزانيّة دولة! لا يمكن أن تمرَّ على هذا الرقم دون توقّف..

- أعرف هذه الإحصائيات يا دكتور.. لكن ما هي دلالتها لديك؟
- شركات الأدوية هي أكبرُ دافعٍ للضرائب في كلِّ دول العالم.. هل تعتقد أنَّ زوال الاكتئاب من العالم سيكون مفيدًا لهذه الشركات؟ أليس زواله سيحرِمُها من العشرينَ مليارًا السنوية، وبالتالي سيحرم الحكومات من مليارات الضرائب؟ ليس هناك صناعةٌ لعلاج الاكتئاب، بل الصناعة تكمن في خَلقِهِ! تتساوى في هذا الدول المتقدمة والمتخلّفة.
- وما علاقة الدول بشيوع الاكتئاب؟!
- الاكتئاب له سببان رئيسيان، إمّا أن لا يكون لديكَ أيُّ شيء.. أو يكون لديكَ كلُّ شيء.. اتّبعت الحكومات في الدول المتخلّفة النموذج الأول، وفي الدول المتقدمة استُخدِمت الطريقة الثانية! والنتيجة هي ملايينٌ من المكتئبين، ومليارانٌ في خزائن شركات الأدوية والحكومات..
- هذه نظرية تآمريّة بالغةُ التشاؤم يا دكتور!!
- وهل لديكَ شيءٌ يدعو للتفاؤل؟! الاكتئابُ ينتشرُ كغبارٍ وسط عاصفة، ولا أحد يبحثُ في أسبابه، وغاية الأمر أنهم يخترعون كلَّ يومٍ دواءً ويزعمون أنَّ فيه النجاة.. هل تعرف كم وصفة طبية للاكتئاب؟ سيذهلُكَ الرقم، إنّه أربعةَ عشرَ ألف وصفة! هذا يعني شيئًا

واحدًا: أنَّ الاكتئاب لا علاجَ له، أو بمعنى أدقّ: لا دواءَ له. إنّه الخديعة، يُخرِجُ لكَ الحاوي حمامةً من القبعة لكنّك أبدًا لا تستطيع أن تأكلها! أنت فقط تشاهد وتصفّق. ثم تدفع للحاوي ما في جيبك! الاكتئاب، ككلِّ صنوف "الاعتلال العقلي"، نتاجٌ ثقافي، وموقفٌ اجتماعي، لا علاقةَ له بـ"البايولوجيا" وقوائم الدواء الطويلة.. لكن من يجرؤ على اختطافِ قبّعَةِ الحاوي من يده؟!

صمتَ الطبيب. ورفعَ فنجانَ القهوة إلى فمه ليأخذ الرشفة الأخيرة، لكنَّ الفنجان قد فرغ، ولم يبقَ إلّا حباتُ البُنِّ الملساء راقدةً في قعره. فارتشفَ الهواء، مع علمه بأنَّ الفنجان فارغ تمامًا! ثم قاما معًا للمرور على المرضى.

طلب منه الطبيب الشاب أن يتّجهَا إلى مبنى احتجاز النساء، والذي كان أكثر تكدّسًا من مبنى الرجال، إذ تمَّ توزيعهنَّ على خمسةِ طوابق فقط، وتمَّ تركُ طابقين فارغَين لسببٍ لا يعرفه أحد! بينما تمَّ توزيع الرجال بشكلٍ متناسب على طوابقهم السبعة، وقد لاحظ الدكتور ناصف ذلك وعلَّق بشيءٍ من الدعابة القاسية: "نحنُ لا نعطي المساحة المستحقَّة للنساء حتّى في الجنون!".

لم يكن هناك الكثير من حالات الهياج والعنف كتلكَ الموجودة في عنابر الرجال، أغلبهنَّ كُنَّ يعانين من "جنون

الأحلام"، غارقاتٍ في ضلالاتهنَّ العذبة، لكلٍّ منهنَّ عالمٌ صنعَته بحلمها وجعلت منه واقعًا وحقيقة.. ثمة امرأةٌ كانت تعمل بالدعارة قبل إصابتها بالجنون، أصيبت "بالزهري" وعددٍ من الأمراض المرتبطة بالانحرافات الجنسية ثم بين ليلةٍ وضحاها، بعدما انتشر "جنون الأحلام" وسط عددٍ كبير من الناس، استيقظت تلك المرأة في الصباح وهي واحدةٌ من ضحايا (**الفصام**)، الذي انتشر باسمه الجديد بين العامة: "جنون الأحلام"، وكان حلمها أنّها داعيةٌ بتول طاهرة، تدعو مَن حولها لالتزام العفّة، فرموها بالجنون، وألزموها المارستان!

كانت أكثر النسوة منشغلات بأنفسهنَّ عن هذَين الغريبَين اللّذَين لم يعتدنَ رؤيتهما من قبل، فكُنَّ يرمقنَهُما بعيونٍ كسولة غير مكترثة، فلازال كبرياءُ الأنثى يتحرك بين جنبات الجنون، حتّى اعترضت طريقهما امرأةٌ مسنّة -يبدو من تجاعيد وجهها أنها جاوزت الستين- تضعُ مساحيقَ مبالغ فيها بغيرِ تناسقٍ.. أمسكَت بيد الدكتور ناصف وقالت له وهي تشير إلى الطبيب الشاب: "إنَّ ابنكَ هذا يطاردني في كلّ مكان، حتّى أنّه دخل عليَّ وأنا أستَحِّم، وقام باغتصابي لثلاثةِ أيامٍ متتالية بعدما حبسني داخلَ الحمّام"، فقال لها الدكتور ناصف: "أعدُكِ أن أعاقبه ولن يعود لفعلته"، فطأطأت المرأة رأسها وقالت له: "لا. لا تعاقبه. فقط قل له أن لا يحبسني بالحمّام، فأنا أخاف عندما أكون فيه وحدي في الليل، ويمكنه أن يفعل بي في النهار ما يشاء!".. ضحك الطبيب الشاب لكلماتها مخبّئًا وجهه في كُمّ قميصه! بينما الدكتور ناصف

تتقلّصُ عضلاتُ وجههِ من فرط الحزن، وقال: "هذا أمرٌ يدعو للألم وليس للضحك! فحتّى وهي في قبضة الجنون لم تتحرّر من انسِحاقها.".

كانت العنابرُ متشابهة. في كلٍّ منها تقفُ امرأةٌ مع أخرى، أو وسط مجموعةٍ، لا تكفُّ عن الكلام والضحك، يتناوشنَ بين حين وآخر، مسالماتٍ وديعات تحرص كلٌّ منهنَّ أن تبدو جميلةً وسط من حولها، ولا تكفُّ عن الثرثرة أو الشكوى إلّا حين يكبّلها النعاس.. كانت إحداهنَّ تسمعُ شيئًا فتضحك حتّى يخنقها الضحك، ثم بعدها وبلا مقدّمات تذهبُ إلى زاوية فتجلس على الأرض وتبدأ في نوبةِ بكاءٍ طويلة، وتخبئُ رأسها بين ركبتيها، فلا يستطيع جيشٌ بأكمله أن يرفع هذا الرأسَ المنكسر! فأشار إليها الدكتور ناصف: "أُنظر إلى هذه الكومة من اللحم، الآن قد انسحبَ منها الحلم، هذا الذي تراه الآن هو يقظَةُ العقل الذي يستعيدُ حقيقَةَ حياتها، فألقاها في بئرٍ سحيقة مظلمة، ولن يُعيدها لضحكتها العالية إلّا عودةُ ضلالاتها. فكيف نُقنعها أنَّ هذه الضلالات مرضٌ يستوجب العلاج؟".

استمرَّت جولتُهما والدكتور ناصف يراقب العيون، كأنّه يبحث عن شيءٍ لا يجدُه! عيونٌ تحدّق وعيونٌ ذاهلة وعيونٌ مفزوعة وأخرى محزونة، وهو يردّد "ليس هنا، ليس هنا..."، فسأله الطبيب الشاب ما هو ذاك الذي ليس هنا يا دكتور؟ قال له: "المرض. المرض ليس هنا، بل خارج الأسوار. هنا الحصاد، أمّا

الزارع فيقفُ خارج هذه الأسوار يغرسُ بذورَ *القهر* وقتلِ الأرواح، كلُّ من ترى من الفصاميّات لسنَ مرضى، "الفصام" لم يكن أبدًا "اعتلالَ عقل"، إنّه الردُّ الحاسم، والموقفُ الرافض. كلُّ تلك النسوة مخذولات، و"الفصام" هو ردُّ المرأة الأقرب دومًا لنفسها. ستجدها تقاتل الزمن ولا تريد لحظةً واحدةً فارغة تخلو فيها بنفسها، تكبحُ المرأةَ التي في داخلها، بل وتعاديها وتراها المسؤولةَ عن كلِّ آلامها، فتتبرأ من الرحم وتحتقر دمَ الحيض الذي يذكّرها بتلك الأنثى الباكية في أعمقِ نقطةٍ في زاويةِ الروح.. أُخذُل امرأة، ثم أُنظر بعدها، سترى أنّها إمّا أن تصبح فصاميّة ناجحة، تبدو سعيدةً في خارجها والحزن *يقهرُها* في داخلها، دونَ أن يعرف العالم سرّها.. أو فصاميّة أفصحَت عن جنونها، فتصير حبيسة المارستان!".

عندما سمع الطبيب الشاب كلمات الدكتور ناصف، شعر أنَّ وراء هذا الرجل قصة. كلماتُه كانت كلماتَ رجُلٍ عايشَ تجربةً أليمة، فتحَّدث عن النساء كوالدٍ طيّبٍ مكلوم أكثر من كونه طبيبًا يحلِّلُ طبيعةَ مرضى يسعى لشفائهم.. لكنَّ التأثّر الكبير الذي كان باديًا على ملامح الدكتور ناصف منعَ الطبيبَ الشاب من سؤاله عن أيِّ شيءٍ، فأكمل سيره معه، وكان حريصًا كلَّ الحرص أن يُريَه النزيلة الأهم من بين كلِّ النساء المحتجزات في المارستان، سماع. ليس فقط لما نالته من شهرة بعد قتل والديها وجارها، لكن لصلتها برسول الذي كان يسكن بيتها، وصِلتها بديميان الذي ساعدها على العمل بالجامعة، وكان العينَ التي

تراقبها، فينقلُ أخبارها إلى لبيب الذي كان يعرفُ قصّةَ كلٍّ منهم ونقَلها بتفاصيلها إلى الطبيب الشاب، الذي قام بدوره بنقلها إلى الدكتور ناصف.

ذهبَا معًا لغرفة العزل التي تقيم بها سماع منذ وصولها إلى المارستان، وكانت الوحيدة في المبنى بأسرِه التي تمَّ تخصيصُ غرفةٍ منفردة لها، رغم أنّها لم تقم بأيّ سلوكٍ عدواني قَطُّ تجاه أيّ أحد، ولا قامت بأيّ محاولةٍ للانتحار. تمَّ عزلُها مع ذلك بالغرفة المبطنة المخصصة للمرضى الذين يمثلون خطرًا، وظلّوا يقيّدونها بالسرير لأكثر من شهرين وهي مستسلمةٌ لا تقاوم ولا تعترض. كانت كخرقةٍ بالية، حيثما وضعوها اتّضعت. بعدما بدى واضحًا للجميع أنّها لا تقومُ بأيّ أعمالٍ عنيفة، توقّفوا عن تقييدها، وإن ظلت معزولةً وحيدة بالغرفة! فلم يكن من السهل على أيّ أحد في المارستان أن يتخذ قرارًا بإطلاقِ سراحِ مجنونةٍ بين النزلاء متّهمة بقتل ثلاثة أشخاص، اثنان منهم هما والداها.

لم تطل زيارتهما لأكثر من عشرَ دقائق، فهي ومنذ وصولها لم تقل كلمةً واحدة، تنام على الدوام فوق سريرها ووجهُها ملتصقٌ بالحائط، في وضعٍ مستقيم، كأنّها يرقةٌ عالقةٌ بالجدار! ونادرًا ما تُغيّرُ وَضْعها إلى النومِ على ظهرها أو تجلس، وحين تفعل هذا فإنّها تلوي رأسها بطريقةٍ غريبة كأنّه رأسُ دجاجة تنظر للسقف، ثم سرعان ما تعود إلى وضعها الأصلي ملتصقةً بالجدار.

نظر الدكتور ناصف إليها وهو يقول: "لم تقتُل أمَّها لأجل فسقها مع الجار.. القاتل من هذا النوع يعاني **(عُقدةَ الرّحِم)**، إنّه إنسانٌ يشعُر بالغربة في العالم ويريدُ العودة إلى رحم الأم.. ألم تقل لي أنّها قتلَت أمّها بغرز السكين في فرجِها؟ إنّها تعاقب الرحم على قذفها للعالم وتركها وحيدةً متألمة، ورفض عودتها إليه، فطعنَتها.. قَتلُها للرجلِ الذي عاشرَ أمَّها بقطعِ عضوِه، يحملُ دلالةَ هذه العقدة، فقد قطعَت الشيءَ الذي رأته يدخل في الموضع الذي تتمنّى الرجوع إليه، فرأت أنّه قد استعمرَ موطنها، وسكنَ في المكان الذي هو حقٌّ لها وحدها ولا تستطيعُ الوصول إليه، فحقدَت عليه وفعلَت به ما فَعلَت. ولو كان العالمُ رحيمًا معها لما حنّت إلى رحم أمّها". ثم اقترب منها ومسح على رأسها ولم يمتلك دموعه التي فضحَت ألمَ روحِه. وغادرَ الغرفة.

●●●

وافق الدكتور ناصف الطبيبَ الشاب في تقريره حول حالة ديميان، والذي دارَ حول كونه **(فصامًا)** نتج عن طولِ شعورٍ *بالقهر* وتدنّي الذات، وعدم القدرة على التأثير فيما حوله.. وقد ساعد الطبيبَ الشاب كثيرًا معرفتُه بقصّة ديميان بحذافيرها، عن طريق ابنته ماري وما قصَّهُ لبيب عنه، حتّى استقرَّ في نفسه أنَّ فصامه معروفُ الأسباب، بتدرّجه المنطقي من رؤية أحلامٍ متواترة يحدّثه فيها يسوع ويقنعه بالألوهية، حتّى وصل إلى ما وصلَ إليه. لقد كان اللاوعي يتحرّكُ بحرّيةٍ كبيرة، ويصنع عالمَه بقوّة محاولًا التخفيفَ من كبتِ العقلِ الواعي لقدرتِه على التمرّد والانفلات، ومع استمرارِ حالةِ "الغضب المحتقن" في عمله، وشعوره بالخضوع أمام زوجته، ومع الاستسلام المسيطر عليه والذي ارتبطَ بشكلٍ جوهري بنشأته المسيحيّة القائمة على المسالمة والشعور الدائم بالاضطهاد، كان "الفصام" من جنسِ الأزمة ذاتها، فانقلبَ المسيحي المستسلم بداخله إلى "إلهٍ" متمرّد، يرفض أن يؤكل. فاكتملَ جنونه حين انطلقَ اللاوعي في قيادة سلوكِه، واختفى العقلُ الواعي غارقًا في عمقِ شخصيتِه الهشّة، ثم طَفَت وطغَت شخصيتُه الجديدة والتّي لم تعبّر عن أيّ نوع من أنواع "الهذيان المتماسك" أو "المنطقي"، سوى بموقِفه من رفض أكله.. وما دونَ ذلك فكان تخليطًا في الكلام غير المفهوم، أو صمتٌ يطول! وأرجَع الطبيب الشاب ذلك إلى كون ديميان لم يكن

بالأساس شخصًا يملكُ توجّهاتٍ أو ثقافة أو قدرٍ من التعليم يمكّنه من صنع "ضلالات متماسكة" ذات معنى، إنّما كانت الكلمة العليا للانفعالات الوجدانيّة المنطوية على القهر.. وقد وافقه في هذا رفيقُه الدكتور ناصف، بل وقال له "أراكَ أصبحتَ تفكّر على مذهبي"، وإن كان دعابتُه لم تحرّك بسمةً على شفاه الطبيب الشاب الذي كان مهتمًّا أكثر بطريقة إخراج ديميان من الفصام، وتحديد أسباب الاعتلال.

عندما رأى الدكتور ناصف الجدّية والاهتمام البادِيان على ملامح الطبيب الشاب، سأله:

- ماذا تعطونه هنا؟
- للأسف لم يكن ديميان تحت إشرافي عندما دخل المصحة في بادئ الأمر، وإن كنتُ أتابع من بعيد ما يحدث معه.. لا أعرف بدقّة كيف كانوا يتعاملون مع حالته طوال الوقت، فبعد تزايد الأعداد هنا لم يعُد هناك تخصيص لنظام الأدوية لكلِّ مريض بشكلٍ منفرد، إنما يحدّدون بعض الأدوية واسعة التأثير لعددٍ كبير جدًّا من النزلاء ويقوم الممرضون بتقديمها للجميع، وأشكُّ حتّى أنهم كانوا يفعلون هذا بشكلٍ منتظم! ولم أطلب متابعتَه إلّا عندما رأيت الممرّضين يستخدمون وسائلَ مفزعة معه، ومع كثيرٍ من أمثاله. خاصّةً عملية "التغليف".

- التغليف؟! هل لازال أحد يفعلُ هذا؟ هذه الطريقة المهترئة تعود لقرنٍ من الزمان ولا تصلحُ إلّا وسيلةً للتعذيب في إحدى محاكم التفتيش القديمة، وليس مصحّة عقلية يديرها أطباء..
- للحق يا دكتور، أمام ما يحدث لم يعد هناك منطقٌ محدَّد للعلاج أمام هذه الأعداد الكبيرة.. حتّى بعضُ الأطباء الكبار هنا كانوا يستخدمون التغليف، وقام الممرضون بتقليدهم، فيلفّون المرضى بالملاءات المبلّلة لساعاتٍ طويلة ويصبّون عليهم الماء لعلَّهم يتنبهون لوجودِ أجسادِهم تحت الألم، على أمل أن يقود هذا التنبيه لشيء.. لا أستطيعُ أن أعتبَ على محاولاتهم وإن كانت قاسية! فقد أُسقِطَ في أيدينا ولم نعد نعرف من أين نبدأ، وإن كنتُ شخصيًّا أرفض اتّباعَ مثل هذه الطرق.
- هذه هي المشكلة. نُصِرُّ على البدء من الخارج رغم أنَّ الأمر يكمن في الداخل! وهذا بعينه ما أحاول أقناعكَ به منذ قبولي دعوتك. المرضُ العقليُّ، عقليٌّ. إنه ليس نشاطًا عصبيًّا، بل نشاطًا عقليًّا، لكنّكم تقدّسون "البايولوجيا" التي تأسرُ عقولكم، وتصرّون على الدخول إلى جُحر النملة عن طريق هدم الجدار، رغم أنَّ مملكتها ضاربة في عمق الأرض، وما الجدارُ إلَّا صورة خارجية! الطبّ النفسي ذاته -وإلى اليوم- لم

يحسم أمرَ "الاعتلال العقلي"، هل سببه نفسيّ أم عضويّ، فلماذا تصرون على بوابة الجسد؟ وبغيرِ ضميرٍ أخلاقي أو علمي سمَحنا لأنفسنا بجعل المريض النفسي أو العقلي مادّةً لتجارِبنا، واَنظُر ما هي النتائج التي تتحقّق! إنَّ أقصى نجاحاتنا أنّنا نحوّلُ المريضَ إلى كومةٍ من اللحم، هادئة. لكنّها منزوعةُ الروح..

- صدقني يا دكتور، لم أكُن أوافق على ما يحدث، لكن ليس لي سُلطة لأمنع هذا.
- وماذا فعلتَ مع ديميان بعدما أصبح تحت سُلطتِكَ؟
- لا شيء من كلِّ ما كان يُستخدم معه، أعطيه فقط "الريزربين"، وأعتقد أنَّ نتائجه جيدة، فرغم أنَّ ضلالاتِه لم تزُل تمامًا، إلّا أنّها تغيبُ من وقت لآخر..
- هذا أيضًا نوع من "التغليف"! لكنّه بحبّة دواء بدلًا من الملاءات المبلّلة! هل تعرف قصة "الريزربين"؟ لقد اعتبرناه اكتشافًا عظيمًا أوّلَ الأمر، وبالمناسبة لا فضل للعلم الحديث في اكتشاف هذه المادة فقد كان يعرفها الأطباء الهنود منذ ألفِ عام ويسمونها "عُشبة المجانين"، لكنهم كانوا يستخدمونها فقط لعلاجِ لدغاتِ الحيات.. لقد كانوا أكثر وعيًا منّا ولم يستخدموها مع المجانين قطّ رغم أنّهم سَمّوها باسمهم! لعلمهم أنها تضرُّ المريض العقلي أكثر ممّا تنفعه..

- لكن لم يظهر لهذه المادة أيُّ أعراضٍ مقلقة..
- إذا كان ذلك صحيحًا فأنا أقولُ لكَ أنَّ عليكَ أن تقلق من الآن فصاعدًا، "فالريزربين" وكلُّ أخوته من الأدوية المثبطة للجهاز العصبي، فضلًا عن إدمانها الذي تعرفه، تتسبّبُ جميعُها، بلا استثناء، في أعراضٍ عنيفة تصيب المريض مستقبلًا، كما تتسبّب في حالاتٍ من الهذيان الجديد بالغ التعقيد.. إلى اليوم لم يتوصّل الطب النفسي البيولوجي إلى تحديدِ طريقة عمل الاضطرابات التي تفسّرُ مرضًا عقليًّا مثل الفصام! وأصبح دور الأدوية من قبيل "لارجاكتيل"، والعقاقير المحتوية على مادة "الريزربين"، أن تقوم بعملِ "الأسبرين النفسي"، الذي نقدّمُه بشكلٍ يومي لتسكينِ مريضٍ لا نستطيعُ علاجَه بشكلٍ حقيقي.
- مرّةً أخرى يا دكتور تغلق علينا كلَّ الأبواب! ماذا نملك غير الدواء المتاح لنقدمه لمرضانا؟!
- أنت فَسّرتَ أسبابَ فصام مريض مثل ديميان بشكلٍ صحيح تمامًا، فلماذا لم تفهم أنَّ الفصامي لا يحتاج لأدويةٍ هي بحدِّ ذاتها مرض؟! "الفصام" مرضٌ اجتماعيٌّ. وليس نفسيًّا. الفصامي يشعر بالتهديد من العالم مِن حوله، فيتحصَّنُ بهلاوسه ضدَّ تهديدِنا له.. والعلاجُ لن يكون في ملاءاتكم المبللة ولا الأدوية التي تحوّلهم إلى كوماتٍ من اللحم بلا روح! العلَّةُ في

المجتمع، وليست في المريض الذي يتحصّنُ منه. الفصامي الذي نراه مجنونًا يحملُ إنسانًا آخر في داخله، لا نقدر نحن على رؤيتِه، يتحكّمُ في سلوكه برضًى وقناعةٍ منه، وأدويتُنا تقوم فقط بإرسال هذا الشخصِ غيرِ المرئيّ إلى النوم أو تطالبه بالتجوّل خارجَه قليلًا! لكنّه سرعان ما يستيقظ، أو يعود من الخارج ليسكُنَه مرّةً أخرى. علينا أن نتقبّلَ المريض، ونعطِيه أمانَه، ونغيّر المجتمع الذي أمرضَه، ساعتها سيرحلُ هذا الآخر الذي يسكنُه إلى الأبد.

- نحن لا نملك تحت أيدينا إلّا المريض يا دكتور، ولا سلطةَ لنا على العالم في الخارج لنغيّره.. ليس أمامنا سوى تغيير المريض.
- نعم، هذا بالضبط ما يحدث، نمارسُ السلطة على الحلقة الأضعف في اللعبة القذرة! فننعتُه بالمجنون ثم نغضب لأنّه يتصرّف كمجنون! لذا ستظلُّ الحرب قائمة. لكن عليك أن تعلم أنَّ الجنون إذا دخل المعركة، لا يستسلم مطلقًا!

●●●

دُهِشَ الطبيب الشاب عندما علم أنَّ التي تطلب مقابلته هي تلك المرأةُ التي هدَّدته بالقتل. استقبلها بمكتبه مرحّبًا فسألَته مباشرةً: هل يمكن أن يعود إذا أخبرتُكَ بأمره؟

كان يعلمُ جيّدًا أنَّ مرضى (**الاكتئاب الذُّهاني**) هم الأشدُّ صعوبةً في الشفاء أو التحسن حتّى، فلم يخدعها وأخبَرها أنَّ هذه الحالات تحتاج لوقتٍ طويل لظهورِ بوادرِ التحسن، وقد يمتدُّ ذلك لسنوات.. أرخَت رأسَها، وتمتمَت: "كنتُ أعرف أنّه ليس ثمة أمل، قضيتُ عليه!"، فقام من خلف مكتبِه وجلسَ على المقعد المواجه لمقعدها وقال لها: "لم أقُل هذا. نعم الأمرُ بالغ الصعوبة، لكن إذا لم تتوفَّر لنا أيُّ معلومات عنه فلن يكون شفاؤه صعبًا، بل مستحيلًا، فأخبريني كلَّ شيءٍ عنه، فربّما أجِدُ الطريق.".

لم يكن يتوقّعُ أبدًا أن يحصلَ على تلك الحقيقة، فها هي المصادفات تضعُ بين يديه مفاتيحَ لألغازٍ لم يطمح للوصول إليها، فبينَ يديه الآن براءة، تحكي له قصّةَ رؤوف، ذاكَ الاستاذ الجامعي الذي أشفق على سماع فتعلَّقت به، وكان سببًا في تحويل غضبها من انشغالِه بأخرى إلى غضبٍ صبَّتهُ على رؤوس الديوك الذين ينتقلون من دجاجةٍ لأخرى، فتعاقبهم بقطفِ رؤوسهم.

تبسَّمت له الأماني بإمكانيّة فَهم أسبابِ جنون سماع. لكنَّ براءة التي تجلس أمامه شغَلته بقصّةٍ أخرى لسلاسل القهر، التي يصادفُها خلفَ كلِّ مجنونٍ يلقاه. كان صمتُها حاجزًا منيعًا سرعانَ ما تصدّعَ تحت مواجعها، ففاضت بكلِّ ما لديها أمامه، تحكي أدقَّ تفاصيلها، بذاكرةٍ لا تهملُ أصغرَ الإشارات. عندما أخبرَته بتفاصيل خيانتها لرؤوف الذي عشِقَته، ألحّ عليها في معرفة ماضيها، لفَهمِ سلوكِها بالغ الشذوذ والغرابة، فما أخبرَته به، لم يكن ينُمُّ عن امرأةٍ شبقةٍ تحرّكُها شهواتها، رغم أنّها كانت تفعلُ هذا أحيانًا لخمسِ مرّاتٍ في يومٍ واحد مع خمسِ رجالٍ مختلفين.

سألها الطبيب الشاب:

- لماذا كنتِ تفعلين هذا بطريقةٍ شاذة، وتحرصين على حفظ بكارتكِ؟
- لأنَّ هذا ما كان يحدث منذ طفولتي؟
- هل تمَّ اغتصابُكِ في صغركِ؟
- لم يكن اغتصابًا، لكن منذ التاسعة من عمري، لثلاث سنوات، وجارنا يتحرَّش بي.. بعدما ذهبتُ أشكو إليه ما فعله ابنه.. سخر مني، وأصبح هو من يفعل لا ولده.. كلما رآني أمرُّ من أمام بيته يجلسني على رجله، ويقحم يده من تحت سروالي.. فيفعل ما أَصبح يفعله الجميع بعد ذلك!

- ألم يعرف أحد من أسرتكِ ما كان يحدث؟
- أخبرتُ أبي عند أوّلِ مرّة.
- وماذا فعل؟
- صمَتَ.

كانت عيونها مرتبكة وهي تنظر إليه، حينًا تنظرُ بجمودٍ وثبات، وحينًا آخر تهربُ من نظرتِه، تحرصُ على جمعِ سترتِها بيديها مخبّئةً صدرها، تريدُ أن تتكلم، لكنَّ كلماتها تخرجُ مختلطةً ومرتبكة كنظرتِها، شيءٌ ثقيلٌ يضغطُ عليها من الداخل، وطَرقٌ لا يتوقَّف في رأسها، تريد أن تستريحَ منه بالبوح! وذاك الرجلُ الوحيد الذي كان يستمع إليها ولا يسخر منها قد اِختطفه الجنون، وليس أمامها سوى هذا الطبيب الجالس أمامها يطالبها بالكلام لتستعيدَ حبيبها، مرهقةٌ تحتاج للبكاء، لكنَّ الدموع لا تستجيب، فتكلَّمت. كانت تلقي بالجُمَل بغير ترتيبٍ ولا منطق، كأنّها كلماتٌ محشورة بذاكرتها خرجَت تتقافزُ للهروبِ من رأسِها دونَ انتظام: "عندما كان أبي يخرج من البيت، كنت أفرح، لأنّه يرفض دومًا أن ألعب مع أبناء الجيران وبناتهم، كنت أسمع ضحكهم وصياحهم وأنا داخلَ البيت وحيدة، لا أحد يلعب معي، وكانت أمي تسمح لي بالخروج عندما يغيب أبي عن المنزل، لكنَّ الأولاد لم يسمحوا لي باللعب معهم أبدًا، مرّةً كنت أسير خلفهم مثل كلبةٍ قبيحةٍ عرجاء، لا يلتفتون لي، ولا يقبلون بي بينهم، ولما توسَّلتُ إليهم أن أشاركَهم لَعبهم، أجلسوني بجوارِ حائطٍ، وأخذوا يجمعون التراب من الطريق ويضعونه فوق رأسي، ولم يمنعهم

بكائي من فِعلهم، لا أحدَ أحبّني أبدًا، لا في صغري ولا عندما كبُرت، الجميع يسخر منّي على الدوام، لم أصدّق أبدًا ما كان يردّده أحيانًا بعض الذين يعاشرونني، حين يقولون أنّي فتاةٌ جميلة، أنا لم أكن يومًا جميلة، لا شيءَ سوى هذا الصدر الكبير، ومؤخرةٌ ظلَّ يعبث بها جارنا الذي جاوز الخمسين من عمره لثلاث سنواتٍ بلا توقّف، لم يمنَعه عنّي أبي، بل امتنعَ فقط لأنّه مات، أبي لم يشتَرِ لي أبدًا لعبةً ولا فستانًا جديدًا، فلماذا أحبّني رؤوف؟ أنا لم أكن أريدُ هذا، كنتُ أراه أكبر من هذا، وأراني أحقر من ذاك.. كان يكفيني أنّه لا يسخر منّي! لكنّه فعلها وأحبَّني، وأنا غائطُ كلب، تدوسُه نعالُ الناس وتتأفَّفُ منه، فماذا وجد بي ليحبّني؟ أنا لم أكن أخدعُه، ولا كذبتُ عليه، ولا أعرف كيف عشقته، لكنَّ هذا ما حدث، وها هو محطّمٌ بسببي.. أربعُ سنواتٍ أدرسُ التمريض ولم تقترب منّي فتاةٌ واحدة أثناء الدراسة ولا كانت لي صاحبة! حتّى عندما أصبحتُ أعمل وصارَ لي راتب لم أفكّر أن أشتري حذاءً أو ملابسَ جديدة، أشتري فقط الملابس المستعملة، وأسكن بغرفةٍ قريبة من المصحّة ولا أزور أمي وإخوتي إلّا كلَّ بضعة أشهر، هل تعرف؟ أنا أكره أبي، ولا أعرف لماذا يعاشرني هؤلاء الرجال رغم قُبحي؟! أترُكهم يفعلون بي ما أرادوا ولا أردُّ أحدًا يطلبني، أريده أن يرى ابنتَهُ وهي تتعرّى ويلوث الجميع شرفه، كلَّ ليلة أسمع بكاءه في قبره، إنه يصرخ حين يراهم يعاشرون ابنَته، صدّقني أبي كان رجلًا وسيمًا لا يغرنّكَ أنَّ ابنتَه قبيحة، ربّما لأنّي أشبه أمي فهي ليست جميلة لكنّه كان

جميلًا، أنا أحبّه فهو طيّب، لم يكن يقصد أن يؤذيني، أنا لا أكرهه. لكنّه فعل كلَّ شيءٍ يجعلني أكرهُه، كان يقسو بلا سبب، وعندما سقط مريضًا بعد موت جدّتي، لم يكن يقبل أن يدخل عليه أحد! حتّى المرض لم يجعل قسوتَه تلين! في بعض الليالي كان يشتدُّ به الألم، فيناديني لأقدّمَ له المسكّن، لم يكن ينادي أحدًا سواي، كنت أسمعُ استغاثَته بي، فلا أذهبُ إليه إلا بعدما أسمع ارتطامَ جسدِه بالأرض عند سقوطِه، وحينها أدخلُ حجرته، فوحدي لم أكن أنام، كنت كلَّ ليلة أنتظرُ نوبةَ ألمه التي تذلُّه وتجعله يناديني، أمسكُ بدوائه وأنظر في عينِه المنكسرة، لا أتكلَّم ولا يتكلَّم، لكنّه كان يعرفُ كلَّ شيء. لقد تركني ولم يردَّهم عنّي. ثم تركني ومات. لم أكن أريدُ لهُ أن يموت. لم يكن من حقّه أن يموت قبل أن يضربَ جارنا. كلُّ الفتيات يتنعّمنَ بحضن آبائهنَّ ووحدي لا يحِنُّ عليَّ أحد، فلماذا مات أبي؟ كان يحبّني وكان طيّبًا، لم يكن يقصد إيذائي، كلُّهم آذوه، لم يرحمه أحدٌ أو يعطف عليه، لكنّني كنت أحبه وأعطف عليه فلماذا لم يعطِف عليّ؟ إيّاكَ أن تظن أنَّ أبي كان رجلًا سيّئًا، بل كان أعظمَ والدٍ في الوجود، لكنَّ أمّه كانت تجرّه بحبلٍ من رقبته، حكى لي كيف كانت تذّله في صغره، فأذلّني أنا كما أذلَّته أمّه، هو معذور، إذا لم يُخرج الوالد ذُلّه وغضبَه في ابنته ففي من سيخرجه؟ ومن سواها سيحتمِلُه؟ أرجوكَ لا تَفقِد احترامكَ لأبي، لو رأيتَه لعرفتَ أنّه رجلٌ عظيم، لكنّه طيّبٌ. *ومسكين*. وميّت.".

دارت رأسُ الطبيب أمام كلماتها التي كانت تهدرُ من فمها بغير توقّف! ولم يجد ما يردُّ به عليها، سقط عقلُ الطبيب أمام قهرِ الكلمات، قام إليها ومسح على رأسها برفق، فتراجَعَت وهي تعتصر أصابعَ يدِها اليسرى بكفِّها اليمنى، وقالت له بعيونٍ دامعة ومستسلمة وهي تجمع سُترَتها حول صدرها: "هل تريدُ أن تعاشرني؟!".

❁❁❁

لا أدري هل كان خيرًا أم شرًّا حين نجحتُ في إقناع الدكتور ناصف بالقدوم إلى المارستان؟ كنت طامعًا في أن يكشف لنا عن الشيء الذي نجهله، فنصل إلى الحقيقة. وقد كان ضوءًا كاشفًا حقًّا، لكنّه لم يكشف لنا الجسرَ الذي سنعبر عليه للضفةِ الأخرى لاستنقاذ هؤلاء المساكين وفَهم ما يجذِبُهم إلى عالم الجنون، بل كشفَ لنا الحقيقةَ المفزعة! فمع كلِّ مريض نزوره أو ندرس حالتَه كان يثبتُ لنا أنَّ الجسرَ لا وجودَ له أصلًا، وأنَّ النهر يفصل بين الضفتين بقسوة.. ولكَي نفهم الواقفين في الناحية الأخرى علينا أن نعبر ذاك اليمّ.. وفي مائه البارد يسقطُ العقلُ غريقًا، فلا وجودَ للمنطق في المسافة ما بيننا وبينهم! الدكتور ناصف لا يرى ما نرى، فالجنون عنده ليس "خللًا عقليًّا"، بل هو "*عدم تعقل*". إنّه فقط رفضٌ لاتّباع القواعد. غايةُ الفارق عنده، بين العقل والجنون، كالفارق بين استخدامكَ لأدواتِ المائدة، أو الأكل بيديك! فكلُّ ما فعله هؤلاء في نظرِه، أنّهم وضعوا الشوكة والسكين جانبًا. بينما تقيَّدنا نحن بآداب المائدة ولم نستمتع بالطعام!

وليست المشكلة في أن يرى الدكتور ناصف ما يراه، المشكلة أنّني أصبحتُ قريبًا من رؤيته وأقاوم تسرُّبَ هذه القناعة إلى نفسي بصعوبةٍ بالغة!

"عدم التعقل"، تلك الجملة المفزعة، كلمتان فقط، لكنّهما جديرتان بخلعِ قواعدِ حياتنا من جذورها وصُنعِ عالَمٍ جديد لا نعرف عنه أيَّ شيء.. فـ"الاعتلال العقلي"، توصيفٌ مريحٌ للأعصاب والضمائر.. نقولُهُ ببساطة، فنحكم على من يسير على غيرِ قواعدنا، أنّه معتلٌّ مريض، ويحتاج للعلاج أو النفي بعيدًا عن الأصحاء.. لكنَّ "عدم التعقل"، يعني قرارًا اتّخذَه صاحبُه، لا يتبع فيه منطِقَنا، ويرفض قبولَ الرؤية من زاويتنا!.. وهذا المعنى لم يعد بعيدًا عن قبولي له، فكلُّ ما هنالك أنَّ بعضنا يتعرّى كما ولدته أمّه على شواطئ العراة فيكونُ الأمرُ مقبولًا أو على الأقل مفهومًا، أو يخلع أغلب ملابسه فلا يُبقي إلّا ما يستر عورته ويسير على الشاطئ ويجلس على مقهى ساحلي، فلا نزعج من الأمر.. وحين يقف نفس الرجل بميدانٍ وسط المدينة، ويتحرّر من ملابسه ويسير في الطرقات عريانًا، نصِمُه بالجنون ونصفُه بـ"الخلل العقلي"! فقط لأنّه تعرّى في المكان الذي لم نقرّره نحن، ولم يُعِر موقفنا انتباهًا، ولم يكترث بما نكترث له نحن.

من قال أنَّ الشيوعية لم يعد لها وجود؟ نحن نطبّق "ديكتاتورية البروليتاريا" في أبشع صورها. فها هي الأغلبية المستبدّة من العقلاء تجبرُ الأقلية التي تفكّر بغير طريقتها على ابتلاع آلافِ الأنواع من العقاقير، وتحبسُهم خلف أسوار المارستان، فقط لأنّهم قرّروا أن يفكّروا بطريقةٍ منفردة تمامًا، ودون الخضوع لأيّ أحد، فتكتّلَ المجتمعُ بأسرِه ضدَّهم ونبَذهم بعيدًا ليتخلّص منهم.. ولو كانوا حقًّا مجانين، فكيف نساعد

المجتمع على التخلّص منهم؟ بدلًا من مساعدتهم على التخلّص من هذا الجنون؟؟

هذا المارستان وهمٌ كبير، يسير نظامُه كمحكمةِ تفتيش، تلبَّست فيه الطبيب روحُ القاضي، فلا نقومُ بشيءٍ إلّا إصدار الأحكام على هؤلاءِ المجرّدين من كلّ استطاعة، نسوقهم في طرقات المصحة وأروقتها كوفودٍ من العبيد، نسحقُ إرادتَهم التي خالَفت إرادَتنا، ونكسِرُ أعناقهم التي تطاولت ورأت العالم بغير أعيُننا.. فما الفرق بين السجن والمصحة إذًا؟ لا فرق. لا فرقَ بالمرّة.. وبالسخرية القدر الذي كشف لنا هذه الحقيقة فلم ننتبه لها، فالمارستان المركزيّ لم يكن سوى سجنٍ في زمن آخر ولذات السبب.. سجنٌ وعَزلٌ لعقولٍ تحرّرت من القيد ورفضَت الخضوع للمستعمر كما تحرَّر هؤلاء المجانين من استعمار إرادتِهم.. لكنّنا لا زلنا نصرّ على تسمية النمطية وتماثل السلوك وتناسخ طرائق التفكير، بأنّها التعقّل، ومخالفَةُ هذا، "اعتلالٌ عقلي"، والحقُّ أنّهُ فقط "عدمُ تعقّل".

لقد بلغوا بجنونِهم حرّيتَهم. تلك الحرية التي تفزعنا. ونخشاها على الدوام.

انتهى.

عصير
الكتب

أمامَ الأعداد الكبيرة التي تَفِدُ إلى المارستان كلَّ يوم، لم يعد ممكنًا اتّباع نظام العزل القديم ما بين الرجال والنساء، فلم تعُد هناك حدودٌ لأيّ شيء، ولا خطوط فاصلة، وغايةُ الأمر هو البحث عن مكانٍ فارغ يمكنه أن يستقبل القادمين من خلفِ أسوار المارستان.

في البداية كان الأطباء هم من يستقبلون المرضى لتشخيص حالتهم وتحديد المكان المناسب لهم وأيُّ العنابر يمكن أن يستقبلهم، لكن عندما يأتي مئتا مريضٍ في صباحِ يومٍ واحد، ثم يأتي نصف هذا العدد قبل انتهاء النهار، عندها لا يمكن لطاقم الأطباء استقبالُ كلّ مريضٍ على انفراد ولو لدقيقتين فقط، حينها وكالعادة يظهرُ جيشُ الممرضين كطوقِ النجاة. لهم سُلطةٌ مطلقة في تحديد مصائر المجانين، فيقومون بتوزيعهم، وفقًا لرؤيتهم وخبرتهم على العنابر التي أصبح المجانين يفترشون أرضها وينامون في المساحات الضيّقة بين الأسرة أو تحتَها، حتّى أنَّ الطبيب الذي يريد أن يزور إحدى هذه العنابر، يسير فيها كأنّها بقايا غابة محترقة تتناثرُ الجذوعُ فيها في كلّ مكان، حاملةً وجوهًا ذاهلة يعلوها بؤسُ الجنون الرهيب، ونظراتٍ تتراوح بين الفزعِ الدائم والبلاهة المستحكمة، فترى مريضًا يرقدُ عاريًا تمامًا وآخرَ يتغوّطُ في مكانه وعلى بعض السرائر يمكن أن ترى مجنونًا يلوط بمجنونٍ آخر دون اكتراثٍ ممَّن حولهما.

رغم الأعداد الكبيرة، لم تكن هناك مشكلةٌ في توفير الطعام، لأنَّ الغالبيّة الساحقة من المجانين عازفون دومًا عن الطعام! وهو ما كان سببًا في انتشار الهزال بينهم وموتِ أعدادٍ كبيرة من شدّة الضعف، ولذا لم يكن هناك سوى نوعان من السيارات تخترق بوابة المارستان، سياراتُ الشرطة الكبيرة التي تحمل قطعانًا من المجانين لإيداعهم المارستان، وسيارات الإسعاف التي تحمل أجسادَهم الميّتة إلى خارجه.

المشكلة الحقيقيّة التي كانت تواجه إدارة المارستان هي ندرة الدواء وقلّة الملابس والشراشف ووسائل العلاج. لم تكن الميزانية التي حدَّدتها الحكومة تكفي لربع الاحتياجات الملحّة للمارستان، حتّى بعدما ضاعفت الحكومة تلك الميزانية لأكثر من مرّة، ظلّت الأزمة تتفاقم مع الزيادات المذهلة في أعداد النزلاء، ما دعا وزارة الصحة إلى التفكير في ابتكارِ طُرقٍ جديدة توفّرُ بها المصحاتُ الأموالَ اللازمة بشكلٍ ذاتي، دون اللجوء إلى الحكومةِ التي أوضحَت بحزمٍ وصرامة أنّها لن تدفعَ أكثر ممَّا دفعَت.

لم يعد العزل الانفرادي ممكنًا كما كان في بادئ الأمر، فكلُّ مكانٍ فارغ يحتاجُ العشراتُ إليه، حتّى لو كان حجرةً تمتدُّ لأربعة أذرع في خمسة أذرع، فأصبح المجانينُ القدامى يتجوّلون بين آلاف النزلاء بحريّة كبيرة، وكانت تلكَ هي السعادة الكبرى لرسول، الذي لم يكن يكفُّ عن التنقل بين العنابر وجماعاتِ المجانين المنتشرة في فناء المارستان، وهو عاقدٌ يديه خلف ظهره،

ماشيًا ببطءٍ وثقة، ينظرُ إليهم دون كلمةٍ، وبسمتُهُ لا تغادر وجهَه، كملكةِ النحل التي تشرفُ على الأسراب الجبّارة، التي تنضحُ بالجنونِ، لا العسل.

●●●

عندما رفعَ رئيسُ الحكومة إلى رئيسِ الدولة مشروعَ فتح المصحات للجمهور، وأكَّدَ له أنَّ هذا سيُعفي خزانة الدولة من دفع الكثير للإنفاق على المصحات، لم يتردَّد الرئيس في الموافقة، وقال لرئيسِ الحكومة: "ليست الفائدة في توفير الأموال، إنّما في إعطاء المثال حيًّا لكلِّ من يُراوِدُه عقلُهُ على الجنون. يجبُ أن يشاهِدوا مصيرَهَم إن هم استجابوا لأنفُسهم، وتَبعوا أهواءَ عقولِهم، فلا شيء أكثرُ إقناعًا لكَ بالرجوع، من رؤيةِ مصيركَ المخيف في غيرك.. ومادام جنونُ هؤلاء المجانين مقتصرًا على أفعالِهم الغريبة فلا بأس بهذا، ويمكن أن نمدَّ لهم يدَ العلاج، لكن إن تحوَّل جنونُهم نحو الرفض ومناقشة الدولة في شؤونها، عندها يجب إغلاق المصحات تمامًا وعدم السماح لمن بداخِلِها بالخروج -أو مَن خارجَها بالدخول- حتّى لو كانوا سيقدّمون للخزينة ما يثريها، وسأعتبرهم حينها متمرّدين يجب أن يخضعوا للسجن والعقاب، لا للعزل والدواء.".

اجتمع مدير المصحة بالهيئة الطبية ليُبلغَهم قرارَ الوزارة باعتماد المصحات على دخلِها الذاتي لتوفيرِ احتياجاتها الزائدة عن الميزانيّة المحدَّدة.

لم يفهم أحدٌ من الجالسينَ ماذا تعني هذه الجملة "دخلُها الذاتي"، وهو ما سأل عنه أحدُ الأطباء بشيءٍ من السخرية:

- أيُّ دخلٍ ذاتيّ يا حضرة المدير، هل سيقوم الأطباء بحياكة الملابس أم سنطلب من المرضى زراعة الطماطم وعرضها في الأسواق؟!

- رغم طريقتكَ غير اللائقة، لكن أنت محقّ، سنعتمدُ فعلًا على المرضى في هذا، لأنَّ القرار حدَّد مصدر الدخل بدقة: فتحُ المارستان للجمهور، لمشاهدةِ ومتابعةِ أحوالِ المرضى، مقابل رسومٍ للدخول!

ارتفعت أصواتُ الأطباء باعتراضٍ صريح.. مؤكّدين أنَّ هذه مهزلة.. قال البعض "هل نعمل في المارستان أم في حديقة الحيوان؟".. وككلِّ شيءٍ يعلو، خفَتَت الأصوات في النهاية. لاسيّما بعدما علم الجميع أنَّ الوزارة لن تتكفل إلّا برواتب الأطباء والعاملين، وكلُّ ما يحتاج إليه المرضى، سيكون على المرضى أنفسهم توفيره.

كان واضحًا للجميع أنّه قرارٌ بمعاقبة الجنون، كما كان واضحًا أنَّ القرار لا رجعة فيه.

لم يحضر الدكتور ناصف ذاك الاجتماع، لكونهِ طبيبًا منتدبًا، وكان الاجتماع مقصورًا على هيئة الأطباء الأساسيّة بالمصحة، فمكثَ بمكتبهِ ينتظر عودة الطبيب الشاب من الاجتماع ليعرف ماذا حدث.

دخل الطبيب إليهِ وجلس على المقعد المقابل دون أن ينظر إليه.. وأرخى رأسه بين راحتيه، وقال كأنّه يحدّث نفسه:

- سيجعلونهم حيوانات.

●●●

اقتحم الدكتور ناصف على مدير المصحة مكتبَه، دون طرقٍ، بعدما عرف ما تمخّضَ عنه الاجتماع:

- هل حقًّا ستعرضون المرضى للجمهور؟ هل جعلتم الأطباء النفسيين أطباءَ بيطريين؟ حتّى البياطرة يعالجون حيواناتهم ولا يعرضونهم في أقفاصٍ ليتكسّبوا من جراحهم!
- اِهدأ يا دكتور ناصف. صدّقني أنا أكثر منكَ رفضًا لهذا القرار، وقد نزل عليَّ كالصاعقة. لكن لا حيلةَ لي، وحتّى لو رفضتُه فإنّهم سيقومون بتوليةِ إدارة المصحة لآخرَ ينفّذُ قرارَهم. الأمرُ محسومٌ بالنسبة لهُم. لقد ناقشتُ الوزير لأكثر من خَمسِ ساعات، ومعي كلُّ مديري المصحات الأخرى الذين أفزَعهم ما أفزعَنا، لكن بلا نتيجة. الواقعُ ثقيلٌ جدًّا، والوزارة تؤكّد أنَّ الميزانية المحدَّدة يستحيل عليها استيعابُ كلُّ هذه الأعداد والإنفاق عليها. عندنا هنا فقط في المارستان المركزي سبعةَ عشرَ ألفِ مريض، وأنت ترى العنابرَ وقد صارت مثل حظائر الدجاج وبها خمسَةُ أضعافِ طاقتِها، وحتّى بعدما صنعنا عنابر خشبيّة في فناء المارستان لازال العددُ فوق كلِّ الطاقات. ليس عندنا سوى خمسة وستون طبيبًا. في كلِّ مصحات العالم

يقوم خمسة عشرَ طبيب على ألفِ مريض، كلُّ طبيب من المفترضِ أن يباشرَ ستَّة وستين نزيلًا، ولدينا كلُّ طبيب مكلّف بمتابعة ستمائة وواحدٍ وستين مريضًا! هذا عملٌ مستحيل. ومع ذلك بذَلنا مجهودًا جبّارًا وأنت شاهدتَ بعينك ما نفعل، لكن لم يعُد الأمر متوقّفًا على مجهود الأطباء الذين لا يعودون لمنازلهم، بل أصبح يخصُّ الدواء والطعام والأدوات والملابس، ولم يعد لدينا أيُّ شيءٍ من هذا! والوزارة تقول ليس عندي ميزانيّة، فماذا نفعل؟ هل نغادر المصحة ونرحل؟!

- لا تعرِض المرضى، أنا أملكُ ثروة يمكنكَ أن تستخدمها كيف شئت، سأضعُها تحت تصرّفك، تنفِق منها على احتياجات المصحة.
- لكم أسبوعٍ ستكفي ثروتُك يا دكتور؟ إنّه البحرُ تُلقي فيه بقبضةِ رمال! فماذا تصنعُ رِمالُكَ مهما كثُرَت؟
- سأجمعُ لك المالَ من الأثرياء الذين أعرفهم، سأتصل بالمنظمات الدولية، سأفعل كلَّ شيء، لكن لا تفعل هذا بهم.
- سأكون معكَ أكثرَ من صريح، لا أنصحُكَ بهذا يا دكتور، الدولة تعرف ما تفعل! القرارُ سياسيّ. إنّها تريد أن تُرهب الناس مِن الجنون وتعرِضَه عليهم في أبشع صورة، لقد اعترفَت الدولة بما كنتَ تنادي أنتَ

به منذ عشرين سنة. ألم يكن موقفكَ دومًا أنَّ الجنون حركةٌ اجتماعيّة، وليس مرضًا، ها هي الحكومة بأسرِها أقرَّت برأيكَ، ستعاملُهم كمتمرّدين تجب معاقبتهم، وجَعْلهم عبرة! وإذا فعلتَ ما تقول فلن يعاملوكَ كطبيب يحملُ قلبَ إنسان، بل سيحاسبونَك كثوريٍّ يقودُ حركةَ الجنون ويدافعُ عنها. لقد أعلنَت الدولةُ الحربَ على الجنون، وهذه أوّلُ خطوة، ولا أحسبُ الأمرَ سيتوقف عند هذا، فإنَّ الأبشع لم يأتِ بعد! من فضلك يا دكتور ناصف، أُترك المارستان. فإنّكَ لن تحتمل القادم، ونحن لن نحتمل رؤية وجوهنا حين تنعكس في عينكَ التي تجلدنا.

●●●

في اليوم الأوّل للعرض، أخرجَ المارستانُ المجانينَ الأكثر شذوذًا في سلوكِهم إلى الساحة، وكان إقبالُ الجمهور، كبيرًا، وغير متوقَّع، لمشاهدةِ البشرية في حديقة الحيوان، لكن تحتَ اسم: عرض المارستان. ولاحظ المسؤولون أنَّ الإقبال كان على بعض المجانين أكثر من غيرهم، فلم يكُن البُلهاء يجذبون الجمهورَ كثيرًا، وكان الإقبال الأكبر على أولئكَ الذين يتعرّون ويظهرون عوراتهم للجمهور! يلقُون عليهم الفاكهة والخبز، فيبالغُ بعض المجانين في افتعال أشياءَ أكثرَ فجاجةً، كمن يخرج عضوه ويحرّكه بسرعة وتوتّر، فيحظى بقدرٍ أكبرَ من هِبات الجمهور، فلا تعرِف هل هم حقًّا مختلّونَ لا يعرفون ما يفعلون؟ أم أنّهم يستغلّونَ هؤلاء السذَّج الذين يشاهدونَهم ويبتزّونَ ما في جيوبهم من طعام؟ فلا تفرِّق أيَّ الفريقين كان أكثرَ جنونًا!

أغلبُ المجانين كانوا لا يكترثون لهذا المهرجان الكبير، يحدّقون في وجوه أولئك الذين جاءوا للمشاهدة وهم يصيحون ويصرخون بجنونٍ ليستثيروهم وهُم صامتونَ لا يستجيبونَ لهم، يبجّلونَ جنونَهم الخاص ولا يبذلونَه رخيصًا أمام الجمهور العاقل! عدا القليل منهم كانوا يمارسُون جنونَهم بأريحية ودون انزعاجٍ من الحشد الكبير، كتلك المصابة "بالغُلمة"، ظلَّت تمارس العادة السرية دون التفاتٍ لأحد، ممّا جعَل إدارة المارستان تضعُ المصابين "بالهوَس الجنسيّ" من النساء في

أقفاصٍ خاصة ومنعزلة، نظرًا للإقبال الكبير عليهنَّ. في البداية جعَلَت الإدارة مشاهدةَ أولئكَ حصرًا للنساء، ثم فتَحَت المجال بعد ذلك لمن أرادَ المشاهدةَ من الرجال، بعد أن رفَعَت سعرَ تذكرة الدخول إلى تلك الأقفاص خمسةَ أضعاف، ولم يعترض أحدٌ على هذه القيمة المبالَغة.

عندما دخل الجمهور إلى ساحة العرض كان أغلبُهم مضطربًا وخائفًا.. سمع الجميع عن هؤلاء الذين أصابَهم الجنون بعدما صدّقوا أفكارَهم الغريبة واتّحدوا مع أحلامِهم. فأصبحَ الناس ينامون مضطربين وإذا استيقظوا يهربون من محاولةِ تذكّر ما رأَوه في النوم، ويسألون مَن حولهم: "هل جُننّا أم أنّنا لا نزال كما نحن عقلاء؟!".. حتّى أنَّ الرجل يسألُ زوجتَه قبل النوم: "لقد فكّرتُ اليوم لو أنّني استطعتُ أن أطير لما اضطررتُ لركوب المواصلات المرهِقة ذهابًا وإيابًا، لكنّي أُقسم أنّني أعلَم أنّي لا يمكن أن أطير، وأعرفُ هذا جيّدًا ومؤمنٌ به، فهل تلاحظين أيَّ تغيّر بي؟".

هؤلاء المتشكِّكون الخائفون، كانوا يمثّلون أغلبَ جمهورِ المارستان، ذهبوا ليُثبتوا لأنفسهم أنّهم عقلاءُ، بدليلِ أنّهم أتَوا إلى هنا ليشاهدوا جنونَ المجانين.. كان بداخل كلٍّ منهم حقدٌ وكراهيّة لهؤلاءِ الذين فقَدوا عقولهم، لأنّهم بجنُونهم صاروا يمثّلون المرآةَ القبيحة التّي تُشوّه الوجه، والمصير المشؤوم الذي يتهدَّدُهم، ولذلك بالغوا في السخرية منهم واستعمالِ العصا لضربهم

وقذفِهم بقسوة بالفاكهة الصلبة كالتفاح والرمان، كأنّهم يَرجُمون زناةً هدّدوا قيمةَ شرفهم وعفّتهم وتجاوَزُوها.

بعضُ النساء كنَّ يخبّئنَ عيونَهنَّ حتّى لا يرينَ الأفعال المخزية التي يقوم بها المجانين، ومع الوقت تعوّدنَ الأمر وانبسطَت وجوهُهنَّ المتشنجة وتتابعت البسمات التي تحوّلت في النهاية لضحكاتٍ عالية. واللواتي كنَّ يبكين لرؤية المصابات "بالغُلمة" ويغضُضن الطرف عنهنَّ، أصبحنَ يقترنَ أكثر من القفص وينتظرنَ لحظةَ وصولهنَّ للنشوة، وأصبحَ الجمهورُ يتبادلُ كلماتَ السخرية والمداعبة، وتعرّفَ بعضُ الرجال على بعضِ النساء أثناء مشاهدة تلك المسرحية الشبقيّة، وكان موضِعُ التعرّف ورؤية المصاباتِ بالهوس الجنسيّ سببًا في اهتياجِ الجمهور وسريانِ السخونة في أجسادهم، ومقدِّمةً لا تحتملُ الشكَّ بأنّها ستنتهي بعلاقةٍ تجمعهم فوقَ سرير.. حتّى أنَّ البعضَ اعتادَ زيارةَ المهرجان الكبير مرَّة أو مرّتين في الأسبوع، بعدما صار معروفًا أنَّ "عرضَ المارستان"، وخاصّةً داخل خيام المصابين بالهوس الجنسيّ، مكانٌ جيّدٌ لطالِبي الرغبة، يسهُل فيه تعارفُ الراغِباتِ على الراغبينَ، دونَ وصمِ زائريها بانحلالِ الخُلُقِ والفُسق!

أمّا الحزانى الذين لا يتحرّكون لساعاتٍ طويلة وهُم على ذات الهيئة، يضعون رؤوسَهم بين أرجلهم ويحلّقون أياديهم فوق رؤوسِهم، فكانوا الأقلَّ جاذبيةً للجمهور، لا يمثّلونَ له قيمةً كبيرة، كأنّهم مجموعة من الفلاسفة أو المفكرين!

الحبلُ الفاصل بين هؤلاءِ وأولئكَ، شاهدٌ على ارتداد البشرية لأبعدِ نقطةٍ في انحطاطِها، مُثبِتًا كذبَ الادعاء بأنَّ الإنسانَ كانَ قردًا فصارَ بشرًا، ومؤكِّدًا أنَّه كانَ إنسانًا، فارتدَّ إلى إنسانٍ في قفصٍ يشاهدُهُ إنسانٌ خلفَ حَبل! في لوحةٍ لم يتوفّر لها رسامٌ عظيم كي يخلّدَ البشرية في أعجبِ صورها.

❁❁❁

كنت غاضبًا جدًّا عندما اتخذ مدير المصحة قراره بطرد الدكتور ناصف خارج المارستان. لكن بعدما حدث ما حدث، وتمَّ تنفيذُ ما قرّروه وعرضوا المجانين في الأقفاص وتحلَّق الجمهور حولهم، أدركتُ أنَّ مديرَ المصحة كان رجلًا حكيمًا. عَلِمَ أنَّ هذا كفيلٌ بقتل الدكتور ناصف لنفسه إذا رآه بعينه، فأعفاه من مباشرةِ تلك المهزلة الكبرى التي فاقت أعظم جرائمِ الجيوشِ الهمجيّة خسّةً، وكان قدرُنا تعيسًا للغاية القصوى حين وقفنا عاجزين أمام ما يحدث.

رفض جميع الأطباء التواجد بالفناء أثناء عرضِ المرضى للجمهور، والتزموا مكاتبَهم بصمتٍ، مخالفين أمر الإدارة التي طالبت بتواجدنا. كنَّا جميعًا مثل جنودٍ عادوا من حربٍ خاسرة. بل عدنا كفارّينَ من المعركة. جرذانًا مذعورةً مختبئة.

فكّرت في بادئ الامر أن أخلع القميص الأبيض وأغادر المارستان، بعدما تمَّ طرد الدكتور ناصف، فقد كان يمثل لي النورَ الذي يقودُ خطايَ في عتمة الجنون، وأشعرُ أنّه الحائط الصلب الذي أستندُ إليه حين يشتدُّ القتال مع ذاك العدّو المجهول! لكنّي عدلتُ عن قراري، واحتملتُ المكوث الذي لا يطاق هنا لأُكملَ ما بدأت وأدوّنَ كلَّ ما يحدث.

لا أعلم على ماذا سينتهي هذا الأمر، ومن سيفوزُ في المعركةِ الرهيبة بين الدولة والجنون.. لكن ما أنا على يقينٍ منه، أنه سيتمُّ تزويرُ ما يحدث. إنَّهم يعاقبون الجنون، وأعلنوا الحرب بلا مواراةٍ على هؤلاء المساكين، وأنا هنا الشاهدُ الوحيد الذي يسطُر حقيقةَ المهزلة، مهزلة البكاءِ الضاحك والبسمةِ الدامعة، في سجالٍ بين عقولٍ تجرّدَت من كلّ قيدٍ، ووقفَت عاريةَ اليدين في مواجهة العالم بأكمله. لذلك سأظلُّ هنا للنهاية، فلم أعد اليوم الطبيب، بل الشاهد الأخير على تاريخ المهزلة. مهزلةِ الضحكِ والبكاء.

لقد كان الدكتور ناصف محقًّا في كلّ ما قاله، الجنون لا يستسلمُ بسهولةٍ أبدًا.. وإذا كان الجنونُ لم يزَل يقاومُ رغم كلّ ما يدورُ حوله، فكيف استسلمَ هو وانسحبَ من المعركة؟..

رائحةُ الجنون، ترشح من الجدران.

لا شيءَ هنا خارجَ قبضةِ الجنون وسطوته. المجانين يفرضون إرادتهم، يعرفون جيّدًا ما يفعلون، يسيرون ببطءٍ حينما يشاءون ويتخبّطون في كلّ شيءٍ إذا أرادوا، يصرخون لساعاتٍ ويبكون لساعات ثم يصمتون أيامًا كاملة، حتّى بؤبؤُ عيونهم يصمت عن الحركة. يحدّدون كلَّ شيءٍ بعوالمِهم، أحرارٌ يَحترِمون حريةَ مَن حولَهم مِن المجانين، فما من صامتٍ قال لمن يصنع جلبةً وفوضى: كفَّ عمّا تفعل، ولا النشِط الفوّارُ بالحركة قال لمن هم أقربُ للموتِ في سكونِهم: لماذا لا تتحركون؟

لوحةٌ مقدّسة هنا لكمالِ الإنسانية وارتفاعها، لقد لامسوا أكثرَ ما في الإنسانيةِ من انحطاطٍ، وقَبلوا ذواتَهم، وأرواحَهم، على ما فيها. المليءُ بالشبق قرّر ما أراد -كذلك فعلَت صاحبةُ "الغُلمة"- فاللذةُ كامنةٌ في جنونه بجسدِه والرغبةِ في إمتاعه، لا في مواضع الإحساس.. والبُله ذاهلون على الدوام، عيونُهم لا تتوقّف لحظة عن فيضِ نظراتها الساذجة، الأبلهُ من ظنَّ أنه قادر على إيقافِ بلاهة رجلٍ حرّ اِختارَ عتَهَهُ ليحميه من كلّ العالم.. وذاك الذي يتحرّك من أقصى الغرفة لأقصاها كبندول ساعة لا يعرف التأخير لحظة، فيهرول من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، قد يتوقَّفُ العالمُ كلّه ولا يتوقّفُ المجنونُ عن الهرولة، حركته أبدية كحريةِ روحِه التي تعرّي بلادَةَ السكون.

يمشون بفوضى منتظمةٍ، فلا يصدمُ المجنونُ مجنونًا. فوضى لا تخطئ، ولا تخالف حريَتها، وكلُّ محاولات التدخل باءت بالهزيمة.. يغمرونهم بالماء، يصعقونهم بالكهرباء، يكبّلونهم بالسلاسل.. لكنَّ السلاسل لا تمنع من الصراخ والانتفاض الرهيب والرعدة الجبارة. الحركةُ من القلب، والمركزُ في عمقِ الروح. فماذا تصنعُ السلاسل؟ كلُّ الأدوية والكيمياء والأعشاب ألقت سلاحَها أمام الجنونِ المنحدرِ كصخرةٍ من رأس الجبل.

لوحةٌ مكتملة. بالغةُ الدهشة والإبداع.

ألقَت تلكَ الأرواحُ العقولَ في أبعدِ الآبارِ غورًا، وسحقَت كلَّ منطقٍ تحتَ سنابكِ خيلِ الجنون الجامح، فانطلَقَت الرياح

من الداخل إلى الخارج.. فلم يحتمل العالم عصْفَ الريح، وحبسوهم بين جدرانٍ مبطّنة بالإسفنج لعلّها تصدُّ العاصفة! لكنَّ العاصفة قد فغَرَت فاها، وكلُّ ما يأتي من الداخل، لا يمكنُ صدُّهُ.

لقد حرّرهم الجنون وحرّروه، لو توقَّفَ الجنون لتوقّفَ نبضُ الحياة فيهم، وانسحَقَت الروح، فاستمسكوا به كقلاعٍ لا تطالُها كلُّ المدافع. حمَلهم الجنون على أقوى جناح، وحرّرهم من كلِّ مكان، فلن تستطيعَ كلُّ العقولِ المقيَّدَة بالمنطق، والمثقَلَة بالقواعد، مجابَهةَ الجنون العاري. فلنحرِق كلَّ المعامل ونوقِف كلَّ التجارب ونصمُت كعبيدٍ في حضرةِ الآلهة الراقصة في الفراغ والضاحكة وسطَ عتمتِها المنيرة.. عيونُ أرواحِهم ترى في الظلام كما في الضياء.. فنورُهم نابعٌ من أرواحِهم.. وعندما عجزنا أمام حريتِهم، وتخاذلنا عن بلوغِ كمالِهم، *قهرناهم*. وسمّينا حرّيتهم جنونًا! الآن صدّقتُ كلَّ ما قاله الدكتور ناصف، والآنَ آمَنتُ.

لقد استطاع هؤلاء المجانين الجبابرة أن يحبسوا العقلاءَ خارج الأسوار، وتحرّروا هُم داخلها. ومن أرادَ مشاركتَهم طيفَ الحرية، فعليهِ تسلُّقُ جدارِ الجنون.

انتهى.

كان المارستانُ يمثّلُ حلقةَ الوصل بين الدولة والمرضى، ويعرف تمامًا ما يتوجَّبُ عليه فِعله. فالدولةُ كانت تريد التخلّص من ذاك الإزعاج الذي أصبح يُؤرقها بتزايدِ أعدادِ المجانين كلَّ يوم، ليس لأنّهم أصبحوا مجانين، لكن لأنَّ الناس يطالبونها بإعادتهم إلى حظيرةِ العقل، وهي مسؤولةٌ دومًا في أعين الناس عن تحديدِ المسارات، وقادرةٌ عليه. وإذا فشلَت الدولة في إثبات قدرتها على التدخّل الفعّال، سقَطَت. ليس بالضرورة أن تنجحَ في تغيير الوضع، لكنَّ الضرورة الملحّة هي إقناعُ الناس بأنّها قادرةٌ على هذا لو أرادت فِعلَه، حتّى لو لم تفعله أبدًا. ولذلك منَحَت الدولةُ إدارةَ المارستانات في طول البلاد وعرضها حقَّ تقريرِ مصيرِ مرضاها، شريطَةَ أن تُقنع الناس بأنّها تفعلُ الصواب، وقادرةٌ على تحقيق الشفاء. فأصبَحَ المارستان إمبراطوريّةً قائمةً بذاتها. مدير المصحة هو الحاكم، والأطباء وزراؤه، والممرّضون هم الحرّاس القُساة الذين يحملون السِّياطَ بأيديهم لضمانِ استقرار النظام. لكنَّ المارستان وقفَ عاجزًا من جديد أمام الجنون الصائل.

رغم أنَّ فتحَ المصحات للجمهور لمشاهدةِ المجانين قد حقَّقَ دخلًا جيّدًا، إلّا أنّه لم يكن كافيًا لسدِّ حاجاتها، رغم أنَّ الإدارات كانت تمتلكُ من النزاهة الكثير، فلم تمتدَّ يدُها لهذه الأموال القادمة لخزينَتِها لعلاجِ المرضى، وتوفيرِ الدواء، باستثناءِ

تحقيقِ بعضِ الرفاهيّة في مكاتبِ الإدارة، وصرفِ بعضِ البدلات لمديري الأقسام، والتي لم تكن مدرجةً في اللوائح.. معَ ذلكَ، لم يكن شيئًا كافيًا لمواجهَةِ كُلفَةِ الجنونِ الباهظة، ما دفَعَ المارستان إلى اللجوء إلى عمليات "القتل الرحيم" للحالات الميؤوس من شفائها، لا سيّما تلكَ المجهولة الهوية، لتخفيفِ الضغط على المصحات.

لم تقم المصحات بهذا على نطاقٍ واسع، لتَردُّدِ أغلب اللجان الطبيّة في توقيع حكم الإعدام. حدثَت بعضُ الإعدامات، على نطاقٍ ضيّق، أحدَثَت ضجةً كبيرة لمّا وصل الأمرُ للصحافة. كَثُرت المناقشاتُ على الشاشات حول أخلاقيّةِ الأمر ومن له الحقُّ بإنهاء حياةِ أحدهم، وإن أيَّدَ هذا بعضُ المُنظِّرين، وعارضَه آخرون، لكنَّ أحدًا من عامّة الناس لم يعترض، ولا حتّى ذوو المرضى الذين أَرسلوا أبناءهم للمصحات لا للعلاج لكن للتخلّص من عبئهم! فلجأت الوزارة لحيلةٍ جديدة لم يكن من الممكن رفضُها من أحدٍ، لا سيّما أنّها جاءت مباشرةً بعد انتشار الحديث عن القتلِ الرحيم، فكانت البديلَ الذي ارتضاهُ الجميع، وهو فتحُ المجال أمام الأفراد لكفالة المجانين، وحدّدت صفاتَ من يمكن كفالتُهم. فتمَّ رفعُ الأمر إلى البرلمان، للنظر في قانونية هذا الخيار الذي طرحَته وزارة الصحة كبديلٍ جديد.

انعقدَ البرلمان ليناقشَ القانون الذي قدَّمَته الحكومة بالسماح للمواطنين بإيواءِ بعض المجانين الذين لم يعد لهم مكانٌ بالمصحات، وعجزَت ميزانيةُ الدولة عن دعمِها لاستقبالِهم.

بعد قليلٍ من الاحتجاج من بعضِ النواب خوفًا من استغلال المجانين بشكلٍ سيء، أو عدمِ القدرة على تقديم الرعاية المستحَقَّة، صوّتَت الأغلبية بالموافقةِ على القانون.

الإقبال على التطوّع لهذه المهمّة الإنسانيّة كان ضعيفًا جدًّا في البداية، لكنّه بدأ يخفّفُ الضغطَ على المصحات التي تُطالبها الدولة على الدوام بحلٍّ مشاكلها، مهدّدةً إياها بأنّها إذا لم تكن قادرةً على رعاية مرضاها فلتُغلَق! لكن بعدَ وقتٍ غيرِ طويل بدأ الإقبالُ على طلب إيواءِ المجانين يزيدُ بشكلٍ ملحوظ، فقد كان المجانين ثروةً أحسنَ البعضُ استثمارها، فأصبح أصحابُ ورشات الحدادة والأعمال الصعبة يذهبون لاختيار المجانين الأقوياء -دون اهتمامٍ إذا كانوا من البُله أو المجانين الخطرين- ويُسخِّرونهم للعمل لديهم، فالجنونُ في عقولهم أمّا أجسادُهم فلا تزالُ قادرةً على العمل، ودونَ مقابلٍ. عَلِمَت إدارةُ المارستان بسرِّ اللعبة، فوضَعَت شرطًا ذكيًّا يمنحُها ميزتين: التخلُّص من المجانين. ودخولُ الأموال لخزانتها. فاشترطَت دفعَ مبلغٍ كبير تحت اسم: تأمين ضمان الرعاية! ففرضَت قيمةً كبيرة على تأمين تلك السلع. النساءُ الجميلات كُنَّ الأكثرَ كُلفَةً لمن يريد إيواءَهنَّ، فوضعت إدارة المارستان عليهنَّ تأميناتٍ كبيرة جدًّا، يأتي بعدهنَّ الرجالُ الأقوياء. وكلّما قلَّ الطلبُ على أصنافِ المجانين، قلَّت قيمةُ التأمين على رعايتهم.

●●●

اُكفل مجنونًا ببيتك، تلك الدعوة التي أطلَقَتها الدولةُ كاعترافٍ منها أنَّ الجنون أصبحَ أكبر من قدراتها على مواجهتِه منفردة، وخرج المسؤولون على الشاشات يتساءلون: "أيُّ دولةٍ تلك التي يمكنها التكفّلُ وحدَها بشعبٍ أصبح عُشرُه من المجانين؟ حتّى في حالاتِ الحربِ والهزيمة لا تصل الخسائر فيها لعشرة بالمائة من الشعب، لكنَّ الجنونَ فعَل.. لقد وفّرنا لهم كلَّ المصحات التي استطعنا توفيرها، وحوَّلنا كلَّ نوادي الرياضة وثلُث المدارس إلى مصحّاتٍ عقليّة، وأصبحَ لزامًا على الدولة أن تلجأَ لهذا الخيار الصعب.. فإذا كان بإمكانِ طبيبٍ بيطريّ أن يتعلّمَ كيف يتعامل مع الجنون فلن يصعُبَ على مهندس أو محاسب أو حتّى مُزارع أن يقومَ بالأمرِ نفسه إذا آوى مجنونًا ببيته، لا سيّما أنَّ الفئة التي سيتمُّ عرضُها للكفالة هم من المجانين الذين يمكن توجيهُهم بيسرٍ".

مضى وقتٌ طويل منذُ بدءِ ظهور الكارثة. مع الوقت يصبحُ كلُّ شيءٍ معتادًا، حتّى الجنون! فكما في الحرب تعتادُ العيونُ مشاهدَ الدماء، ويخفتُ صوتُ الحزن، وتمتدُّ الأيادي بيسرٍ ودون ارتعاش لحملِ الأشلاء، ولا تُفزِعُ المجازرُ القلوب، هكذا أصبحَ الأمرُ مع الجنون. الرهبةُ القديمة والفرارُ من كلِّ مكانٍ يظهر به مجنون، لم تعد هناكَ، فلم يَعُد ثمةَ مكانٌ يمكن الهروب إليه! الجنونُ منحشرٌ في كلِّ الزوايا، فاعتادَ الناسُ على مجانينِهم،

وغايةُ الأمر أنَّ أحدَهم يرى أنَّه عاقلٌ إلى أن يحينَ دورُه ببساطةٍ، أو لا يصيبُه الدورُ بالبساطةِ ذاتها.. أصبح الأمر أشبهَ بالإيمان العميق الواثقِ المطمئن.. فذهبَت كثيرٌ من الأسَر إلى المصحّات لاستعادةِ أبنائهم الذين كانوا يقاتلونَ كي يجدوا لهم موضعًا بالمارستان. أدرَكوا أنَّ المارستان لا يشفي جنونًا! كما أنَّ عزلَ المجانين عنهم لا يحميهم من الإصابة بالجنون. فعلامَ يتركون أبناءهم ليكفُلَهمُ الغرباء؟!

لم يعد هناك نظامٌ يحدّد شروطَ الكفالة كما كان في أوّلِ الأمر، وأسقَطَت المصحاتُ شرطَ دفعِ مبالغِ التأمين الخاصة بالرعاية التي كانت تُحصِّلُها، فقاعدةُ كلِّ الأسواق أنَّ السلعةَ إذا كثُرت، رخُصَت. وقد امتلأَت المخازنُ عن آخِرها وأصبحَ العرضُ بالغ الرخص، حتّى أصبحَ بالمجَّان. فتمَّ وضعُ المجانين المتاحين للكفالة في مكانٍ مفتوح مُحاطينَ بسياجٍ من حبل، لا يمنعُ الداخل ولا يردُّ الخارج، فيحضرُ من يريد الكفالة ليقلّبَ بصرَه في وجوهٍ ذاهلة عمّا يحدُث لها، ينتقلُ من تقليب البصر إلى الفحص الذاتي، يمسكُ بمن يريدُ كفالَتَه أو كفالَتَها ويقلّبها يمينًا ويسارًا، ليرى إن كان الأمر يستحقُّ عناءَ الكفالة، أو لا يستحقّ، لا أحد يسألُه لماذا أخذتَ هذه، أو لماذا تركتَ ذاك؟ فقط مُدَّ يدكَ وخذ ما تشاء، وارحَل بسلام!

كثيرٌ من الشباب العازب وجَد ضالَّته بالمارستان. يذهبُ أحدُهم إلى المصحة لانتقاءِ حسناءَ من المجانين يكفلها، فتنتهي

معاناته! وكان يحدُث أنّه بعد وقتٍ يمَلُّ من محظيتهِ فيتخلّصُ منها بإلقائها بالطريق، ثم يذهبُ لتجديدِ الكفالة بأُخرى.. كما أنَّ بعضَ الزوجات يذهبنَ لانتقاءِ نساءٍ قويّات، يحرصنَ على أن يكُنَّ غيرَ جميلات، ثم يأخذونهنَّ لبيوتهنَّ فيسهلُ عليهنَّ الجهدُ الذي كنَّ يبذُلنَه في الاعتناء بالمنزل، كما راجت كثيرٌ من الأعمال، فلم تعد هناك أزمةٌ بالمشافي في الأعضاء البشرية النادرة كالكُليّ أو القرنية! وانتعشت سوقُ الدعارة، بتوافرِ نمطٍ جديدٍ، له غرائبيةٌ مثيرة!

●●●

الخطواتُ الجديدة، التي اتّبعتها المصحات لترهيب الناس من الجنون، فشلت، ولم تؤتِ ثمارها.

كلُّ الخطوات وقفت عاجزةً أمام سيلِ الجنونِ الهادر.

طمحَت الدولة إلى ترهيب الناس من الجنون، فكانت النتيجة أنَّ أعداد المجانين في تزايدٍ، موقفُ الحكومة أمام الجميع بائسٌ، وقد بدَت عاجزةً عن فعل شيء، فكثرت الأصوات المطالبة برحيل الحكومة كلّها، وعلى رأسها الرئيس، مادامت لا تستطيع فِعل شيء.. اجتمعَ الرئيسُ بقادة الجيش وطالت المداولات وتحديد الخطط لحسم الأمر، فكان قرارُهم الأوّل، إخراج الطبّ من اللعبة كلِّها. على أن تتولّى الدولةُ حسمَ الأمر. ثم توالت خطواتهم المحدَّدة بدقّة، فتمَّ جمعُ المجانين الذين خرجوا من المصحات تحت مسمى الكفالة، وإعادتهم مرّةً أخرى إلى المارستان، وتمَّ الإعلانُ عن عقوبةٍ رادعة لمن يخفي مجنونًا ببيته، أو يتستّر عليه! فلم يتوانَ أحدٌ عن تسليمِ عُهدته! ووقفَت سيارات الشرطة في الميادين وعلى رؤوسِ الطرقات تستقبلُ من يتمُّ تسليمُه من المجانين، فتحمِلُهم مباشرةً إلى المصحات.

تشكّلت بعد ذلكَ عدّةُ لجان تعمل في وزارات "الدفاع"، "الصحة"، "الداخلية"، "الإعلام"، و"البيئة"، لإقامة سدٍّ صلب، لردِّ أسبابِ الجنون. حدَّدت لها هدفًا واضحًا: مكافحةُ الأحلام

والأفكار. فانتشرَت يافطاتٌ على الطرق "لا تحلم أثناء النوم لا تُفكِّر أثناء اليقظة"، وخرجت وسائلُ الإعلام على الناس بعشراتِ التوصيات والتحذيرات من خطورة التمادي في التفكير أو اتّباع الأحلام، كما وفَّرت وزارةُ الصحة أدويةً بالمجان، وأُقيمت مراكز ثابتة تديرها وزارتَا الدفاع والداخلية لتوزيع تلك الأدوية بكشوفٍ تحمل أسماءَ كلِّ العائلات في كلِّ مربّعٍ سكنيّ، وأكَّدت أنَّ من يتأخر عن استلام أدويته سيتعرّض لعقوبة.. وكان على رأس تلك العقاقير دواءٌ يحتوي على مادّة "الكلوربرومازين"، التي كانت تُستخدمُ قديمًا أثناء الحروب لمعالجة صدمة الجراحة، وتجعل من يتناولُها في حالة لامبالاةٍ دائمة بكلِّ ما حولَه، ثم اُستخدِمَت بعد ذلك في معالجة المظاهر الذهانيّة، وخاصةً الهلاوس، بوصفها أحد أقوى "المثبّطات العصبيّة".. كما أوصت وزارة الصحة بتناول الحبوب المنوّمة، لأنّها تمنع العقل الباطن من الانفلات أثناءَ النوم وتهدئ بؤبؤَ العين فلا يتحرّك صانعًا الأحلام، ممّا يقي من مخاطِرِها!.. وقامت وزارة البيئة بإغلاقِ كلِّ الحدائق العامة، حتّى لا يجلس الأفراد مع أنفسهم متأمّلين، ممّا قد يُهيّج العقل على الأفكار الغريبة، وأصبح الدورُ الوحيد لهيئة التشجير هو تمشيطُ الطرقِ لاقتلاعِ الأشجار!.. وتكوّنت في وزارة الداخلية قوّةٌ خاصة مُستحدَثة، تمَّت تسميتُها "قوَّةُ مكافحةِ العصافير"، تخصَّصت في إبادة العصافير التي قد تَحُثُّ زقزقاتُها وطيرانُها على التفكير.. وتمَّ تحذيرُ المواطنين من الوقوف بالشرفات ليلًا، وأن

يَحذروا تمامًا مراقبَة شروق الشمس، ويلزموا منازلَهم في أوقاتِ هطولِ المطر، وأن يتجنّبوا النظرَ إلى السماءِ بشكلٍ عامٍّ.

نجحَ تفعيلُ القرارات بدقةٍ متناهية، وبعقوباتٍ حازمة إزاء أيّ خَرقٍ لتلكَ القرارات، فلم تترك ثقبًا واحدًا يمكن أن ينفُذَ منه الجنون!

لم تكن الغرابة في قرارات الدولة الرهيبة تلك، إنّما الغرابةُ أنَّ الجميعَ قد استجابَ لها دونَ تردُّدٍ ولا مناقشة، بل رأَوا فيها الخلاصَ والنجاةَ من الجنون، فكان إقبالُ الجماهير على تنفيذِها تلقائيًّا، وبلا توجيهٍ.

قبل مرور ستّة أشهر بدأت الخطة تعطي نتائجها المنتظَرة. أصبَحَت الطرقاتُ مكتظَّةً بقطعانٍ من المتبلّدين.. عيونُهم زجاجيّةُ النظرة.. وجوهُهم لا تحملُ أيَّ تعابير متمايزة.. تشابَهت عقولُهم فتشابَهت وجوهُهم، كدولةٍ من التوائمِ المتماثلة! وجوهُ كلِّ الرجال كوجوهِ كلِّ الرجال، بل وكوجوهِ كلِّ النساء، وحركتُهم بطيئةٌ، لا يبتسمونَ ولا يغضبونَ، لم تحدث مشاجرةٌ واحدة، وحتّى عندما يحدث -وهو أمرٌ نادرٌ جدًّا- حادثُ سير، فإنَّ المتصادمَين لا يتشاجران ولا يتعاتبان، بل حتّى لا يُوقِفُ أحدُهما سيارتَهُ لينظرَ ماذا أصابها، فغايةُ الأمر أنَّ هناكَ سيارةً صدمَت سيّارته.. وأصبحَ من الملاحظ قلّةُ الزيجات الجديدة، تقريبًا لم تعد هناك أيُّ قصصِ حبّ، بعدما تخلّصَ الجميع من الأوهام، والعاهراتُ المحترفات أفلسنَ تمامًا، فلم يعد هناكَ أحدٌ يهتمُّ

كثيرًا بممارسة الجنس خارج المنزل، حتّى الشبابُ من غير المتزوجين لم يعد لهم اكتراثٌ بهذا، والحقُّ أنَّ العاهرات أيضًا كنَّ خائفاتٍ، فتناولنَ "الحبوبَ المثبِطة" حتّى تحولنَ في النهاية إلى نساءٍ عاديات محترمات! ينزعجنَ من بروزِ مفاتنهنَّ فيرتدينَ الملابسَ الأكثر احتشامًا. الأعمالُ رغمَ كلِّ شيء لم تتوقف، فقط كان كلُّ شيءٍ يسيرُ *ببطء*، لكنّه لم يكن بطئًا ملحوظًا. لأنَّ أحدًا لم يكن على *عجلةٍ* من أمره. لذلكَ لم يعد لكلمتَي" *البطء*" و"*السرعة*" معنًى واضحًا! لم يَعُد حتّى بينهما تضادٌّ مفهوم! هما فقط مجرّدُ "*كلمتين*"، ككلِّ الكلمات التي أصبحَت تُستخدم ليقولَ الناس شيئًا. أيَّ شيءٍ. لكن بلا معنى. فعندما يقولُ مثلًا أحدُ المثبَّطين لزوجتِهِ "أنا *غاضبٌ* لتأخرِّ الغداء". فهو لا يقصدُ أنّه *غاضبٌ* بالفعل، لكنّه تعوّدَ أنَّ تأخُّرَ الغداء عن موعده أمرٌ مثيرٌ للغضب، هكذا بحُكمِ العادة القديمة، ولذلكَ فهو يردّدُ الكلمة دونَ أن يقصدَ منها شيئًا، فتضحَكُ زوجتُه بصوتٍ مرتفع كردٍّ على كلمة غاضب، لا لأنّه قالَ شيئًا مضحكًا، لكن لأنَّ عليها أن تفعلَ شيئًا إزاء تعبيره المتمثّل في كلمة "*غاضب*"، وقد يحدثُ أن تمرَّ ساعتان أو أكثر دون وضع الطعام رغم أنّه معَدٌّ بالفعل! ولا يتغيّر شيءٌ في الموقف.

قامت "الحبوب المثبطة" للجهاز العصبي بردعِ الجنون. كما قامت بحلِّ كثيرٍ من المشكلات القديمة.. لقد كانت على خطورتها فعالةً جدًّا في حلِّ كلِّ شيءٍ وتفكيكِه.. الأشياءُ تحدث لأنّها كانت على الدوام تحدث!.. كانت سابقةً في التاريخ أن تصبح

دولةٌ بأكملها متوقّفةً عن التفكير، أو الخيال، بعدما تمّت إزالةُ كلِّ الأسباب التي تدعو إليهما، **دولةٌ مخدَّرةٌ ومثبَطةٌ بإرادتِها الكاملة**، فقط لتهربَ من الجنون، أو لتهربَ من أحلامها، وأفكارها، التي ربما تقودُها إليه.

الأمر "*الجيّد*"، أنَّ كلَّ المدارس والجامعات أصبح العمل فيها منتظمًا بشكلٍ ملفت، فلا أحدَ يتغيّب عن الدراسة أو يتوانى عن عمله المنوط به، لا من المعلمين ولا من المتعلمين، وليس هناكَ تقصيرٌ ولا مشكلاتٌ أو مشاغبات، ليس هناك من شيءٍ، سوى أساتذة يحاضرون من كتبٍ مفتوحة أمامهم يقرأون منها دون أن ترتفع أعينهم عن صفحاتِها، وتلامذةٌ يجلسون ويستمعون، يستمعون لأنَّ حاسةَ السمع هي الحاسةُ الوحيدة التي تعملُ بشكلٍ تلقائي ولا يمكن التحكم بها، فتنتقلُ المعلومة تلقائيًا من الأستاذِ إلى تلميذه! والنتائجُ كانت عادلةً للغاية القصوى، فكلُّ الطلبة -بلا استثناءٍ- كانوا يحصلون على نفسِ التقدير: "*جيّد*". فقط *جيّد*. لا أحدَ ممتاز. ولا أحدَ ضعيف. لقد كان كلُّ شيءٍ يسيرُ بشكلٍ "*جيّد*". وحتّى هذه الكلمة لم تكن تعني أكثر من "كلمة".. معلوماتٌ حفظَها طالبٌ وأعاد كتابتَها بورقةِ امتحانه كما هي، فقيل له هذا "*جيد*".

فقط كلياتُ التربية الموسيقية هي من تضرّرت، لأنَّ الدولة قد منَعت الموسيقى تمامًا وسنّت عقوبات على كلِّ من يتلبس بآلة موسيقية! أمّا كلياتُ الفنون الجميلة فتعايشَت مع الأمر، تمَّ تقليصُ كلُّ أقسامِها لقسمٍ واحد: "الرسمُ التكعيبي". الذي لا

يحملُ أيَّ ملامح لوجه أو صور من الطبيعة، إنّما فقط مكعباتٌ منتظِمة. والحقيقة أنَّ هذا لم يكن جبرًا على الطلبة أو الأساتذة، لأنَّ أحدًا لم يعد قادرًا على الرسم، فلم يعد لدى أيٍّ منهم القدرة على الخيال.

الموظّفون والعمّال أفادَهم التثبيطُ بشكلٍ كبير. لا يشعرون بالضجر أو الغضب إذا بذلوا جهدًا كبيرًا أو أصابَهم التعب، تمامًا كما أنّهم لا يفرحونَ بإنجاز أيّ عمل، ولا يطمحونَ لترقيةٍ أو زيادةِ كسب، فالوضعُ على ما هوَ عليهِ: أمرٌ لابأسَ به، أمرٌ جيّد.

استقرَّ الوضع وتنفّست الدولة بعمق.

غاب الجنونُ عن المشهد، فلم تظهر حالةُ جنونٍ واحدة منذ أحكمَت الدولةُ قبضَتها على العقول، وهؤلاء الذين انفلَتَت عقولُهم -قبل تدخُّلِ الدولة- لم يعد لهم من خطر، لا أحدَ يفكّر بهم أو يكترث لوجودهم خلف أسوار المصحات مع أطبّائهم، والمجانين الذين كانوا خارج المارستان قد عادوا إليه، هكذا أعلنَت الدولة. لكنَّ الحقيقة أنَّ المصحات لم تستقبل مجنونًا واحدًا، إذ تمَّ اقتيادُهم إلى أماكنَ مجهولة ولم يعرف أحدٌ عن مصيرِهم أيَّ شيءٍ،

بدأَت بعدها حركةُ تفريغ المصحات بإعلانِ عملية: إعادة التوزيع للمجانين. هكذا أعلنَت وزارة الصحة في بيانها لإداراتِ المصحات، أنَّه تمَّ تخصيصُ مصحاتٍ جديدة لـ"تخفيفِ

الضغط" عن الأماكن المكتظّة، وعليها ترحيلُ الأعداد الزائدة إلى المصحات الجديدة، أو تلك التي لا تعاني من الزحام.

كان الأمرُ مثيرًا للريبة! فلم يتمَّ الإعلانُ عن أماكنِ تلكَ المصحات الجديدة، كما أنَّه ومنذ تفشّي الجنون وكلُّ المصحات تعاني من نقصٍ حادٍ في الأطباء، فمن أين سيوفّرون لتلكَ الأماكن الجديدة طواقمَ طبّية؟.. هكذا كان يتساءل الأطباء.. راودَ الشكُّ الجميع، ومثلهم شعر الطبيب الشاب وزملاؤه، أنَّ في الأمرِ خدعة. اتصلوا بنظرائهم في المصحات الأخرى ليعرفوا ماذا لديهم، فأخبروهم أنَّ الأمرَ نفسُهُ يحدث عندَهم، فلا يأتي إليهم مجانينُ جُدد، كما أنَّ سيّارات من الشرطة والجيش تأتي من وقتٍ لآخر، فتحملُ عددًا من المحتجزين يخرجونهم إلى أماكنَ غيرِ معلومة تحت دعوى: تخفيف الضغط.

دخل الطبيب الشاب مكتبَ المدير، بلا استئذانٍ ولا مقدّماتٍ، ليسألَه عمّا يدورُ بالمارستان وغيره من المصحات:

- لماذا تأتي سياراتُ الشرطة كلَّ يومٍ ويأخذون المرضى دون الرجوع إلينا؟ أين يذهبون بهم؟
- ليس عندي جواب. أنا مثلُكَ لا أعرف ما يحدث..
- لكن أنا أعرف. لا يذهبون بهم إلى مصحاتٍ أخرى ولا يلقون بهم في الطرقات فأين يذهبون بهم؟ لا يوجد غيرُ احتمالٍ واحد، إنّهم يقومون بتصفيتهم!
- ليس لديَّ معلومات. لكن هذا هو الغالب.

- أنت مدير المارستان المركزيّ! اِستخدم سُلطتكَ، كيف تصمت على مثل هذا؟ أما يكفي ما قبلناه من مهازل، مرّةً نعرضهم كالحيوانات ومرّةً نبيعهم تحت مسمى "الكفالة" كالعبيد؟ هل أصبح المجانين مجرمين يُعاقبون على جنونهم؟ خدّروا الدولةَ بأَسرِها وأصبحَ لدينا شعبٌ من المسوخ! وهذا لا يعنيني، فقد اختارَ الناس هذا بإرادتهم، لكنَّ هؤلاء المرضى لا يملكون قرارَهم ولا يعرفون ما يُدبَّرُ لهم، فكيفَ تعرف أنّهم يُعدمونهم وتصمت؟!
- لا سُلطةَ لي.. لم تَعُد هنا سُلطةٌ لأيِّ أحد.. سيقتلوننا جميعًا يا بُنيّ..
- ماذا تعني بـ "جميعًا"؟؟
- إذا حاولتَ أن تخرج الآن من المارستان، فلن تستطيع! قبل دخولكَ بدقائق خرج من مكتبي أحدُهم، أخبَرني بأنّه ممنوعٌ خروجُ أيِّ عاملٍ أو طبيب لأسبابٍ لم يحدّدها.. والآن ستجدُ رجالَ الجيش يقفون على الأبواب يمنعون أيَّ أحدٍ من الخروج. وبعدما ينتهون من المجانين الذين لدينا سيحينُ دورنا. إنَّهم قرّروا إعدامَ الجنون، وكلَّ شاهدٍ عليه!

خلالِ أسابيعَ ثلاثة، لم يبقَ في المصحّاتِ مجنونٌ واحد، لم تعد أسوارُها تحتجزُ غيرَ الأطباء والممرضين فقط. ولا أحد يستطيع الخروج أو الدخول. تمّ عزلُهم عن العالم الخارجي.

قبل قطعِ الاتصالات والكهرباء عن المارستان بأيامٍ، اتّصل الطبيب الشاب بلبيب.

لم تستمرَّ المكالمة سوى دقيقتين، أوصاه فيها بماري، وقال له شيئًا لن يفهمَه سوى لبيب، إذ كان متشككًا أنَّ الهاتفَ قد يكون مرَاقبًا: "سأتركُ لك شيئًا أسفل المكان الذي كان يجمعُنا، فإذا بلغكَ اِختفائي، فاذَهب إليه وخذ ما تركتُه لك وأعطِهِ لماري.". ثم أغلقَ الهاتف.

مرَّت أيامٌ ثقيلة على سجناء المارستان، كان لديهم ما يكفيهم من الطعام والشراب لبضعةِ أسابيع، لكنهم كانوا جميعًا على يقينٍ بأنَّ الأمرَ لن يستغرق أسابيعَ، ولن يصلوا إلى مرحلة الجوع، سيقومون بتصفيَتِهم، قريبًا. اِزدادَ هذا اليقين بعدما تمَّ قطعُ الكهرباء عنهم، حتَّى أنّهم كانوا يتمنّون أن يتمَّ إنهاءُ المهزلة ولو بالقتل، فهذا أرحمُ كثيرًا من انتظار الموت بين كلّ لحظةٍ وأخرى. إذا اهتزَّت أغصانُ شجرة المانجو العملاقة تحت عصفِ هواءِ الشتاء ظنّوا أنَّ كتيبةَ الإعدام تتحرّكُ نحوهم. وإذا ارتفعَ مواءُ قطّة أو نباح كلب ارتعدَت قلوبُهم أمام توقُّع المصير.

جمَعَهم الخوف، فلم يكن أحدٌ يتجاسر على الجلوس منفردًا بعيدًا عن القطيع الذي ينتظرُ الذبح. اجتمعَ الأطباء وكلُّ العاملين في أحد العنابر، لعلَّ اجتماعَهم يخفف من سطوة الرعب الذي يتملكهم، والخوفُ ينتقَّلُ بينَ العيون بلا كلمة، والشموعُ التي أشعلوها لتطردَ العتمة الجاثمة، تتراقصُ ظلالُ

ضوئها وتحتضرُ كلَّ دقيقة. لأوّلِ مرَّةٍ يشعرون كم أنَّ هذه العنابر ضيّقةٌ وكئيبة. الجدرانُ عاليةٌ، والأسِرّةُ متلاصقةٌ، والهواءُ خانقٌ. السؤالُ ذاتُه يتردد في كلَّ الصدور دون أن يتجاسر على العبور إلى الألسنة: كيف حبسناهم هنا طويلًا بلا رحمةٍ؟ كلّما تنامى صوتٌ إلى مسامِعِهم، تتزايدُ ضرباتُ قلوبهم وتتقاربُ أجسادُهم، كلٌّ منهم يريد أن يفتدي نفسَه بمن بجوارِه. في داخل كلٍّ منهم شعورٌ بالخزي لا يمنحه حتّى القدرة على إيهام نفسِه بأنّه ضحية.

تسلّلَ الطبيبُ الشاب من بينهم حاملًا إحدى الشموع. لم يسأله أحدٌ عن وجهته. الخوفُ يسلسلُ كلَّ الشفاه ويطبِقُ فوق الألسنة، فلا كلام.

مشى في أروقةِ المبنى القديم. أشباحُ المجانين تسطعُ فوقَ الجدران ثمَّ تختفي، صراخُهم القديم يصمُّ أذنه كأنّهم لازالوا هنا! تعثَّرت قدمُه بجسدٍ ملقى، فرأى سماع متكوّمةً ملتصقةً بالجدار تبكي، زلزلَ الفزعُ قلبَهُ، وكادت الشمعة أن تسقط من يدِه، قرَّب الضوءَ منها، فوجدَها وسادةً مُلقاة!

الهلاوس تحيطُ به. أكملَ طريقَهُ نحو غايتِهِ، وكانت غايتُهُ حجرةَ رسول. محبَسِه الانفرادي الذي أطلقوا عليه "غرفَة العزل". دفع البابَ الحديدي، فأصدرَ صريرًا دَوّى في أرجاءِ الصمت، الأملُ يداعبُه بأنَّه سيجدُه جالسًا على سريرِهِ بهدوءٍ كما كان يفعلُ دائمًا، لكنَّ الحجرة خذلَته، فلا شيءَ إلَّا سريره والفراغ. جلس على السرير، ثمَّ تمدَّدَ فوقَه، لكنَّ السرير لم

يتكلَّم. بكى. وردَّد "سامحني يا رسول، الآن أصدّقكَ" ثم تبسَّمَ وهو يسترجعُ صوتَ رسول حين قال له: "عجيبٌ أمرك أيها الطبيب، إذا كانت لديكَ كلُّ هذه الحماقة، فكيفَ تكونُ عاقلًا؟".

أسقَطَ الشمعة، فسادَ الظلام. خبّأَ وجهَه بيديهِ وعاودَهُ البكاء. وجوهٌ كثيرةٌ تمُرُّ على عينيهِ وسط العتمة، الدكتور ناصف ينظرُ له بعتابٍ ولا يتكلّم، وديميان وجهُهُ مسالم، يرقدُ في هيئةِ المصلوب، والمجانين الذين ألِفَ وجوهَهَم يقهقهونَ من مكانٍ بعيد، وبراءة عادت طفلةً تجلسُ على الأرض وحولَها صغارٌ يلقونَ التراب على رأسها وهي تبكي. ورسول يقفُ عاقدًا يديهِ خلفَ ظهرِهِ بحكمةٍ ووقار.

الهلاوس تسحقُهُ، ولا تكفُّ سياطُها عن جَلده.

نزعَ وجهَه من بين كفّيه، فرآهم جميعًا يُحيطون به، ويتحلّقون حوله وهو وسطَ الدائرة، فتبسمَّ، والتمعَت عيونُهُ أمامَ الضوءِ المنبعثِ من عيونِهم. ضَحِكَ بصوتٍ راعد. ضحكاتُه زلزلَت الجدران وشقّت ثوبَ العتمةِ الصامتة، ضحكاتُه تتعالى وترتفعُ حتّى بلغَت السماء.

توقَّفَ كلُّ شيءٍ، وضحكُهُ لا يتوقَّفُ صداه.

●●●

انتظرَ لبيب كثيرًا قبل أن ينفذَّ وصيّة الطبيب الشاب. لم يستطع الذهاب إلى المارستان الذي تمَّ هدمُه، لأنَّ قواتَ الجيش ظلّت مُدةً طويلةً جدًّا تحمي حدودَ أنقاضِه، ولا تسمح لأيّ أحدٍ بالاقتراب من المكان.

التثبيطُ لايزالُ فعّالًا. لم يتغيّر شيء، **لم يعُد للجنون من وجود**. ولم يسأل أيُّ أحدٍ ماذا حدثَ للمجانين وأطبائهم! كأنَّهم لم يكن لهم من وجودٍ من قبل! الناسُ مشغولونَ بأنفُسهم وقد غرقوا جميعًا في البلادة، يمارسون كلَّ شيءٍ كانوا يمارسونه من قبل، بلا شعورٍ أو معنى، مثبطون على الدوام، لا يكترثون لشيء، فلماذا سينشغلون بالمجانين؟! لا أحد يفكّر بهم. إذ لا أحد يفكّر!

وحدها الدولةُ تعرف ما حدث ووحدها تتأهّب، فالخوفُ من عودة ذاكَ الجبّار جعلَ أصابعَهم دومًا فوقَ الزناد.

اتصل لبيب بماري فذهبَت إليه بعدَ تردّد. استقبلها بمكتبه في الفندق الخاوي من النزلاء والعمال، وأخبَرها بما قاله الطبيب الشاب قبلَ انقطاعِ أخباره، فأطرقت ولم تقُل شيئًا، لكنَّ شيئًا كالدموع التمع بعينيها، لكنها لم تبكِ. كان الجوُّ خانقًا وكلٌّ منهما لا يجد ما يقوله. رغم ثقتهما ببعضهما كان هناكَ شيءٌ من الخوف يحول بينهما.

وقف لبيب.. تحرك، ببطءٍ، نحو نافذة مكتبه، ثم قال: الأمرُ لم ينتهِ يا ماري.

- ماذا تقصد؟
- لقد حدّثني السرير! ربّما ترين الآن أني مجنون. لكنَّ هذا ما حَدث.. لقد عرفتُ من هو أبي، إنه "الإسكافي"، ذاك الكسول الذي كان يطالبني ألّا أسخر منه ومن جيراني.. اللعنة على أمي.. لم تجد غير هذا البليد لتمنحه نفسها.. يا لها من عاهرٍ فاسدة.. حتّى أنّي فكّرتُ أن أذهب لقبرها فأحرق رفاتها! لقد أخبرَني سريرُها بكُلِّ شيء. كان رسول محقًّا فيما فعل.. أنتِ لا تصدّقينني أليس كذلك؟
- بل أصدّقُكَ. وأعرف ما يحدث. لستَ وحدك.
- هل حدّثكِ السريرُ أنتِ أيضًا يا ماري؟!
- لا. لكنها الرؤى التي كانت تراود أبي قبل جنونهِ، أصبحت تراودني أحلامٌ مثلها! "العذراء مريم" زارتني في المنام مرّةً بعد مرّة، وأخبَرتني أنّي حُبلى، شيءٌ ما يتحرّك في بطني يا لبيب وأشعر به. أنا التي لم يَمسَسني بشرٌ، صرتُ حُبلى!

ذهبَا معًا نحو المارستان، كان المكانُ مقفرًا وخاليًا من كلِّ حركةٍ. الليلُ يخيّم على المكان وضوءُ القمر يلقي أشعّةً على أطلالِ الأبنية المهدَّمة فتظهرُ كأنّها شواهدُ قبور، أشباحُ أشياء تتحرّك بين الحجارة المتناثرة، كلابُ الليل تبحثُ عن شيءٍ بين الركام وقد سئمَت من النباح، تتحرّكُ، ببطءٍ، كأنّها لا تجد شيئًا تفعلهُ، فاكتفَت بهزِّ أذيالِها بين أرجلها لتدفعَ الملل. لبيب يمسكُ بيد ماري كي لا تتعثر بين الأطلال التي تحول بينهما وبين غايتِهما، وماري تتحرّكُ ببطء، وتضعُ يدها أسفلَ بطنها كأنّها ترفعُ شيئًا ثقيلًا بها.

تجاوزَا الأطلال حتّى بلغَا الأرضَ الخالية من كلِّ الأشجار إلّا شجرة المانجو العملاقة، تلكَ التي كان يجلس تحتها مع الطبيب الشاب ليقصَّ عليه حكاياتهم. دار حول المكان ليتأكّدَ أن لا أحدَ يراقب، فلم يرَ إلّا الكلابَ التي لا تأبَه لهما، بحث عن شيءٍ يحفر به فوجد حديدةً ملقاة فأمسكها وبدأ الحفر أسفل بقايا المقعد الخشبي الكبير الذي كان يجمعهما أسفلَ الشجرة، فوجدَ لفافةً بلاستيكيّة تحوي أوراقًا كثيرة، وقد كُتِبَ على الورقة الأولى بخطٍّ دقيق: "*اطارستان*".

أخذها لبيب، وأعطاها لماري، فأخفَتها بحقيبتها.

هبَّت نسمةٌ أطارت شعرَ ماري للوراء، واهتزَّت أغصانُ شجرة المانجو كأنَّها تنبّهُهُما لوجودها، فرفعَا رأسيهما إلى الأعلى: كان ضوءُ القمر قويًّا يتشعّبُ بينَ أغصانِها، كرماحٍ من نور، جِذعُها عملاقٌ يمتدُّ نحوَ السماء، وأغصانُها، متشابكةٌ تتعانَقُ.

كلُّ شيءٍ كان. طبيعيًّا.
عـــدا أمـــرًا واحـــدًا.. لـم يكـن فـوقَ الأغصـانِ ثمـرة مـانجو واحدة، فقد شاركَتهُما الطبيـعة الأمر، إذ،
طرَحَت شجرةُ المانجو، عناقيدَ العنب!

شكـــــر

لو كنتُ مدينًا لأيِّ أحد بخروج هذه الرواية..

فهو رجلٌ واحد:

الدكتور علاء فريد

الصديق الوفيّ، الذي كان معي منذ كانت الرواية فكرة، تناقشنا حولها لشهورٍ طويلة، ساعدني في البحث بين الكتب والمراجع العلمية، والتنقيب عن كلِّ ما يخصُّ الجنون، وكانت ملاحظاته حول الرواية ومراجعة كلِّ كلمة فيها بعد كتابتها.. نورًا أهتدي به لتخرج في أفضل صورة.

ربما لن أكون مبالغًا إذا قلت لولا "علاء فريد" لما خرجت هذه الرواية على صورتها.

فشكرًا لك يا صديق.